الدكتور سيد غازي

الأخطل

شاعر بني أمية

دار المعارف بمصر

الأخطـــل

شاعر بنى أميّـة

الدكتور سيّد غازى

الأخطل

شاعر بنى أميّة

الطبعة الرابعة

١٩٧٩



دار المعارف بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ليس الأخطل فى الأدب العربى بالشاعر المغمور الذى تقتحمه العين ، ويضيق عنه البحث ، فيطوى هملا فى زوايا التاريخ ، بل هو أحد الفحول الذين علا ذكرهم فى صدر الإسلام ، وملئوا عصرهم شعراً وحياة ، وشغلوا من بعدهم جيلا بعد جيل ، فنوهوا بمكانهم ، وترجموا لحياتهم ، وتحدثوا عن شعرهم فى أشتات من التواليف . وليس بحثنا اليوم عن حياته وفنه فى ظل بنى أمية بالجديد كله حتى نزعم لأنفسنا فضل الكشف عن جميع نواحيه ، بل هو جماع من جهدنا وجهود من سبقونا وعاصرونا من الباحثين ، نكمل به ما فى هذه الجهود من نقص ، ونكشف عما لم تكشف عنه من مجاهل ، ونناقش ما لا نراه فيها من آراء .

أما القدامى فقد عرضوا للأخطل فى بعض ما ألفوا فى الأدب والنقد ، فجمعوا شذراً من أخباره وأشعاره فى نثار من الروايات ، أتوا بها مجتمعة كابن سلام فى طبقات الشعراء ، وأبى الفرج فى الأغانى ، والمرزبانى فى الموشح ، أو بثوها متفرقة فى ثنايا كتبهم ، يستطردون بها استطراداً تدعو إليه الحاجة ، كالجاحظ فى البيان والتبيين ، والعسكرى فى ديوان المعانى ، وابن رشيق فى العمدة . على أنهم لم يعنوا بنقل أخباره عنايتهم بجمع آراء النقاد فى شعره ، فقلت بذلك أخبار حياته فى ظل بنى أمية ، وانحصرت فى مجموعة قليلة من الروايات ، تعرض شيئاً ما لموقفه من معاوية ويزيد فى هجاء الأنصار ، وتتناول موقفه من بشر فى الحكم بين جرير والفرزدق ، وتتحدث عن بعض ما كان يصنع فى بلاط عبد الملك ، وتشير من بعيد إلى علاقته بهشام والوليد ، ثم لا تعرض بعد ذلك لسائر صلاته ببنى أمية ، لا تكاد تذكر من عمالهم غير الحجاج . وهم لم يهدفوا بما كتبوه إلى زاوية يفردونها بالبحث ، ولم يقصدوا بما جمعوه إلى الدرس المنظم الذى نأخذ به أنفسنا اليوم ، بل كانت كتاباتهم عامة فى غير تخصيص ، ورواياتهم منثورة فى غير تنظيم ،

تنبهم حيناً ، وتتكرر أحياناً ، ولا تخلو من التعصب له أو عليه فى بعض الأحيان .

ثم عرض له المستشرقون فيما قاموا به من بحوث ، فجمعوا من روايات القدامى ما تفرق ، وألفوا بينها تأليفاً يهدف إلى شىء من النظام فى العرض ، ويحاول أحياناً أن يستكمل بعض ما فيها من نقص . وكان أكثرهم فى ذلك اهتماماً بشأنه وأوفرهم إنتاجاً فى دراسته وبحثه ، الأب هنرى لامانس . فقد أضاف بأبحاثه جديداً فى نواح لم يعرض لها من سبقوه ، فدرس قبيلة الأخطل فى حياته وبعد مماته ، وبحث عن حال النصارى فى ظل بنى أمية ، وتشكك فيما يروى عن السبب الذى لقب الشاعر من أجله بالأخطل ، ولم يكتف بما يروى عن نصرانيته ، فبحث عن المذهب الذى ينتمى إليه ، وأهمه أن يطلق وهو النصرانى زوجته ، فأتى بوجهة نظر يبرر بها فعلته ، ويجد فيه عبقريته فى الهجاء ، وتحدث عن السبب فى تعففه عن البذاء ، ووقف بخف القطين وقفة إعجاب ، إلى وقفات أخرى تناول فيها شخصية بعض من اتصل بهم من رجال الدولة ورؤساء القبائل والشعراء . على أن لامانس ومن لف لفه لم يقولوا عن الأخطل بعد القول الأخير ، ففى تراجمهم نواح تحتاج إلى المراجعة ، وأخرى أهملوها فلم يعرضوا لها ، هذا إلى حشو يمكن حذفه والاستغناء عنه ، وتعصب دينى ينحرف ببعضهم عن الجادة فى الحكم . وهم كالقدامى لم يهدفوا إلى التخصيص فى البحث ، بل كانت كتاباتهم عامة جامعة ، لا تنصب على زاوية بعينها ، ولم يراعوا الترتيب التاريخى فى العرض ، فلم تسلم تراجمهم من التقطع فى السرد ، وتقديم ما حقه أن يؤخر ، وتأخير ما أولى به التقديم .

وهم يعتمدون أكثر ما يعتمدون على التراجم العربية القديمة ، فإذا أرادوا إلى التوسع فى الدرس ، كما فعل لامانس ، استعانوا على ذلك ببعض المصادر التاريخية ، ينقلون منها ، ويعلقون عليها ، وقلما يعتمدون فى تراجمهم على شعر الأخطل . والتراجم القديمة ناقصة مضطربة ، ولا تكفى وحدها فى تصوير حياة الأخطل وفنه فى ظل بنى أمية . أما شعر الأخطل ، فهو حقيق بأن نستخلص منه ، إذا هو حقق تحقيقاً تاريخياً ، نواحى من البحث لا تعين عليها هذه التراجم القديمة وحدها . ففى هذا الشعر صورة من حياة الأخطل فى ظل بنى تغلب ، وفيه

أيضاً صورة من حياته فى ظل بنى أمية ، وفيه بعد ذلك صورة من حياته بعيداً عن ظل القبيلة والدولة . وهو بعد مرآة ناطقة تنعكس على صفحتها حياته كما أراد هو أن يعرضهما لا كما أراد له غيره . فلو أن المستشرقين لامانس ، نفضوا عن هذا الشعر غبار السنين ، وأطالوا النظر فيه ، وكشفوا لابسه من أحداث ، وأبانوا عما وقع عليه من مؤثرات ، لو أنهم جمعوا فى بين هذا الشعر محققاً مهضوماً ، وبين أقوال القدامى والمؤرخين مصححة فى واعتدال ، لكان من المنتظر أن يقولوا عن حياة الأخطل وفنه فى ظل بنى أمية أتم وأكمل مما قالوا .

فهم مثلا لم يستقصوا جميع ما عقده الأخطل ببنى أمية وعما لهم من صلات ، فلم يعرضوا كالقدامى لصلته بعبد الله بن معاوية ، وخالد بن يزيد ، ولم يتناولوا على غرارهم علاقته بخالد بن أسيد ، وعبد الله بن سعيد ، وعمر وأبى بكر ابنى عبدالعزيز ، وسكتوا مع ذلك عن صلته بعمال يزيد ، عبيد الله وعباد وسلم أبناء زياد بن أبيه ، ووقفوا عندما أمدتهم به التراجم القديمة فلم يفسروا خلو ديوانه من قصائد مفردة فى مدح معاوية ، ولم يتتبعوا صلته بيزيد أميراً ووليًّا للعهد ، ثم خليفة منفرداً بالملك ، وشغلهم ما يروى عن تحريض بشر بينه وبين جرير ، فلم يدرسوا موقفه من القيسية فى علاقته بهذا الأمير ، ولم يفصلوا القول فى الأسباب التى جعلت عبد الملك يتخذ منه شاعره الخاص ، والملابسات التى جعلته يفقد منزلته فى عهد الوليد . ثم هم لم يدرسوا موقف تغلب وشاعرها كعب بن جعيل من النزاع بين معاوية وعلى ، ليبينوا أثره فى ظهور الأخطل بالبلاط ، ولم يحققوا العداء بين الأمويين والأنصار ، ليوضحوا أثره فى حياة الأخطل وشعره فى ظل بنى سفيان ، ولم يبحثوا عن موقف تغلب من النزاع بين الأمويين ودعاة ابن الزبير ، ليظهروا أثره فى صلة الأخطل ببنى مروان . ثم هم بعد قد وقفوا فى تذوق شعر الأخطل عند آراء القدامى ، يختارون منها ، ويؤلفون بينها ، ولا يتحولون عنها ، إلا فى القليل ، إلى تذوقهم الشخصى . وقلما يربطون بين حياته وشعره فى ظل بنى أمية ، ليرصدوا رجع التيارات السياسية والدينية والإقليمية والشخصية والأدبية التى تأثر بها فنه نتيجة لما نشأ بينه وبينهم من علائق . وما إلى الحصر أردنا ببيان هذه النواحى ، بل أردنا

أن ندل على جزء من كل تقوم عنه الإشارة فى هذا التقديم .

ثم عرض المحدثون للأخطل فى بعض ما ألفوا فى الأدب وتاريخه ، واتجهت جهودهم فى بحثه وجهات مختلفة ؛ فأفرده بعضهم بالبحث مترجماً له ترجمة تنحو إلى التفصيل فى العرض ، ولا تفترق كثيراً عن تراجم لامانس ، كالأستاذ فؤاد البستانى ، أو شغل بفنه فدرس شعره دراسة فنية خالصة ، تكشف عن خصائصه وأساليبه ، وتناقش فى ذلك آراء القدامى ، وتطبق عليه طرائق النقد عند الغربيين ، كالأستاذ محمد خلف الله ، وعرض له بعضهم فى تاريخ الأدب العربى ، فترجم له ترجمة مختصرة فى تاريخ آداب العربية ، كما صنع جرجى زيدان ، أو درس شعره فى تاريخ النقائض والشعر السياسى ، كالأستاذ أحمد الشايب ، أو أفرد له فصلا فى تاريخ الهجاء ، كالدكتور محمد حسين .

وقد أتيح لنا أن نتابع فى الليسانس سنة (١٩٤٤/٤٣) محاضرات الأستاذ محمد خلف الله عن الأخطل ، وأن نتصل خلالها بجهود السابقين والمعاصرين ، فتبين لنا على ضوئها قيمة شعر الأخطل فى الكشف عن حياته وفنه ، كما تبين لنا بعد البحث ما فى الجهود السابقة من نقص . فعقدنا العزم ، بعد التخرج ، على أن نستخلص من هذا الشعر أقصى ما يمكن أن يستخلص منه ، فى بحث مفصل ندرس فيه حياة الأخطل وفنه فى ظل بنى أمية . وأمدنا الأستاذ خلف الله بتشجيعه ، ووالانا بإرشاده وتوجيهه ، فحققنا هذا الشعر تحقيقاً تاريخيًّا ، يكشف عن الفترة التى نظم فيها ، والمناسبة التى أنشد من أجلها ، والأحداث التى لابسته . ودرسنا من أجل هذا ، العصر الذى عاش فيه الأخطل ، والبيئة التى اضطرب فى ظلها ، والأشخاص الذين عقد بهم أسبابه ، والتيارات المختلفة التى أثرت فى حياته . وبحثنا داخل هذا الإطار التاريخى عن خصائص فنه ، وتتبعنا أثر بنى أمية فى إنتاجه ، وقابلنا بين ما نظمه فى ظلهم وبين ما أنشأه بعيداً عنهم ، وقارنا فى ذلك بينه وبين السابقين عليه من شعراء الجاهلية والمعاصرين له فى صدر الإسلام . واستعنا على ذلك بالمصادر التاريخية ، وكتب الطبقات والتراجم ، ودواوين الشعر والمعاجم ، وراجعنا أقوال الباحثين قديماً وحديثاً ، وأفدنا من جهود الأب أنطون صالحانى فى نشر الديوان وتحقيقه ، حتى استقام لنا البحث على النهج التالى :

فى الباب الأول تمهيد أردنا به أن نصور حياة الأخطل قبل أن يتصل ببنى أمية. درسنا فيه البيئة التى ولد فيها ، والقبيلة التى نشأ بين أهلها ، وكشفنا عن حياته فى الطفولة والصبا ، ورصدنا طباعه وأخلاقه فى ذلك العهد ، وبينا موقف قبيلته من النزاع بين معاوية وعلى ، وموقف معاوية من القبيلة وشاعرها كعب بن جعيل ، وموقف الأخطل من كعب قبل أن يستقدمه يزيد لهجاء الأنصار ، وألفنا بين ذلك كله تأليفاً نتلمس على ضوئه الظروف التى جعلت من الأخطل فى هذه الفترة شاعراً هجاء سليط اللسان ، ونمهد ببسطه لفهم الملابسات التى هيأت له السبيل فى أن يشق طريقه وهو غلام بعد إلى البلاط .

ثم انتقلنا إلى تصوير حياة الأخطل فى ظل بنى أمية فى بابين متتاليين . فأفردنا الباب الثانى عن حياته فى ظل البيت السفيانى ، وخصصنا الباب الثالث لحياته فى ظل البيت المروانى . وفى البابين مجتمعين صورة مفصلة لجميع ما عقده ببنى أمية وعمالهم من صلات . صلاته ، فى ظل البيت السفيانى ، بمعاوية بن أبى سفيان ، ويزيد بن معاوية ، وعبد الله بن معاوية ، وخالد بن يزيد ، وعبيد الله ابن زياد ، وعباد بن زياد ، وسلم بن زياد . وصلاته ، فى ظل البيت المروانى ، بعبد الملك بن مروان ، وبشر بن مروان ، وخالد بن أسيد، وعبد الله بن سعيد ، وعمر بن عبد العزيز ،وأبى بكر بن عبد العزيز ، وهشام بن عبد الملك، والوليد ابن عبد الملك، والحجاج بن يوسف. واعتمدنا فى عرض هذه الصلات على شعره اعتماداً كبيراً، وحاولنا أن نرتبه ، لأول مرة ، وبقدر الطاقة والحاجة ، ترتيباً تاريخياً ينكشف على ضوئه ما طرأ على حياته فى ظلهم من تغير ، وما تبدى فى إنتاجه على عهدهم من تطور . وقابلنا بين شخصيته وأشخاص من عقد بهم أسبابه ، وأوضحنا التيارات السياسية والقبلية والدينية والشخصية التى تأثرت بها حياته . ولم نقف فى تصوير علاقته بمعاوية ويزيد عندما يروى عن حادثة الأنصار ، فعرضنا لموقفه من معاوية بعد هجائهم ، وتتبعنا صلته بيزيد ، أميراً ووليًّا للعهد ، ثم خليفة قائماً بالملك . كما أفضنا الحديث فى تصوير شخصيته فى بلاط عبد الملك، وشرحنا الأسباب التى حملته على أن يتخذ منه ، وهو النصرانى ، شاعره الخاص ، ويعترف به شاعراً لبنى أمية بوجه عام . ولم نكتف فى تصوير علاقته ببشر بما يروى

عن تحريض هذا الأمير بينه وبين جرير ، فكشفنا عن أثر القيسية ، وهم أخوال بشر ، فى هذه العلاقة . ورجحنا الأسباب التى أفقدته منزلته فى عهد الوليد ، لتفسح مكانه لشاعر آخر هو عدى بن الرقاع . وحققنا العداء بين الأمويين والأنصار تحقيقاً يكشف عن تطوره من عهد الرسول إلى خلافة معاوية ، ويفسر موقف معاوية من الأخطل بعد هجاء الأنصار ، ويعين على فهم علاقة الأخطل بالبيت السفيانى . كما عرضنا لموقف تغلب من النزاع بين الأمويين ودعاة ابن الزبير ، وفسرنا الدوافع التى دفعت بالقبيلة إلى المشاركة فى الفتنة ، وأبنا عن أثر هذا النزاع فى علاقة الأخطل بالبيت المروانى. ووضعنا نصب أعيننا فى البابين معاً أن نناقش آراء السابقين والمعاصرين ، ومن ذلك ما ذهب إليه لامانس فى تعليل لقب الأخطل وما أول به تعفف الأخطل عن الفحش فى هجائه ، وما ذهب إليه الدكتور محمد حسين فى تصوير موقف تغلب من الفتنة التى تلت موت يزيد ، وفى تقدير منزلة الأخطل من القبيلة والدولة فى خلافة يزيد وأثناء الفتنة ، وفى إحصاء ما نظمه الأخطل فى يزيد من شعر وترتيبه وتحقيقه .

ثم تفرغنا فى الباب الرابع لدراسة فن الأخطل فى ظل بنى أمية داخل الإطار التاريخى الذى أقمناه فى الأبواب الثلاثة السابقة . فأحصينا ما نظمه فى ظلهم من شعر إحصاء يدلنا على النسبة التى ظفر بها من مجموع أشعاره ، وحصرناه فى مجموعتين بارزتين ، تتمثل إحداهما فى مدائحه التى نظمها فى مدحهم ومدح عمالهم ، والأخرى فى أهاجيه التى أنشأها فى الأنصار والقيسية وجرير . وبدأنا بالمدائح ، فدرسنا بناء المدحة ، ورصدنا ما كلف الأخطل باستخدامه من أساليب ، فتحدثنا عن الاستطراد فى معرض التشبيه ، والاستدارة فى معرض المفاضلة ، والاستدارة فى معرض التوكيد ، كما تحدثنا عن الوصف القصصى ، والحركة فى التصوير ، والتركيز فى الوصف ، واللفتات النفسية ، وموسيقى الألفاظ ، وبينا ما انطبع فى هذه المدائح من المؤثرات السياسية والقبلية والدينية ، وقابلنا فى ذلك بينها وبين سائر مدائحه . ثم تناولنا الأهاجى ، فكشفنا عن أساليبها وخصائصها ، وقابلنا بينها وبين المدائح فى النواحى السابقة . وختمنا البحث ببيان موقف الأخطل من السابقين عليه من شعراء الجاهلية والمعاصرين له فى صدر الإسلام ، فبينا أثر الشعر

الجاهلى فى فنه ، وفسرنا طبيعة هذا التأثر ، والغاية منه ، والأسباب الداعية إليه ، وقابلنا بينه وبين جرير والفرزدق فى معدن الشعر ، وربطنا فى ذلك كله بين هذا الباب وما سبق من أبواب ، فتتبعنا أثر بنى أمية فى هذا الشعر ، إن بالسلب أو بالإيجاب .

وبعد ، فنرجو أن نكون قد حققنا بهذا البحث صورة واضحة عن حياة الأخطل وفنه فى ظل بنى أمية . وإذا كان لنا من فضل فى إخراجه على هذا النحو فحقيق بنا أن نذكر بالخير ما وفق إليه السابقون ، ونسجل بالشكر ما بذله أستاذنا العميد الأستاذ محمد خلف الله من توجيه وإرشاد ، فقد أشرف على إعداد البحث ، ولم يأل وسعاً فى تقويمه ، وشق لنا بمحاضراته آفاقاً سرنا على هديها فى تذوق فن الأخطل . ولا يفوتنا أن ننوه بفضل أستاذنا وعميدنا الأسبق المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى ، فقد تفضل ، طيب الله ثراه وأسكنه فسيح جناته ، بمراجعة الفصول التاريخية من البحث ، فكان لملاحظاته القيمة وتوجيهاته السديدة أثر بين فى إصلاحها .

والله ولى التوفيق

السيد مصطفى غازى

الإسكندرية فى : شعبان سنة ١٣٧٦ هـ
: مارس سنة ١٩٥٧ م

إن العالم بالشعر، لا يبالي، إذا مر به البيت
العائر السائر الجيد، أمسلم قاله أم نصراني

الأخطل

البَابُ الأوَّل

الأخطل قبل أن يتصل بالأمويين

الفصل الأول

بيئة الأخطل

النفوذ اليمنى فى شبه الجزيرة – صراع تغلب ضد هذا النفوذ – انتصار تغلب فى يوم خزازى – بغى كليب وائل ومصرعه – حرب البسوس بين بكر وتغلب – المهلهل – هجرة تغلب إلى الجزيرة – تغلب فى إقليم الجزيرة – النفوذ اليمنى فى الجزيرة والعراق والشام – تغلب بين المناذرة والغساسنة – صراع تغلب ضد هذا النفوذ – عمرو بن كلثوم – فتح الجزيرة – عمر بن الخطاب ونصارى تغلب .

للبيئة أثر عظيم فى حياة الناس ، وأثرها فى حياة الأخطل بين واضح . فقد ولد ونشأ فى بيئة ، كلمة القبيلة فيها هى العليا ، تغذوه بأمجادها ومفاخرها ، وتأخذه بتقاليدها ومراسمها ، وتطبع شخصيته بطابعها . وشب وترعرع فى البادية ، يروح ويغدو على رمالها ، ويستظل بسمائها ، وينشق عبير خزاماها وعرارها ، ويضطرب فيما يضطرب فيه أهلها ، ويأخذ نفسه بما يأخذون به أنفسهم من جد الحياة ولهوها ، ويجرى عليه ما يجرى عليهم من خيرها وشرها . وقدرت له الحياة أن يكون شاعراً عظيماً فى خلافة الأمويين ، فلم ينس القبيلة التى ينتمى إليها ، ولا البادية التى عاش فيها ، وأحل القبيلة من شعره مكاناً كبيراً ، واستوحى البادية من صور الحياة شيئاً كثيراً . وشاء العصر الذى عاش فيه أن يربط بين قبيلته والخلافة الأموية فى المصالح ، وأن يكون موطنه مسرحاً تتصارع فيه الأهواء والمطامع ، فتردد صدى هذا كله فى شعره صوراً وأحاسيس ومشاعر.

أما القبيلة فهى « تغلب » . وإنها لمن أعظم قبائل ربيعة شأناً فى الجاهلية ، وألمعها اسماً فى الإسلام ، تلألأ فى سمائها نجوم لامعة فى الفروسية والشعر ، وحفل تاريخها بضروب البطولة والفتك ، واتسم أهلها بسمة الشدة والبطش ، وغلب عليهم الزهو والاعتداد بالنفس . وكان تاريخها فى الجاهلية تاريخ صراع فى سبيل الحرية ، وتاريخ صراع فى سبيل الأخذ بالثأر .

أما صراعها فى سبيل الحرية فيتجلى قوياً واضحاً فى مناوأة النفوذ اليمنى . فقد

بسط اليمنيون نفوذهم على شبه الجزيرة العربية ، وفرضوا الإتاوات على قبائل العرب [١] . وضاق العرب ذرعاً بهذا الضيم يفرض عليهم فرضاً ، ويؤخذون به أخذاً ، فثاروا على اليمن ، وسعوا إلى التحرر من نيرهم ، فكثرت المواقع ، وأريق فى ذلك دم كثير . وما زال العرب فى كفاحهم واليمن لهم قاهرة حتى عهد الحارث بن عمرو الكندى جد امرئ القيس الشاعر الجاهلى المعروف [٢] . فقد اجتمعت كلمة العرب حينئذ على التخلص من النفوذ اليمنى ، وقتلوا أبناء هذا الملك الواحد تلو الآخر ، ولم يبق غير سلمة من أبنائه . ووحدوا كلمتهم ، وجمعوا صفوفهم ، وأمروا عليهم من تغلب « كليب وائل » . وعند جبل خزاز ، أو خزازى ، التقت جموعهم بجموع سلمة ، فكانت الدائرة على اليمن [٣] . وكان يوماً عظيماً من أيام العرب فى الجاهلية ، وانتصافاً للعدنانية من اليمن ، ومجداً لتغلب تضمه إلى ما كان لها من من أمجاد . وفى اجتماع معد على كليب فى هذا اليوم دليل على ما بلغت إليه تغلب فى ذلك الوقت من عظيم المكانة وعلو الشأن ، فإن كليباً كان أحد ثلاثة لم تجتمع العرب فى الجاهلية على غيرهم [٤] . وقد جعلت له معد منذ انتصر العرب بفضله على اليمن قسم الملك وتاجه وطاعته . وتغنى شعراء تغلب بهذا الانتصار ، فقال المهلهل :

إلى رئيس الناسِ والمُرتجَى　　لعقدة الشَّدّ ورتقِ الفتوقْ

من عَرفت يوماً خَزاز له　　عُليا مَعَدّ عند أخذ الحقوق [٥]

وقال السفاح :

وليلةَ بِتُّ أُوقد فى خَزازَى　　هَديتُ كتائباً متحيِّراتِ

ضَلِلْنَ من السهاد وكُنَّ لولا　　سهادُ القوم أحسن هاديات

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١ ص ٢٩٩ — ٣٠١ .

(٢) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٣٠٥ .

(٣) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٣١١ .

(٤) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٣١٢ و ٣١٣ .

(٥) القرشى : جمهرة أشعار العرب ، ص ٢١٩ و ٢٢٠ .

فكنَّ مع الصباح على جُذام ولَخْمٍ بالسيوف مشهَّرات[١]

وقال عمرو بن كلثوم :

ونحن غداةَ أُوقِدَ فى خَزازَى رَفَدْنا فوق رِفد الرافدينا
وكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا
فصالوا صولَةً فِيمن يَليهم وصُلنا صولَةً فيمن يلينا
فآبوا بالنِّهَاب وبالسبايا وأُبْنا بالملوك مصفَّدينا[٢]

وقد عز كليب وساد فى قبيلته منذ ذلك اليوم ، وملأ الزهو نفسه بما احتازه من شرف وسؤدد ، فبغى بغياً شديداً بالغ الرواة فى تصويره ، وعملت يد العصبية على تفصيله . زعموا أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، وإذا جلس لا يمر أحد بين يديه إجلالا له ، ولا يحتبي أحد فى مجلسه غيره ولا يغير إلا بإذنه ، ولا تورد إبل أحد مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره ، ولم يكن بكرى ولا تغلبي يجير رجلا ولا بعيراً أو يحمى حمى إلا بإذنه ، وكان ينزل القوم منازلهم ويرحلهم ، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره ، واتخذ جرو كلب فكان إذ نزل منزلا به كلأ قذف بذلك الجرو فيه فيعوى فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه ، وكان يفعل هذا بحياض الماء فلا يردها أحد إلا بأمره[٣] ، حتى ضرب به المثل فى العز ، فقيل : « أعز من كليب وائل »[٤] .

---

(١) شيخو : شعراء النصرانية فى الجاهلية ، ج ٢ ص ١٥٢ و ١٥٣ و ١٨٢ .

(٢) الزوزنى : شرح المعلقات السبع ، ص ١٥٣ و ١٥٤ — وذكر الفرزدق فضل تغلب على معد فى يوم خزاز ، فقال :

لولا فوارس تغلب ابنة وائل دخل العدو عليك كل مكان
ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا نارين أشرفتا على النيران

(أبو تمام : نقائض جرير والأخطل ، ص ٢١٧ و ٢١٨) .

(٣) أبو الفرج : الأغانى ، ج ٥ ص ٣٤ و ٣٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١ ص ٣١٣ .

(٤) الميدانى : مجمع الأمثال ، ج ١ ص ٥٠٤ — وصور المهلهل هيبته ، فقال :

نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس
وتكلموا فى أمر كل عظيمة لو كنت شاهدهم بها لم ينبسوا

(التبريزى : شرح ديوان الحماسة ، ج ٢ ص ٣٨٠) .

أما صراع تغلب فى سبيل الأخذ بالثأر فيتمثل فيما قام بينها وبين بكر من حروب . فقد أبت النزعة القبلية لاتحاد العرب دواماً ، ولم تلبث الفرقة أن دبت ، والشمل بينهم أن تبدد . وكان زهو كليب واستطالته ، إن صح ما يروى ، من أكبر العوامل على إثارة الضغائن ، فقد عقر كليب ناقة البسوس حين رآها ترعى حماه ، فغضب جساس وخرج فى طلب كليب حتى لقيه بالحمى ، فطعنه فى ظهره طعنة كان فيها مصرعه[1] . فبدأت سلسلة طويلة من الحروب بين بكر وتغلب ، وكثرت الدماء ، وتعددت المواقع ، وازدادت الإحن والضغائن .

واتفق أغلب الرواة على أن هذه الحروب القبلية دامت أربعين سنة . غير أنهم ، فيما نرى ، بالغوا فى تفصيل حوادثها ، وتوسعوا فيها على سبيل التأثير والتشويق أحياناً ، وبوحى من العصبية أحياناً أخرى . ويغلب على الظن أن المتحاربين كانوا يتهادنون طوال هذه المدة ، فقد ذكر أبو الفرج أن حربهم كانت أربعين سنة ، فيهن خمس وقعات مزاحفات ، وكانت تكون بينهم مغاورات ، وكان الرجل يلقى الرجل ، والرجلان الرجلين ، ونحو هذا . فالدوام ، فيما يبدو ، لم يكن من صفة هذه الحروب ، وإنما كانت هناك خمس مواقع هى « النهى » و « الذنائب » و « عنيزة » و « واردات » و « قضة » ، تتخللها فترات متباعدة لا تخلو من المناوشات الفردية[2] .

وقد برزت فى تغلب خلال هذه الحروب شخصية عدى بن ربيعة الملقب بـ« المهلل » . وهو من شعراء نجد البارزين ، وأخو كليب وائل ، وخال امرئ القيس[3] ، وجد عمرو بن كلثوم لأمه[4]. وكان جرىء القلب ، فصيحاً ، جميل

---

(١) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٥ ص ٣٥ – ٣٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ١ ص ٣١٤ – وصور رجل من بكر ما لقيه زعيم تغلب نتيجة طغيانه وخيلائه ، فقال :

ونحن قهرنا تغلب ابنة وائل ... بقتل كليب إذ طغى وتخيلا

أبأناه بالناب التى شق ضرعها ... فأصبح موطوء الحمى متذللا

(أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٥ ص ٣١٤) .

(٢) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٥ ص ٤١ – ٦٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ١ ص ٣١٦– ٣٢٣ .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ص ٩٩ .

(٤) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ١١ ص ٥٢ .

الوجه ، يقضى أيامه فى اللهو والسكر ومحادثة النساء . وسماه أخوه كليب «زير نساء» ، أى جليسهن ، لكلفه بالجلوس إليهن ومحادثتهن[١] . وكان فى مطلع شبابه لا يهتم بالغزو والحرب لأن أخاه كان يكفيه مؤونة ذلك . غير أن هذه المعيشة العابثة الناعمة لم تمنعه من أن يكون شجاعاً وقت الشدة ، فاشترك مع أخيه فى وقعة السلان وأبلى بلاء حسناً[٢] . وكان لا يقول من الشعر فى أول عهده غير بعض أبيات فى الغزل والملاهى ، فلما فوجىء بنعى أخيه ، تفتحت قريحته وتدفق ينبوع شعره ، وأخذ يرثيه ويتوعد قاتليه فى شعر يفيض لوعة وعذوبة . وتنبهت فيه دوافع البطش والفتوة ، فآلى على نفسه ألا يهتم بلهو ، ولا يشم طيباً ، ولا يشرب خمراً ، ولا يدهن بدهن ، حتى يقتل بكل عضو من كليب رجلا من بكر بن وائل[٣] . وأظهر فى حرب البسوس من ضروب البطولة والفتك ما لم يكن يتوقع صدوره عن رجل قضى صدر حياته فى اللهو والعبث والتكالب على الشهوات .

وتردد صدى بطشه وانتقامه فى شعره :

ولو نُبِش المقابرُ عن كليبٍ ... فتُخبِرَ بالذنائب أىُّ زير

ويومَ الشَّعثمَينِ . لقرَّ عينـا ... وكيف لقاءُ من تحت القبور

على أنّى تركتُ بواردات ... بجَيرا فى دم مثل العبير

هَتَكتُ به بيوتَ بنى عُباد ... وبعضُ القتل أشفى للصدور

وهَمَّامَ بنَ مُرَّةَ قد تركنا ... عليه القشعمان من النسور[٤]

وعدد من قتلهم ونكل بهم :

أثبتُّ مُرة والسيوفُ شواهر ... وَصرفتُ مُقدمَها إلى هَمَّام

وَبنى لجُيم قد وطأنا وطأةً ... بالخيل خارجةً عن الأوهام

(١) نفس المصدر ، جـ ٥ ص ٥٧ .

(٢) شيخو : شعراء النصرانية فى الجاهلية ، جـ ٢ ص ١٦٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١ ص ٣١٨ .

(٤) شيخو : شعراء النصرانية فى الجاهلية ، جـ ٢ ص ١٦٩ .

وسقيتُ تَيْمَ اللّات كأسا مرة كالنار شُبَّ وقودُها بضرام
ولقد قتلت الشَّعثمَين ومالكا وابنَ المَسوَّر وابنَ ذات دَوام
ولقد خبطت بيوتَ يَشْكُرَ خبطة أخوالنا وهمو بنو الأعمام[١]

ولم ينجل هذا الصراع القبلى العنيف فى سبيل الأخذ بالثأر حتى أخذ النفوذ اليمنى يستعيد سيطرته على بكر وتغلب، فعادت تغلب إلى صراعها القديم فى سبيل الحرية، وناوأت هذا النفوذ بكل ما تملك من قوة، وكان ذلك فى الجزيرة والعراق قريباً من موطن المناذرة صنائع الفرس. ذلك أن حرب البسوس أوهنت من قوى بكر وتغلب، فأطمعت فيهم المناذرة، وتظاهر هؤلاء أول الأمر بالرغبة فى حقن الدماء بين الطرفين، وسعوا إلى عقد الصلح وإزالة أسباب الخلاف، واتخذوا من ذلك ذريعة إلى بسط نفوذهم على أولئك وهؤلاء[٢]، ثم أسفروا بعد ذلك عن نيتهم، فتحكموا فيهم واستعانوا بهم فى تحقيق مآربهم، وفرضوا عليهم الإتاوات. واشتكى من ذلك جابر بن حُنى:

وفى كل أسواق العراق إتاوة وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم[٣]

وأشار إليه عمرو بن كلثوم:

بأى مشيئة عمرَو بنَ هند نكون لقيلكم فيها قطينا[٤]

واشتد الاحتكاك بين تغلب وبكر من ناحية، وبينها وبين المناذرة من ناحية أخرى، وقتل بنو تغلب فى هذا الاحتكاك عمرو بن هند ملك العراق[٥]، فاشتدت عليهم وطأة المناذرة وأحلافهم، وطلبهم المنذر الرابع بثأر أخيه، فأفلتوا منه إلى أرض الشام[٦]. وأبى لهم ما طبعوا عليه من تحد وعناد إلا أن يحتكوا

(١) نفس المصدر، جـ ٢ ص ١٧٤ و ١٧٥.
(٢) نفس المصدر، جـ ٢ ص ١٧١ و ١٩٨ و ١٩٩.
(٣) نفس المصدر، جـ ٢ ص ١٨٩.
(٤) الزوزنى: شرح المعلقات السبع، ص ١٥١.
(٥) أبوالفرج: الأغانى، جـ ١١ ص ٥٣ و ٥٤.
(٦) نفس المصدر، جـ ١١ ص ٥٧.

بالغساسنة صنائع الروم ، كما احتكوا من قبل بالمناذرة صنائع الفرس ، فأسفر ذلك عن حرب شديدة كان النصر فيها لهم فى قول بعض الرواة[١] . وفى عهد النعمان أبى قابوس عادوا إلى أرض الجزيرة ، فأرسل لمحاربتهم قسما من رجاله مع ابنه المنذر ، فبطشوا برجاله ، وقتل مرة بن كلثوم ابنه[٢] ، فلم يكن بذلك أقل من أخيه عمرو بطولة وفتكاً . واستمرت تغلب متأرجحة فى نضالها بين المناذرة حيناً ، والغساسنة حيناً آخر ، إلى ظهور الإسلام ، فكان تاريخها فى الجاهلية تاريخ صراع دائم فى سبيل الحرية التى تعتز بها أبلغ الاعتزاز ، وفى سبيل الأخذ بالثأر الذى تقدسه العصبية القبلية تقديساً كبيراً .

وبرزت فى تغلب على عهد الصراع بينها وبين بكر والمناذرة ، وفى ظل الاحتكاك بينها وبين الغساسنة ، شخصية « عمرو بن كلثوم » . كان أبوه من سادات قومه ، وكانت أمه ليلى ابنة المهلهل المشهور[٣] ، فاكتنفه الشرف من الطرفين . وكان له من مفاخر قومه دوافع إلى الإعجاب ، فشب معجباً بنفسه ، فخوراً بأهله وقومه ، حتى سادهم وهو ابن خمسة عشر[٤] . فلما جد الخلاف بين بكر وتغلب ، تحاكمت القبيلتان إلى عمرو بن هند ، بحكم العلاقة التى نشأت بينهم وبين بلاط الحيرة ، فانتدبت تغلب شاعرها عمرو بن كلثوم للدفاع عنها ورد أقوال خصومها ، فسار عمرو إلى الحيرة وأنشأ هناك قسما من معلقته . غير أن خصمه الحارث بن حلزة غلبه فى المفاخرة واستمال ملك العراق ، فحكم عمرو بن هند على تغلب ،[٥] فانصرف عمرو ورهطه غضاباً ، وكان وراء هذه الغضبة شر كثير . ويروى أن عمرو بن هند أراد أن يذل عمرو بن كلثوم بإذلال أمه ، فاستزاره وإياها وطلب إلى أمه أن تهين أم هذا الزعيم التغلبى ، فصاحت أم الشاعر : « واذلاه ! يالتغلب ! » ، وسمعها ابنها فثار الدم فى وجهه ، وضرب بالسيف رأس عمرو بن هند ، وعاد فيمن

---

(١) شيخو : شعراء النصرانية فى الجاهلية ، ج ٢ ص ١٩٤ .

(٢) أبو الفرج : الأغانى ، ج ١١ ص ٥٥ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١١ ص ٥٢ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١١ ص ٥٣ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١١ ص ٤٢ ، ٩ .

معه من تغلب إلى ديار قومه[١] ، فضرب به المثل فى الفتك ، فقيل : « أفتك من عمرو بن كلثوم »[٢] . وإذا كان ثمة شك فى تفاصيل هذه الحادثة ، فإن التاريخ لم يكذبها حتى الآن ، وكثيراً ما أشار إليها الشعراء ، وافتخر بها بنو تغلب .

ذكرها أفنون :

لعمرُك ما عمرو بن هند وقد دعا لتخدُمَ ليلى أمَّه بموفقِ
فقام ابن كلثوم إلى السيف مُصْلتا فأمسك من نَدمانه بالمخنّق
وجلّله عمرٌو على الرأس ضربةً بذى شُطَب صافى الحديدة رونق[٣]

وأشار الأخطل إليها وإلى فتكه مرة بن كلثوم :

أبَنى كليب إن عمّىّ اللّذا قتلا الملوك وفككا الأغلالا[٤]

وصرح بذلك فى موضع آخر :

حَجَوْنا بنى النعمان إذ عَضّ مُلْكهُم وقَبْلَ بنى النعمان حارَبَنا عمرو[٥]

وإذا وضعنا نصب أعيننا ما أثر عن العرب من حمية ونخوة ، وما أثر عن عمرو بن كلثوم ورهطه من اعتداد بالنفس وإباء ، لم نر الحادثة بعيدة الاحتمال . وقد تزعم عمرو تغلب بعد ذلك فى أرض الشام ، فكان سبباً فى إشعال نار الحرب بين قومه والغساسنة ، واحتفظ بزعامته حتى وافاه الأجل ، فمات بعد حياة حافلة بالبطولة والشعر .

وقد عاد النضال بين تغلب وبكر والمناذرة على الشعر العربى بقصيدة تعد من روائع الشعر الجاهلى ، تلك هى معلقة عمرو بن كلثوم :

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٣ و ٥٤ .
(٢) الميدانى : مجمع الأمثال ، ج ٢ ص ٣٦ .
(٣) شيخو : شعراء النصرانية فى الجاهلية ، ج ٢ ص ١٩٤ .
(٤) شعر الأخطل ، ص ٤٤ .
(٥) نفس المصدر ، ص ٢٠٠ — وأشار إلى ذلك الفرزدق ، فقال :

قوم هم قتلوا ابن هند عنوة عمرا ، وهم قسطوا على النعمان

(أبو تمام : نقائض جرير والأخطل ، ص ٢١٧) .

ألا هُبّى بصحنك فاصْبَحينا ولا تُبْقِى خمور الأَندرينا[1]

وقد استّهلها بذكر الخمر وتأثيرها فى شاربيها ، ثم استوقف حبيبته فأخبرها بأعماله العظيمة فى الحروب ، ثم وصفها ، ثم انتقل إلى مخاطبة عمرو بن هند مفتخراً بنفسه وقومه ، مهدداً من يجترئ عليهم بالجهل ، ثم ذكر صراحة ما كان أراد إليه عمرو من استخدام أمه ، ففخر عليه بأصله، ثم أشار إلى انتصار قومه يوم خزازى ، وختم المعلقة بذكر نساء قبيلته ودورهن فى الحرب ، مفتخراً بأمجاد القبيلة . والفخر هو السمة الغالبة على المعلقة . والقارئ يحس فيها بشدة اعتداد الشاعر بقبيلته ، ويلمس روح البطش والفتوة فى وصف الحرب والخمر والنساء . وقد ظفرت بإعجاب نقاد العرب القدامى ؛ فقال الضبي : « لله در عمرو بن كلثوم ! لو أنه رغب فيما رغب فيه أصحابه من كثرة الشعر ، ولكن واحدته أجود من مائتهم »[2] ، وقال عيسى بن عمر : « لو وضعت أشعار العرب فى كفة ، وقصيدة عمرو ابن كلثوم فى كفة ، لمالت بأكثرها »[3] ، واحتلت من نفوس بنى تغلب مكانة عظيمة ، فكانوا يحفظونها ، ويستشهدون بأبياتها ، ويعلمونها أولادهم ، حتى هجاهم بذلك أحد شعراء بكر :

ألهَى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يَرْوُونها أبدا مذ كان أولهم ياللرجالِ لشعر غير مسئوم[4]

ولعمرو بن كلثوم غيرها أشعار أخرى يتمثل فيها الزهو والاعتداد بالنفس، والفخر بأمجاد القبيلة ، والتغنى ببطولة رجالها . والقارئ لا يملك نفسه من الإعجاب بهذا الشاعر الذى يخاطب الملوك مخاطبة الند للند، حين يتحدث إلى عمرو بن هند:

بأَىّ مشيئة عمرَو بنَ هند نكون لقَيْلكم فيها قطينا
بأَى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاةَ وتزدرينا

---

(١) الزوزنى : شرح المعلقات السبع ، ص ١٣٨ .

(٢) شيخو : شعراء النصرانية فى الجاهلية ، ج ٢ ص ٢٠٢ .

(٣) القرشى : جمهرة أشعار العرب ، ص ٤١ .

(٤) أبو الفرج : الأغانى ، ج ١١ ص ٥٤ .

تَهدَّدْنا وأوعِدْنا ! رويدا ... متى كنا لأمك مَقتَوينا
فإنّ قناتَنا ياعمرُو أعيت ... على الأعداء قبلك أن تَلينا[١]

أو حين يخاطب الملك الغسانى :

ألا فاعلم ، أبيت اللعن ، أنّا ... على عَمْد سنأتى ما نريد
تَعلَّمْ أن محملنـا ثقيل ... وأن زناد كَبّتنا شديد
وأنّا ليس حىٌّ من معدّ ... يوازينا إذا لُبس الحديد[٢]

ولا يجد غرابة فى أن القبيلة التى أنجبت مثل هذا الشاعر فى الجاهلية ، مفاخراً بأمجادها ، معدداً أيامها ، مدافعاً عن مصالحها ، فى زهو شديد ، واعتداد بالنفس عظيم ، تنجب شاعراً آخر فى الإسلام ، هو الأخطل ، يقوم بما قام به سلفه من دفاع وهجوم فى مصلحة القبيلة ، ولا يعجب حين يسمع هذا الشاعر النصرانى يتوعد بنى مروان . :

فإن لا تُغيِّرها قريش بمُلْكها ... يكن عن قريش مُستماز ومَزْحلُ
ونَعْرُرْ أناساً عَرَّةً يكرهونهـا ... ونحيا كراماً أو نموتَ فنُقْتَل
وإن تَحْملوا عنهم فما من حَمالة ... وإن ثَقُلت إلّا دمُ القومِ أثقل
وإن تَعْرِضوا فيها لنا الحقّ لم نكن ... عن الحق عُمْيانا بل الحقَّ نَسأل
وقد نَنزل الثغرَ المخوف ويُتّقى ... بنا البأسُ واليومُ الأغر المحجّل[٣]

بل يحس بتغلغل الروح القبلية فى أبناء تغلب ، وباعتدادهم الشديد بأنفسهم ، وباهتمامهم البالغ بمصلحة القبيلة .

وقد أفاد الأخطل كثيراً من تراث قومه فى الجاهلية ، أفاد من أيامهم ومواقعهم فاتخذ منها مادة لفخره ، وأفاد من شعرائهم ، فاستقى من شعرهم لفنه . وتبدى

---

(١) الزوزنى : شرح المعلقات السبع ، ص ١٠١
(٢) أبوالفرج : الأغانى ، جـ ١١ ص ٥٨ .
(٣) شعر الأخطل ، ص ١١ .

إعجابه بشعر عمرو بن كلثوم حتى كان ينشد معلقته بين يدى الوليد بن عبد الملك فى السنوات الأخيرة من حياته[١] .

على أن هذا التراث الجاهلى الذى أسلمته تغلب إلى الأخطل مرفود بتراث آخر بدأت تجمعه بظهور الإسلام. وهذا التراث الإسلامى لم تجمعه فى هضاب نجد والحجاز وتهامة ، حيث كانت تنزل مع غيرها من قبائل ربيعة قبل ظهور الإسلام بقرون ، وإنما جمعته فى أرض الجزيرة ، وهى جزيرة أقور ، كما كان يسميها جغرافيو العرب المتقدمون ، أو ميزوبوتاميا ، كما كان يسميها الرومان ، ويعنون بها الجزء الأعلى من وادى دجلة والفرات ، بين العراق والشام وبلاد الروم وأرمينيه وأذربيجان . وقد استغرقت هجرة تغلب إليها قروناً ، فكانت بطيئة وفى فترات متباعدة ، ولم تنته إلا فى العهد الإسلامى ، إذ استقرت فى المنازل التى عرفت فيا بعد بديار ربيعة[٢] . ولم يظهر القرن الأول للهجرة حتى احتلت أواسط الجزيرة بين الموصل وسنجار وقرقيسيا شمالا وعانة وتكريت جنوباً[٣] . ويتكون هذا الإقليم من سهول فسيحة ، ينمو بها القمح ، وتكثر فيها أشجار النخيل ، وتحده وتشقه الأنهار والروافد الصالحة للملاحة . فهو إقليم خصب ملىء بالخيرات التى تغرى بالبقاء فيها والاحتفاظ به[٤] . ومما زاد فى أهميته أن الطريق التجارى الموصل إلى الهند كان يخترقه[٥] ، فتمر به التجارة عن طريق الأنهار والروافد ، أو على ظهور الإبل فى البر ، ويقوم سكان الإقليم بحراسة هذه التجارة ، ويشرفون على نقلها لقاء أجر معلوم ، ويجنون من ذلك أرباحاً طائلة . فلا بدع فى أن تشتجر من أجله المطامع ، وأن يتشبث بنو تغلب بالبقاء فيه بعد أن وطدوا أقدامهم فى ربوعه ، وأن يقول الأخطل فى الحروب بين قومه وقبائل قيس عيلان :

لا يجوزَنَّ أرضَنا مضرىّ   بخفير ولا بغير خفير[٦]

---

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ص ١٨٠ و ١٨١ .

(٢) Kindermann, H. : Taghlib, (Enc. of Islam), Supp., p. 223.

(٣) Lammens, H. : Le Chantre des Omiades, p. 3.

(٤) Kindermann, H.: Taghlib. (Enc. of Islam), Supp., 226.

(٥) Lammens, H. : Etudes Sur Le Siècle des Omayyades, p. 215.

(٦) صالحانى : الشعر الذهبى ، ص ٦ .

وقد استغلوه أنماطاً مختلفة من الاستغلال ، فمنهم من انصرف إلى الشئون الزراعية ، وهم قلة آثرت حياه الدعة والاستقرار ، ومنهم من عنى بتجارة القوافل فى طريق البر ، مساهمين فيها بأموالهم أو مشرفين على نقلها وحراستها ، ومنهم قوم خبروا الملاحة ، فكان لهم سفن تمخر عباب الماء ، وتوفروا على التجارة عن طريق الروافد والأنهار . على أن جماعات منهم خرجت عن نطاق الإقليم ، فعاشت جماعة فى مضارب على الضفة اليمنى لنهر الفرات عند منبج والرصافة ، وصعد بعضهم إلى جوار قنسرين ودمشق ، ووصل فريق فى الجنوب حتى عين التمر وجبل الاهة ، كما عاش بعضهم بين خفان والعذيب ، وتحضر آخرون فسكنوا الحيرة والكوفة من العراق ، وأذربيجان فى أعالى بلادفارس[١] . على أن هذا التحضر لم يغير شيئاً من أخلاق هؤلاء ، فقد ظلوا على البداوة ، ولم ينزعوا عن أخلاق العرب الرحل ، فكانت لهم نعراتهم البدوية فى الفخر بالعدد والعتاد ، وبعراقة النسب والمنبت ، وبروح البطش والفتوة .

وكانت دولة الفرس شرقى الجزيرة ، كما كانت ثغور الروم فى غربيها . فتأثر بنو تغلب بحكم موقعهم ، واتصلوا بالفرس وصنائعهم المناذرة ، كما اتصلوا بالروم وصنائعهم الغساسنة ؛ يصانعونهم أحياناً ، ويناصبونهم العداء أحياناً أخرى . وكان بنو تغلب فى أول أمرهم وثنيين يعبدون ، مثل بكر ، الإله أوال[٢] . فلما اتصلوا قبيل الإسلام بنصارى المناذرة ، وبجيرانهم من نصارى الثغور الرومية ، تسربت إليهم النصرانية ، ودان بها معظمهم ، وكثرت فى الجزيرة الأديرة والكنائس . وكان شأنهم فى ذلك شأن كثير من القبائل المقيمة بالجزيرة والعراق وبوادى الشام . ولم يحدث تغيير جوهرى فى حياتهم بعد ظهور الإسلام إلا بعد أن قام المسلمون بفتح الجزيرة فى عهد عمر بن الخطاب[٤] . والرواة مختلفون فى تاريخ فتحها ؛ فمن قائل إنها فتحت سنة سبع عشرة ، ومن قائل إن فتحها كان سنة ثمانى عشرة ، ومن قائل إن الفتح حدث سنة تسع عشرة[٤] . وإنما عجل

---

(١) Lammens, H. : Le Chantre des Omiades, pp. 3 - 4.

(٢) Kindermann, H. : Taghlib, (Enc. of Islam), Supp. p. 224.

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٧٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٨٠ ؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٣ ص ١٥٥ ؛ الكامل ، ج ٢ ص ٣٧٢ و ٣٧٣ .

المسلمون بفتحها بعدما رأوه من بطش أهلها بجيوشهم وتحالفهم على المسلمين مع الفرس والروم . وكانت تغلب تستغل جميع الفرص للإغارة على المسلمين ، توقع بهم وتعرقل زحفهم ، وتشتد عليهم فى القتال[1] . ولم يكن غريباً أن تقف منهم هذا الموقف ، فقد كانت تحتل إقليماً غنيًّا بنخيله وكرومه وقمحه ، عظيماً بموقعه وسهولة النقل فى أرجائه ، كما كانت تدين بدين تتمسك به ولا تريد الخروج عنه إلى دين جديد . فلما فتح المسلمون الجزيرة ، أصبح بنو تغلب أمام أحد أمرين ؛ فإما أن يسلموا فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وإما أن يدفعوا الجزية على أن تبقى لهم الحرية الدينية مكفولة . وقد آثر بعضهم السلامة فأعلن إسلامه تخلصاً من الجزية . أما أكثريتهم فتمسكوا بالنصرانية ، وأبوا كل الإباء أن يدفعوا الجزية ، واعتبروا أداءها سبة ، وأرسلوا وفداً منهم إلى عمر بن الخطاب يطلب إليه أعفاءهم منها . ويدل ما دار بين الخليفة والوفد على شدة اعتداد القبيلة بنفسها ، وقوة شعورها بالعزة والإباء ؛ فقد قالوا لعمر حين طلب إليهم أن يؤدوا الجزية : « أبلغنا مأمننا . والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم . والله لتفضحنا من بين العرب » ، فقال : « أنتم فضحتم أنفسكم وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية . وتالله لتؤدنه وأنتم صغرة قماة . والله لئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم ثم لأسبينكم » ، قالوا : « فخذ منا شيئاً ولا تسمه جزاء » ، فقال : « أما نحن فنسميه جزاء ، وسموه أنتم ما شئتم[2] » . ويروى البلاذرى أن عمر حين أراد أن يأخذ منهم الجزية انطلقوا هاربين متجهين إلى أرض الروم ، فقال له النعمان بن زرعة : « أنشدك الله فى بنى تغلب ، فإنهم قوم من العرب يأنفون من الجزية ، وهم قوم شديدة نكايتهم ، فلا تعن عدوك عليك بهم » ، فأرسل عمر فى طلبهم فردهم ، وأضعف عليهم الصدقة[3] .

والحق إن بنى تغلب كانوا قوة لها خطرها فى الجزيرة ، إذ كانوا حلقة اتصال بين الفرس والروم ، وكان فى إمكانهم ، إن لم يسترضهم الخليفة ، أن ينضموا إلى

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ص ١٥٤ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ص ٣٤١ و ٣٤٢ و٣٧١ و ٣٧٢ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ص ١٥٨ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٨٩ .

أولئك أو هؤلاء . وقد ظهر أثرهم من قبل قويًّا واضحاً أثناء فتح العراق ، فتحالفوا مع الفرس والروم ، ولم يتركوا فرصة تمر دون أن ينكلوا بجيوش الفاتحين . وكان لزاماً على الخليفة أن يترضاهم ليأمن شرهم وكيدهم ، فاكتفى بأن ضاعف عليهم فريضة الصدقة عوضاً من الجزية . وبذلك شاءت لهم الظروف أن يتخلصوا من قيد ليقعوا فى قيد جديد ؛ كانوا فى الجاهلية يؤدون الجزية لأمراء اليمن فى نجد والحجاز ، ثم تخلصوا منها ليؤدوها بعد ذلك لأمراء المناذرة فى العراق ، ثم تخلصوا منها ليؤدوها بعد ذلك صدقة مضاعفة للمسلمين فى الجزيرة . ولكن هناك فرقاً بين جزية يتوخى المسلمون فى فرضها العدل والرحمة والإصلاح ، وبين جزية لم يجن منها بنو تغلب من اليمن غير الظلم والقسوة والطغيان ؛ « فكل نصرانى من بنى تغلب له غنم سائمة ، فليس فيها شىء حتى تبلغ أربعين شاة ، فإذا بلغت أربعين سائمة ففيها شاتان إلى عشرين ومائة ، فإذا زادت شاة ففيها أربع من الغنم ، وعلى هذا الحساب تؤخذ صدقاتهم ، وكذلك البقر والإبل ، إذا وجب على المسلم شىء فى ذلك ، فعلى النصرانى التغلبى مثله مرتين ، ونساؤهم كرجالهم فى الصدقة ، فأما الصبيان فليس عليهم شىء ، وكذلك أرضوهم التى كانت بأيدهم يوم صولحوا ، فيؤخذ منهم ضعف ما يؤخذ من المسلم »[1] . وتسامح عمر ، فلم يفرض هذه الصدقة المضاعفة على المسكين الذى يتصدق عليه ، ولا على الأعمى الذى لا حرفة له ولا عمل ، ولا على المترهبين الذين فى الديارات وأهل الصوامع إن كانوا مساكين يتصدق عليهم أهل اليسار ، كما أنه لم يفرض هذه الصدقة على الشيخ الكبير الذى لا يستطيع العمل ولا شىء له ، وكذلك المغلوب على عقله[2] . وأوصى أن يرفق بأهل الذمة ، وهى وصاة تدخل فيها تغلب ، فقال : « أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيراً ؛ أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم »[3] .

على أن عمر ، رغم تسامحه هذا مع أهل الذمة ، كان يفرق بينهم فى الزى وبين المسلمين ؛ فأمر عماله أن يختموا رقابهم فى وقت جباية الجزية حتى يفرغ من

---

(١) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٢٠ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٢٢ و ١٢٣ .

(٣) نفس المصدر : ١٢٥ .

عرضهم ثم تكسر الخواتيم ، ولا يتركوا أحداً منهم يتشبه بالمسلمين فى لباسه ولا فى مركبه ولا فى هيئته ، وأن يؤخذوا بأن يجعلوا فى أوساطهم الزنارات ، وبأن تكون قلانسهم طوالا مضربة ، وأن يتخذوا على سروجهم فى موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب ، وأن يجعلوا شراك نعالهم مثنية ، ولا يحذوا حذو المسلمين ، وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل[1] . ولم يسلم نصارى تغلب من هذه المعاملة ، فكانت حالهم حال غيرهم من الذميين . وهى معاملة كانت تشعرهم بالوضاعة والمذلة وضعف الجانب . ولم يلجأ إليها عمر إلا ليأمن الإسلام على نفسه من خطر الروم الذين كانت تربطهم بنصارى تغلب وغيرهم من نصارى الشام والجزيرة والعراق رابطة النصرانية . فالروم كانوا يتخذون من نصارى هذه الأمصار عيوناً لهم على المسلمين ، وكان هؤلاء الجواسيس ، قبل أن يبت عمر فى أمر الزى ، يندسون بين المسلمين وقد تزيوا بزيهم ، فيصعب كشفهم والاحتراس منهم . فخوفاً من ذلك ، اشترط عمر على هؤلاء النصارى ألا يتشبهوا بالمسلمين فى شيء من اللباس أو الركوب . واشترط عمر أيضاً على نصارى تغلب ألا ينصروا وليداً ممن أسلم آباؤهم فى قول ، أو أى وليد من أولادهم عامة فى قول آخر[2] . وإذا كان أباح لهم ولغيرهم من النصارى أن يحتفظوا بكنائسهم ، فإنه اشترط أن تكون تحت إشراف المسلمين بصفة دائمة ، وحرم عليهم بناء كنائس جديدة ، كما حرم عليهم استعمال النواقيس قبل الأذان أو أثناءه ، ومنعهم من إظهار الصلبان إذا كانوا داخل البلد بين المسلمين ومساجدهم[3]. فالحرية الدينية التى كان يتمتع بها نصارى تغلب ، بمقتضى شروط عمر ، لم تكن كاملة بالمعنى الذى نفهمه الآن . ويغلب على الظن أن غيرة عمر الشديدة على الإسلام ، وقلقه الشديد من سيطرة الروم عن طريق النصارى ، كانا من أهم الأسباب التى دفعت به إلى أن يعاملهم على هذا النحو .

وقد ولد الأخطل فى السنوات الأولى التى أعقبت فتح الجزيرة وشهدت تنفيذ

---

(١) نفس المصدر : ص ١٢٧ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ص ١٥٧ و ١٥٨ .

(٣) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٣٨ – ١٤٩ .

اتفاقية عمر بن الخطاب . ولد ونشأ فى هذه القبيلة التى يدين أغلب أفرادها بالنصرانية ويخضعون فى الحكم للمسلمين ، ودان بدين الأغلبية فى قومه ، وجرى عليه ما جرى عليهم ، وامتزج بالبيئة التى عاش فيها ، متنفساً فى جوها ، خاضعاً لحكمها ، متلقفاً من قبيلته هذا التراث الحافل بالكفاح ، والبطولة ، والشعر .

الفصل الثانى

نشأة الأخطل

مولد الأخطل فى عهد عمر بن الخطاب – الأخطل فى عهد الصراع بين على ومعاوية – كعب بن جعيل شاعر تغلب ومعاوية وأهل الشام – نصرانية الأخطل فى ظل الإسلام – سفاهة الأخطل وميله إلى التحرش بالناس – الأخطل يتجرع من امرأة أبيه مرارة الحرمان – الأخطل يبدأ قول الشعر هجاء – الأخطل وكعب بن جعيل – الأخطل بين الجزيرة والعراق – الأخطل وبراعته فى الهجاء .

فى أرض الجزيرة[1] ، وبين بنى تغلب ، هؤلاء القوم المتعالين بماضيهم ، المدلين بحاضرهم ، المعتدين بأنفسهم ، المتمسكين بنصرانيتهم ، ولد أبو مالك ، غياث بن غوث ، الملقب بـ « الأخطل » . ولم يذكر أحد من القدامى شيئاً عن تاريخ مولده . ولكن هناك من الدلائل ما يرجح أنه ولد قريباً من سنة عشرين للهجرة . فقد كان غلاماً شابًّا فى أوائل عهد معاوية بن أبى سفيان ؛ يدل على ذلك قول كعب بن جعيل فيه آنئذ : « غلام منا نصرانى كأن لسانه لسان ثور »[2] . وكان كهلا وخط الشيب رأسه فى عهد يزيد بن معاوية ؛ يدل على ذلك قوله من قصيدة له فى ملحه : .

إمَّا تَرَينى حنانى الشيبُ من كِبَر   كالنَّسر أرجف والإنسان مهدود[3]

وقوله من نفس القصيدة :

أعْرضْنَ من شَمَط فى الرأس لاح به   فهن منه إذا أبصرْنه حِيد[3]

وكان شيخا هما قد سقطت أسنانه وحنت الأيام ظهره فى عهد الملك بن مروان ؛ يدل على ذلك قول جرير حينئذ : « أدركت الأخطل وله ناب واحد ، ولو أدركته

(١) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٢٨٢ .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ص ١٨٩ .

(٣) شعر الأخطل ، ص ١٤٦ ؛ وانظر أيضاً الأبيات ١٠ – ١٤ ، ص ١٤٧ .

وله ناب آخر لأكلني به ، ولكن أعانتني عليه خصلتان : كبر سن ، وخبث دين »[١] ، كما يدل على ذلك ما رواه الأصمعي : « إنما أدرك جرير الأخطل وهو شيخ قد تحطم »[٢] ، ثم مارواه أبو الفرج من : « أن الأخطل إنما دخل بين جرير والفرزدق في آخر أمرهما وقد أسن ونفد أكثر عمره »[٣] وكانت وفاته في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ثنتين وتسعين كما ينص على ذلك ابن كثير[٤] . فلو افترضنا أن مولده كان في حدود العشرين للهجرة ؛ لتجاوز في مطلع خلافة معاوية العشرين بقليل ، وهي سن يمكن أن يوصف صاحبها بأنه غلام شاب ؛ ولتعدى في عهد يزيد الأربعين ، وهي سن لا يستبعد معها ظهور الشيب في الرأس . كما يشير إلى ذلك في مدح يزيد ؛ ولكان عمره في أواخر عهد عبد الملك وأوائل خلافة الوليد بين الخامسة والستين والسبعين ، وهي سن تتفق وما يروى عن جرير من أنه أدركه وهو شيخ قد تحطم . وأنه أدركه وله ناب واحد ، وأنه قد أعانه عليه كبر سنه وخبث دين ؛ كما تتفق وما ذكره ابن كثير من أنه مات سنة ثنتين وتسعين ، إذ يكون قد بلغ من العمر حين مات اثنين وسبعين عاماً[٥] . وعلى ذلك يمكن القول إنه ولد في السنوات الأخيرة من خلافة عمر بن الخطاب ، وعقب الفترة التي فتح فيها المسلمون الجزيرة . كما يمكن القول إن الفترة التي تقع بين ولادته واتصاله بالأمويين في مطلع خلافة معاوية تبلغ نحو العشرين عاماً .

(١) أبو الفرج : الأغاني ، جـ ٨ ص ٢٨٥ .

(٢) نفس المصدر : جـ ٨ ص ٢٨٦ .

(٣) نفس المصدر : جـ ٨ ص ٤ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٩ ص ٨٤ .

(٥) وهذا الذي ذهبنا إليه يقارب ماوصل إليه أنطون صالحاني ؛ قال : « أما تاريخ ولادته فغير معروف على وجه التحقيق . ولكن كتبة التراجم أطبقوا جميعاً على أن الأخطل كان شاباً اشتهر في الشعر على عهد معاوية (٦٦٢/٦٨٠ = ٤١/٦٠ هـ) ، ويستدل على ذلك من غرر قصائده التي نظمها في أيامه. وعليه ، فإذا قلنا إنه ولد نحو السنة ٦٤٠ من التاريخ المسيحي (١٩ هـ) ، لا نراك بعيدين عن الحقيقة » (شعر الأخطل ، ص ٣٣٣) . واتفق هنرى لامانس مع صالحاني في هذا التاريخ ، فقال : « يصور لنا كتاب الأغاني الأخطل شاباً قد اشتهر في الشعر في خلافة معاوية . وعلى ذلك يمكننا أن نقول ، متابعين في ذلك الأب صالحاني ، إنه ولد عام ٦٤٠ ميلادية (١٩ هـ) »

(Lammens, H. : Le Chantre des Omiades, p. 6.)

على أن هذا الدليل المفرد الذي أقام عليه صالحاني فرضه ، واعتمد عليه لامانس من بعده ، لايكفي وحده في تحقيق مولد الشاعر . (انظر أيضاً كارلو نالينو : تاريخ الآداب العربية ، ص ١٣١)

فى هذه الفترة تفتحت شخصية الأخطل على أحداث جسام قدر لها أن تجرى بين المسلمين . فقد تولى عثمان الخلافة بعد مقتل عمر ، وانتهز الأمويون الفرصة ليحيوا نفوذهم القديم ، ويحولوا بين الخلافة وبين بنى هاشم . وكان معاوية قد جمعت له الشام كلها فى خلافة عثمان ، كما ضمت إليه ولاية الجزيرة ، فكان يبعث بعماله إليها يصرفون أمورها ويجبون له الأموال وهو قائم بالشام . وقد خبر معاوية حكم النصارى فى الشام وأوتى من سعة الحيلة فى معاملتهم ما جعله قريباً إلى نفوسهم . فلما ولاه عثمان الجزيرة ، أخذ عماله بمعاملة النصارى فيها بالرفق ، فلم يأخذوهم بالشدة التى كان يأخذهم بها عمال عمر ، وأخذ النصارى يتحررون بعض الشىء فى قضاء شعائر دينهم . فلما قتل الثوار عثمان ، نشط معاوية ليظفر بالخلافة دون على ، معتمداً على دهائه وسياسته ، معتزاً بأنصاره وأعوانه ، متخذاً من قتل عثمان والمطالبة بثأره وسيلة لبلوغ مآربه . وانتهز نصارى تغلب فرصة هذه القلاقل ، فأخذوا ينصرون أولادهم ، خارجين بذلك على ما اشترطه عمر . وتأدى النزاع بين على ومعاوية إلى أن شطرت الجزيرة شطرين ؛ شطراً فى يد عمال على ، وشطراً فى يد عمال معاوية . فكان فى سلطان على: الموصل. ونصيبين ، ودارا ، وسنجار ، وآمد ، وهيت ، وعانات ؛ وكان لمعاوية : حران ، والرقة ، والرها ، وقرقيسيا[١]. وقد لمس نصارى تغلب فى كلا الشطرين الفرق الكبير بين معاملة على وولاته ، ومعاوية وعماله . فكان على متشدداً فى أمر الدين ، شأنه فى ذلك شأن أهل الحجاز من بقايا المهاجرين والأنصار ، حتى قال حين دخل الكوفة : « ما كنت لأحل عقدة شدها عمر » ، وقال حين بلغه أن بنى تغلب ينصرون أولادهم : « لئن تفرغت لبنى تغلب . ليكونن لى فيهم رأى ؛ لأقتلن مقاتلتهم ولأسبين ذريتهم ، فقد نقضوا العهد ، وبرئت منهم الذمة ، ونصروا أولادهم »[٢] . وكان معاوية ، على خلاف ذلك ، مرناً متسامحاً يحاول بشتى الطرق أن يتألف قلوب رعاياه . وكان فى ذلك أبعد من على نظراً ، فالنصارى كانوا يمثلون أغلبية السكان فى الشام والجزيرة ، ولم يكن من الحكمة أن يعاديهم أو يضيق عليهم ، فاستطاع بتسامحه أن يتألف

---

(١) ابن مزاحم : وقعة صفين ، ص ١٥ و ١٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٦٣ ؛ البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٩١ .

كثيراً من القبائل النصرانية فى الجزيرة ، وكان ممن تألفهم نصارى تغلب ، فحاربوا فى صفوفه ، وأظهروا من ضروب الشجاعة ما جعله يقدرهم .

نبغ فى تغلب على عهد هذا الصراع شاعر قدر له أن يكون ذا أثر كبير فى اتصال الأخطل بالأمويين، وهو «كعب بن جعيل» شاعر تغلب ومعاوية وأهل الشام . كان نصرانياً ثم أسلم فيمن أسلم من تغلب بعد فتح الجزيرة [١] . فلما كانت وقعة صفين ، وانضم قومه إلى بنى أمية ، وحاربوا فى صف معاوية ، اتخذ من شعره سلاحاً يدافع به عن الأمويين ، وأخذ يذم علياً فيمن تبعه من المهاجرين والأنصار وأهل العراق ، ويدعو أهل الشام إلى الطلب بدم عثمان ، ويحرض العثمانية على القتال .

يصور الموقف فى اليوم السابق لوقعة صفين :

أصبحت الأمة فى أمر عجبْ ... والملك مجموع غداً لمن غلبْ

فقلت قولا صادقاً غير كذِب ... إنّ غداً تهلك أعلام العرب [٢]

ويجادل عن معاوية وأهل الشام علياً وأهل العراق :

أرى الشامَ تكره ملكَ العراق ... وأهلُ العراق لها كارهونا

وكلٌّ لصاحبه مُبْغِض ... يَرى كلَّ ما كان من ذاك دِينا

إذا ما رمَونا رميناهم ... ودناهمُ مثلَ ما يُقرضونا

وقالوا علىٌّ إمام لنا ... فقلنا رضينا ابنَ هندٍ رضينا

وقلنا نرى أن تَدِينوا لنا ... فقالوا لنا لا نرى أن نَدِينا

ومن دون ذلك خرطُ القَتاد ... وضرب وطعن يُفَرِّ العيونا

وكلٌّ يُسَرُّ بما عنده ... يَرى غثَّ ما فى يديه سمينا

وما فى علىٍّ لمُستعتِب ... مقالٌ سِوى ضمه المحدثينا

وإيثاره اليومَ أهلَ الذنوبِ ... ورفعِ القِصاص عن القاتلينا

---

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٧٦ ؛ أبوالفرج : الأغانى ، ج ١٣ ص ١٤٧ .

(٢) ابن مزاحم : وقعة صفين ، ص ٢٥٣ ؛ وانظر أيضاً ص ٢٥٤ .

إذا سِيل عنه حدَا شُبْهةً وعمَّى الجوابَ عن السائلينا
فليس بِراضٍ ولا ساخطٍ ولا فى النُّهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساءَ ولا سرَّه ولا بُدَّ من بعض ذا أن يكونا [1]

ويحرض معاوية بعد مقتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب :

معاويَ لا تنهض بغير وثيقة فإنك بعد اليوم بالذل عارف
تَركتم عُبيدَ الله بالقاع مُسْنَدا يَمُجُّ نجيعاً والعروقُ نوازف [1]

ويصور بعد التحكيم شماتة أهل الشام بأهل العراق :

كأن أبا موسى عشية أذْرُحٍ يطوف بلقمانَ الحكيم يوارِبُهْ
فلما تلاقَوا فى تراث محمد نَمَت بابن هند فى قريش مضاربه
سعى بابن عفَّانٍ ليُدرك ثأْرَه وأولى عبادِ الله بالثأْرِ طالبه
وقد غَشِيَتنا فى الزبير غَضاضة وطلحةَ إذ قامت عليه نوادبه
فردَّ ابنُ هند مُلكَه فى نِصابه ومَن غالب الأقدارَ فالله غالبه

---

(١) نفس المصدر ، ص ٦٣ و ٦٤ — كتب معاوية هذه الأبيات إلى على ، فأمر على النجاشى أن يجيب على شعر كعب ، فقال :

دعن يا معاوى مالن يكونا فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم على بأهل الحجاز وأهل العراق فما تصنعونا
. . . .
هم هزموا الجمع جمع الزبير وطلحة والمعشر الناكثينا
وآلوا يميناً على حلفة لنهدى إلى الشام حرباً زبونا
تشيب النواصى قبل المشيب وتلقى الحوامل منها الجنينا
فإن تكرهوا الملك ملك العراق فقد رضى القوم ما تكرهونا
فقل للمضلل من وائل ومن جعل الغث يوماً سمينا
جعلتم علياً وأشياعه نظير ابن هند ألا تستحونا
إلى أول الناس بعد الرسول وصنو الرسول من العالمينا
وصهر الرسول ومن مثله إذا كان يوم يشيب القرونا

(نفس المصدر ، ص ٦٥ و ٦٦) .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤١٠ .

وما لابن هند فى لُؤَىِّ بن غالب   نظير وإن جاشت عليه أقاربه
فهذاك ملكُ الشام وافٍ سَنامُه   وهذاك ملكُ القوم قد جُبَّ غاربه
يحاول عبد الله عَمْرًا وإنه   لَيَضرب فى بحر عريضٍ مذاهبه
دحا دَحْوةً فى صدره فهوت به   إلى أسفل المَهْوَى ظُنونٌ كواذبه[١]

وأكثر ما وصل إلينا من شعره يصور شدة ولائه للأمويين ، وأغلبه شعر سياسى يقوم بالدعوة لمعاوية وأنصاره ومهاجمة مناوئيه وخصومه[٢] . فلا عجب فى أن يحتل من نفوس الأمويين مكانة عظيمة ، فيصبح « شاعر أهل الشام » و « شاعر معاوية »[٣] ، وأن يحتل من قومه منزلة عالية ، فيصبح « شاعر تغلب »[٤] وأن ينوه ابن سلام بشاعريته ، فيقول إنه « شاعر مفلق قديم فى أول الإسلام »[٥].

تفتحت عين الأخطل فى صباه على هذه الأحداث ، فلمس عن قرب هذا الصراع الدموى بين المسلمين ، وترامى إلى سمعه ما كانت تبذله قبيلته من مجهود فى سبيل الأمويين ، ولقف بأذنه هذه الأشعار التى كان يهاجم بها شاعر قبيلته المسلم أهل العراق ، واكتنز فى مخيلته من هذا كله رصيداً قدر له أن يسترفد منه فى مستقبل حياته .

ولكن الأخطل لم يكن مثل كعب من هذه الفئة القليلة التى أسلمت من قومه ، وإنما كان على النصرانية دين الأغلبية فيهم . فكان أبوه غوث نصرانياً من قبيلة تغلب ، وكانت أمه ليلى نصرانية من قبيلة إياد[٦] . ولعله كان على مذهب اليعقوبية الذى كان شائعاً فى قبائل البادية فى ذلك العهد[٧] . وقد لقف أصول دينه عن أبويه ، وشاهد فى صباه ما كان يقاسى منه نصارى قومه من تضييق ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٦٣٢ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٦٣ و٦٤ و٢٥٣ و٢٥٤ و ٤١٠ و ٦٣٢
(٣) نفس المصدر ، ص ٤١٠ و ٦٣٢ .
(٤) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٢٨٠ .
(٥) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ٢١٣ .
(٦) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٢٨٢
(٧) Lammens , H. : Le Chantre des Omiades, p. 37

ولبس عن قرب هذه التفرقة فى الزى والمعاملة التى استنها عمر ، فكان يشعر شعور لذاته من نصارى الأمصار المفتوحة بأنه وقومه فى مرتبة أدنى من مرتبة الفاتحين . ويغلب على الظن أنه ما كاد يشب عن الطوق حتى أخذ بلبس الزنارات والقلانس المضربة الطوال والنعال المثنية ، وعومل معاملة أقرانه من نصارى القبيلة فيما يتعلق بأمر الجزية . ولكنه تمسك بدينه مع ذلك تمسكاً شديداً[١] . فجاهر به دون أن يستحي من ذلك أو يخشى أحداً. وكان يدخل بعد ذلك على خلفاء بنى أمية والصليب على صدره دون أن يخجل من حمله علانية[٢] . وكان أعداؤه من المسلمين يعرضون بنصرانيته ويقرعونه بالكفر ، فلا يكترث لشتمهم ، ولا يتزحزح قيد أنملة عن دينه[٣] . وكان مع إبائه يرضخ لأوامر رؤسائه النصارى ، ولا يستنكف من تأديبهم إياه . وكثيراً ما كانوا يضربونه ويحبسونه على شتم الناس وقذف المحصنات . فلا يغضب أو يستنكر . فإذا سئل : « أين هذا مما كنت فيه ؟ » ، كان جوابه : « إذا جاء الدين ذللنا »[٤] . وإذا قيل له : « يا أبا مالك ، الناس يهابونك . والخليفة يكرمك ، وقدرك فى الناس قدرك ، وأنت تخضع لهذا القس هذا الخضوع وتستخذى له ؟ » ، أجاب : « إنه الدين! إنه الدين! »[٥]. وقد فشلت جميع المحاولات التى بذلت ليعتنق الإسلام[٦] ، فظل متعلقاً بنصرانيته طول حياته[٧]. ولكن تمسكه الشديد بالدين النصرانى لم يكن عن إيمان عملى عميق بأوامره وأحكامه ، فما أكثر

---

(١) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٣١٠ .

(٢) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٩٩ .

(٣) أبو تمام : نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٧ و ٩٢ و ٩٧ و ١١٣ و و ١١٤ و ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦ و ١٣٢ و ١٤٧ و ١٤٨ و ١٧٢ و ١٧٤ و ١٧٥ و ١٧٦ و ١٨٤ و ١٩٥ و ١٩٦ و ٢٠٧ و ٢٠٨ و ٢٠٩ .

(٤) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٣٠٣ .

(٥) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٨٧ ؛ أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٣١٠ .

(٦) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٨٨ ؛ أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٢٩٠ و ٣١٠ و ٣١٣ .

(٧) مما يدل على أن الأخطل مات على نصرانيته ، قول جرير بعد وفاته :

زار القبور أبو مالك ... فكان كألأم زوارها

تنوح بنات أبى مالك ... ببوق النصارى وزمارها

(ديوان جرير ، ص ٣٠٣ و ٣٠٤) .

ما كان يخرج على تعاليمه وآدابه ، ويثير غضب رجاله ؛ فيكثر من الاتصال بالفواجر من القيان[1] ، ويسرف على نفسه فى شرب الخمر حتى يفقد الوعى والصواب ، ويقذف المحصنات ، وينهش أعراض الناس ، بل ولم يتحرج عن طلاق زوجته فتزوج أخرى غيرها طالقاً[2] .

ويغلب على الظن أنه كان لنشأة الأخطل وظروف حياته فى صباه أثر كبير فى هذا التحرر الأخلاقى . فقدلقى من أمه فى طفولته الحنان والعطف ، فكانت تعنى بأمره وترقصه وهو صغير وتلقبه دوبلا ، أى خنزيراً ، مداعبة منها وتدليلا[3] . ولكنه لم يتمتع بحنانها طويلا ، فتوفيت فى صغره ، أو لعل أباه طلقها . وقد تزوج أبوه غيرها ورزق منها بنين ، فكانت تفضلهم عليه ، وتؤثرهم باللبن والتمر والزبيب ، وتبعث به يرعى أعنزاً لها[4] ، وكثيراً ما كان يجوع فلا ينال ما يكفيه ، فذاق بذلك فى صباه طعم الضيق والحرمان ، وكان لهذا أثر كبير فى تكوين شخصيته ، فشب على العناد والمشاكسة ، والميل إلى التحدى والتحرش بالناس .

---

(١) Lammens, H.: Al-Akhtal, (Enc. of Islam), Vol. I, p. 235.

(٢) ندم الأخطل على هذا الطلاق ، إذ كان لا يزال يحب زوجته الأولى ، وكانت زوجه الجديدة قائمة على حب زوجها السابق ، فقال :

كلانا على هم يبيت كأنما بجنبيه من مس الفراش قروح
على زوجها الماضى تنوح وإننى على زوجتى الأخرى كذاك أنوح

(أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٢٩٨) .

وقد برر لامانس طلاق الأخطل زوجته برغم اعتناقه النصرانية بأن الأخطل كان منتسباً إلى المذهب اليعقوبى فى عهد كانت كنيسة هذا المذهب على قسط كبير من الانحطاط ، وذلك لجهل رعاتها وتنابزهم وانفصالهم عن مركز السلطة من ناحية ، ولتخلق رعايا هذه الكنيسة بأخلاق من كان يحيط بهم من المسلمين الذين كان الطلاق عندهم مباحاً من ناحية أخرى .

(Lammens, H. : Le Chantre des Omiades, p. 37.)

(٣) شعر الأخطل ، ص ١ ؛ ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٨٣ — عيره جرير بهذا اللقب ، فقال :

بكى دوبل لا يرقئ الله دمعه ألا إنما يبكى من الذل دوبل

واعترف الأخطل بذلك ، فقال بعد أن سمع هذا البيت « ما لجرير لعنه الله ! والله ما سمتنى أمى دوبلا إلا وأنا صبى صغير ، ثم ذهب ذلك عنى لما كبرت » (أبو الفرج : الأغانى ، جـ ١١ ص ٥٧) .

(٤) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٣٠٢ .

وأغلب الرواة متفقون على أنه لم يلقب فى صباه بالأخطل إلا لبذاءته وسفهه وسلاطة لسانه . يروى أبو عبيدة أنه هجا رجلا من قومه وهو يافع ، فقيل له : « يا غلام إنك لأخطل » فغلبت عليه[١] . ويذكر آخرون حوادث مختلفة يتدخل فيها الصبى فيما لا يعنيه ، فيزجر ويقال له : « إنك لغلام أخطل » ، فتغلب عليه[١] . ويشير الضبى إلى أن كعب بن جعيل هو الذى لقبه بذلك ، فقال وقد سمعه ينشد هجاء : « يا غلام إنك لأخطل اللسان » ، فلزمته [١] . وفى رواية أخرى أن كعباً نفسه كان ذلك المهجو ، وأن الهجاء لج بين الشاعرين منذ ذلك العهد[١] . والأخطل ، فى هذه الروايات جميعاً ، مأخوذ من الخطل ، وهو الالتواء فى الكلام أو السفه والبذاءة وسلاطة اللسان . فهناك شبه إجماع إذن على أنه لقب بهذا اللقب لما أثر عنه فى صباه من تحد وسفه وتحرش وبذاء[٢] .

والمعروف أن الأخطل بدأ يقرض الشعر فى سن مبكرة ، ولكنه لم يبدأ فى التغنى به وصفاً أو نسيباً ، فخراً أو مديحاً ، وإنما بدأ بقول الشعر هجاء ، وكان له من ظروف حياته القاسية ما جعله يبرع فى هذا الفن فى صباه . يذكرون أنه لحظ يوماً عند امرأة أبيه شكوة فيها لبن ، وجراباً فيه تمر وزبيب ، وكان جائعاً ، ففكر فى إبعادها ، وهداه التفكير إلى وسيلة تبين عن ذكائه ودهائه . تقدم إليها ،

---

(١) نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٠ – ٢٨٢ .

(٢) شذ عن هذا الإجماع ابن قتيبة ، فقال : « الأخطل من الخطل وهو استرخاء الأذن (ابن قتيبة : أدب الكاتب ، ص ٩٧) . وضعف ابن السيد تفسيره ، فقال : « لا أعلم أحداً ذكر أن الأخطل كان طويل الأذنين مسترخيهما . والمعروف أنه لقب الأخطل لبذاءته وسلاطة لسانه » (البغدادى : خزانة الأدب ، ج ١ ص ٣٠٩) . وذهب الأصمعى إلى أن الشاعر سمى الأخطل لسفهه واضطراب شعره (ابن دريد : الاشتقاق ، ج ١ ص ٢٠٤) ، وفى تعليل لقبه باضطراب شعره تحامل ظاهر منه ، ولعل السبب فى تحامله تلك المنافسة الشديدة التى كانت بينه وبين أبى عبيدة ، وما كان من ميل أبى عبيدة إلى شعر الأخطل.

وشك لامانس فى صحة أقوال هؤلاء الرواة ، فقال : « إننا لو أخذنا بما فى هذه الروايات من أن الأخطل إنما لقب بهذا اللقب لسفهه وبذاءته ، فما أكثر الأخاطل الذين يمكن أن يحملوا هذا اللقب فى تاريخ العرب » ، ثم اتهم الرواة والنحاة والنسابين والمؤرخين العرب بأنهم كانوا لا يعدمون الوسيلة فى تلفيق الأسباب التى تدعو إلى تلقيب شاعر ما بلقب ما (Lammens, H.; Le Ghantre des Om'ades, pp. 8-9) ولامانس مبالغ فى رفضه لهذه الروايات من حيث دلالتها على سبب اللقب ، فإنها من الكثرة وتنوع الرواة وعدم الاستحالة واتفاقها وشخصية الشاعر بحيث يعسر على الباحث المنصف أن يرفضها .

وقال متحبباً : « يا أمه ! آل فلان يزورونك وعندهم عليل ، فلو أتيتهم لكان أجمل وأولى بك » ، وكان من واجبات النساء خاصة أن يعدن المرضى ، فقالت المرأة : « جزيت خيراً يا بني . لقد نبهت على مكرمة » ، وقامت فلبست ثيابها ومضت إليهم . وسرعان ما هجم على الشكوة فشرب ما فيها من اللبن ، وعلى الجراب فأكل التمر والزبيب . فلما رجعت المرأة ، وشعرت بما دهاها ، عمدت إلى خشبة لتضربه بها ، فهرب وقال :

ألمَّ على عنبات العجوز وشَكْوَتها من غياث لَمَمْ

فظلَّت تنادى ألا وَيْلَها وتلعن واللعنُ منها أمم

وقد علق ابن السكيت على البيتين ، فقال : « وهذا أول شعر قاله الأخطل »[1] ، مما يدل على استعداد أصيل فى نفس الأخطل لفن الهجاء منذ بدأ يمارس الشعر .

وكان كعب بن جعيل معلم المكانة فى الشام ، عظيم الشأن فى تغلب ، تبجله وتحترمه وتكرم وفادته ، وكان لا يأتى من قبيلته قوماً إلا أكرموه وضربوا له قبة ، وملئوا له حبالا بين وتدين فتملأ له غنماً . فلا عجب أن تشرئب إليه عنق الأخطل ، ويراوده الأمل فى أن تكون له مكانته . وواتت الصبى الفرصة فى أن يلفت إليه انتباهه ، عندما نزل هذا يوماً بقومه ، وجمعوا له غنماً على مألوف عادتهم ؛ فقد جاء الصبى وأخرج الغنم وطردها ، فسبه رجل من قومه ، وردها إلى مواضعها ، فعاد وأخرجها ، فقال كعب : « إن غلامكم هذا لأخطل » ، فقال الأخطل :

سُمِّيتَ كعباً بشرِّ العِظام وكان أبوك يسمَّى الجُعَلْ

وإن محلَّك من وائل محلُّ القُرَادِ مِن است الجَمَل

فقال كعب : « قد كنت أقول لا يقهرنى إلا رجل له ذكر ونبأ . ولقد أعددت هذين البيتين لأن أهجى بهما منذ كذا وكذا ، فغلب عليهما هذا الغلام »[2] . فالأخطل ، منذ حل شاعر القبيلة فى قومه ، أخذ يتحرش به ويهجوه ، محاولا

---

(١) أبو الفرج : الأغانى جـ ٨ ص ٣٠١ و ٣٠٢ .

(٢) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٨٠–٢٨٢ – نسب ابن سراحم هذين البيتين إلى عتبة بن أبى سفيان ، مع خلاف يسير فى روايتهما (وقعة صفين : ص ٤١١ و ٤١٢) .

بذلك أن يلفت نظره إلى شاعريته ، ولعله كان يرى بتحرشه إلى أن يثيره عليه ، فيهجوه ويشهّر أمره ، شأن أقرانه من الشعراء الناشئين . وخشى أبوه غوث مغبة تطاوله على شاعر القبيلة ، فضربه وانتهره قائلا : « أبقرزمتك تريد أن تقاوم ابن جعيل ؟ ! » ، ثم التفت إلى شاعر القبيلة وقال يعتذر عن سفاهته : « لا تحفل به فإنه غلام أخطل »[1]. وأراد الشاعر الكبير أن يختبر شاعريته ، فطلب إليه أن يجيز قوله : :

شاهِدُ هذا الوجهِ غِبُّ الحُمَّهْ

فأجازه على الفور :

فناك كعبُ بنُ جعيل أمّهْ [1]

ولم يبال تقريع أبيه وتأنيبه ، فهجا كعباً وأخاه ، وهجاه وأمه وأباه ، وهجا قومه جميعاً ، فى غير ترفق أو استبقاء :

هجا أم كعب :

هجا الناسُ ليلى أمَّ كعب فمُزّقَتْ ... فلم يبق إلاَّ نَفْنَفٌ أنا رافعُهْ[1]

وهجاه وأخاه معرضاً بأبويه :

هجـانى المنْتِنانِ ابنا جُعيل ... وأىُّ الناسِ يَقْتله الهجاءُ

ولِدتم بعد إخوتكم مِن استٍ ... فهلاَّ جئتمُ من حيثُ جاءوا[1]

وهجا نفسه وابنى جعيل وأمهما :

لعمرُك إننى وابَنىْ جُعيل ... وأمَّهما لإِسْتَار لئيمُ[2]

وهجا قوم كعب جميعاً :

إن اللّهازم لن تَنْفَكَّ تابعةً ... همُ الذُّنَابَى وشرْبُ التابع الكدَرُ

---

(١) أبوالفرج : الأغانى ، جـ ٨ ، ص ٢٨٢ .

(٢) نفس المصدر ، جـ ٨ ، ص ٢٨١ .

قبيلة كشرَاك النَّعل دارجة إن يهبطوا العَفْوَ لا يوجَد لهم أثر
محلُّهمْ من بنى تَيمْ وإخوتِهم حيثُ يكون من الحِمَارة الثُّفَر[١]

ولم يسكت كعب وأخوه عمير على هذا الهجاء فكانا يردان عليه هجاءه[٢].
وانتهى الأمر بكعب والأخطل إلى أن قدما البصرة فى مطلع خلافة معاوية ، حين كان عبد الله بن عامر والياً عليها ، وهجوا بها أناساً هجاء مقذعاً ضج له القوم ، واضطر معه الوالى إلى أن يحبسهما معاً ، فعرض به الأخطل وقال :

أرى كلَّ معقودٍ له حبلَ ذمَّة يرجى الإيابَ غيرَ ضيفِ ابن عامر
أرى شعراء الناس لمَّا تقاذفوا بكل عَضُوض تملأُ الفَم عاقر
جميعاً ، فأمَّا شاعرانا فأُمْسِكا وآبَ إلى أكفائنا كل شاعر[٣]

وربما طمع الأخطل فى هذه الفترة فى أن يروج لشعره عند أصحاب الجاه ، فأخذ يتنقل بين الجزيرة والعراق ، ولعله لم يظفر بما زين له الطمع والطماح ، فاندفع بلسانه ينهش أعراض الناس .

والواقع أنه لم يبق لنا من شعر الأخطل الذى قاله قبل أن يتصل بالأمويين ، غير هذه الأهاجى التى يغلب عليها الفحش والبذاء . وكان للعصر الذى نشأ فيه ، والبيئة التى تنفس فى جوها ، وظروف الحياة القاسية التى ابتلى بها ، أثر كبير فى أن ينحو هذا المنحى حين بدأ يعالج الشعر . فالعصر كان مضطرباً تتصارع فيه المطامع والأهواء ، وموطن قومه كان مسرحاً لصراع دموى عنيف يتقاذف فيه الشعراء بالتشهير والسباب ، وكانت حياته أدخل فى البداوة يحيا بين قومه حياة خشنة فى المضارب ، هذا إلى أنه كان يتجرع فى صغره مرارة الضيق والحرمان ؛ فامرأة أبيه تقتر عليه وتمتهنه ، وأبوه يضربه وينتهره ، ونصرانيته تسد عليه الطريق ؛ فأثر ذلك فى طبعه ، وجعله ميالا إلى التحدى والتحرش بالناس . فإذا أضفنا إلى ذلك ما أثر عنه من ذكاء ودهاء ، وسرعة فى التأثر والاندفاع ، لم نعجب أن يبرع فى فن الهجاء ، وأن تصدر عنه هذه الأهاجى المقذعة فى صباه .

---

(١) شعر الأخطل ، ص ٢٨٨ و ٢٨٩ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٨ ؛ أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٢٨٢ .
(٣) شعر الأخطل ، ص ٢٩٠ .

الباب الثانى

الأخطل والبيت السفيانى

الفصل الأول

الأمويون والأنصار

الأمويون والأنصار فى عهد الرسول – يوم السقيفة – الأمويون والأنصار فى خلافة أبى بكر وعمر – الردة والفتوح – الأمويون والأنصار فى خلافة عثمان – يوم الدار – الأمويون والأنصار فى خلافة على – يوم صفين – الأمويون والأنصار يتهاجون فى الحجاز – عبد الرحمن بن حسان يهجو الأمويين ويشبب بنساء البلاط – غضب يزيد بن معاوية واستعانته بكعب بن جعيل – كعب يرفض هجاء الأنصار ويدل يزيد على الأخطل .

فى فورة الصبا ومطلع الشباب . أخذ الأخطل يشق طريقه فى ركب الحياة . وكان طموحاً بعيد الأطماع . فحاول أن يلفت إليه الأنظار ، وسعى إلى أن يحتل مكانه بين الشعراء . ولكن الطريق كان وعراً محفوفاً بالمتاعب والصعاب ، فهو صغير السن لم تحنكه التجارب أو تعجم عوده الأحداث ، وهو مبتدئ ناشئ لم ترسخ فى الشعر قدمه حتى يمكن أن ينظم من القصائد ما يظفر بالتقدير والإعجاب . وهو نصرانى متمسك بنصرانيته فى دولة ناشئة دينها الرسمى الإسلام ، فكان عليه أن ينتظر حتى تنضج سنه وترسخ فى الشعر قدمه . ليظفر بالوصول إلى أرباب السلطان .

على أن الحياة شاءت له ، وهو فى هذه السن المبكرة ، أن تفسح له الطريق إلى أبواب الأمويين ، وأن تهيىء له من اضطراب عصره سبيلا إلى الشهرة والظهور . شاءت له الحياة أن يتألق نجمه ويلتمع اسمه . وهو غلام لما يتجاوز العشرين . فهيأت له من العداء بين الأمويين والأنصار سبباً إلى المجد الذى يرغب فيه .

وقد يبدو غريباً أن يرد للأنصار ذكر فى خلافة معاوية ، فالعهد بهم غالباً لا يتجاوز يوم السقيفة وما دار فيه من نقاش. لذلك رأينا أن نصل بين الماضى والحاضر ، فنتتبع هذا العداء منذ عهد الرسول إلى الفترة التى اتصل فيها الأخطل بالأمويين .

* * *

العداء بين بنى أمية والأنصار يتصل اتصالا وثيقاً بالنزاع بين بنى أمية وبنى هاشم .

والنزاع بين بني أمية وبني هاشم قديم يرجع فى بدء ظهوره إلى عهد الجاهلية . كان بنو هاشم أصحاب السيادة والشرف فى بيت عبد مناف قبيل ظهور الإسلام[١]. فلما ظهر الرسول ، سخط بنو أمية ، وأخذتهم الغيرة ، وكبر عليهم أن يزداد بنو هاشم شرفاً ومكانة ، فكانوا فى طليعة المحاربين للإسلام[٢] . أيقنوا أنه لو قدر للدين الجديد أن يظهر أمره ، ويعظم ذكره ، لكان فى ذلك توكيد لزعامة بنى هاشم . فتمادوا فى إيذاء الرسول ، وسعوا إلى إحباط دعوته ، وعملوا على تخذيل أتباعه بزعامة أبي سفيان . وكان هذا تاجراً ناجحاً كثير الأسفار ؛ فأفادته أسفاره خبرة بالنفوس ودهاء فى معاملة الناس ، وأكسبته تجارته وأمواله مكانة وشرفاً فى قريش ، وأصبحت له زعامة ملحوظة إلى جانب السيادة الهاشمية . فلما ظهر النبي ، أخذته الغيرة على زعامته ، وقاوم الرسول مقاومة عنيفة ، وألح فى إيذائه والصد عن دعوته . وظل الرسول صابراً على مناوأته نيفاً وعشر سنوات ، ثم لم يبق فى طوق الصبر منزع ، ففكر النبي فى الهجرة إلى المدينة ، حيث بنو النجار أخوال جده عبد المطلب[٣] ، وحيث قبر أبيه الذى كانت تحج إليه أمه قبل موتها كل عام[٤] ، وحيث الأوس والخزرج الذين كانوا فى حاجة إلى من يجمع شملهم ويحسم ما بينهم من نزاع[٥]. هنا خاف بنو أمية وأتباعهم من قريش أن يجمع النبي على حربهم إذا خرج الى المدينة ، ويعمل على إخضاعهم بالقوة ، بعد أن فشل فى إقناعهم باللين ، فسعوا إلى الأوس والخزرج ، وعملوا على تخذيلهم عنه ، وقالوا : « قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا ، أن تنشب الحرب بيننا وبينهم ، منكم[٦]». ولكن محاولتهم باءت بالفشل ، وتمت هجرة الرسول وأصحابه ، ورحب به أوس المدينة وخزرجها ، فكانوا له ردءاً ونصيراً .

---

(١) المقريزى : النزاع والتخاصم ، ص ١٨ — ٢١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٣ و ٣٢ .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ص ٨ — ١١ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٧ و ٨ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ٢ ص ٦٦ و ٦٧ .

(٦) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٢ ص ٩٠ .

جد إذن عنصر جديد فى النضال ، هو عنصر الأنصار . وبعد أن لم يكن لبنى أمية من عدو غير بنى هاشم ، أصبحوا أمام عدوين : المهاجرين من بنى هاشم ، والأنصار من الأوس والخزرج . وبعد أن كان النضال محصوراً فى مكة ، اتسعت رقعته فشمل مكة والمدينة .

وانتصر النبى فى « بدر » ، فأثارت هذه الهزيمة قريشاً ، وهبت تثأر لنفسها بزعامة أبى سفيان . وعمل هذا بدهائه على التفرقة بين المسلمين ، فأرسل إلى الأنصار يحاول تخذيلهم عن النبى : « يا معشر الأوس والخزرج ، خلوا بيننا وبين ابن عمنا ننصرف عنكم ، فإنه لا حاجة بنا لقتالكم »[١] ، فردوا رسوله بما يكره ، وصمموا على القتال ، فكانت وقعة « أحد » ، وكانت هزيمة المسلمين . وثأر الأمويون فى هذه الوقعة لما أصابهم فى بدر[٢] ، ومثلت نساؤهم بجثث المسلمين[٣] ، وتفشى القتل فى الأنصار يومئذ ؛ قتل منهم أكثر من ستين ، ولم يقتل من المهاجرين غير أربعة[٤] .

ثم تتابعت الحروب بين الفريقين ؛ يتزعم الأمويين وكفار قريش فى مكة أبو سفيان ، ويتزعم المهاجرين والأنصار فى المدينة الرسول ، حتى فتح الله على المسلمين مكة ، فاضطر الأمويون وكفار قريش إلى الدخول فى الإسلام ، وأسلم أبو سفيان مكرهاً فى حضرة الرسول والعباس . قال له الرسول : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ » ، قال : « بأبى وأنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً » ، قال العباس : « ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ص ١٩٥ .

(٢) قتل فى بدر ابن لأبى سفيان ، وأسر له ابن آخر ، وقتل وأسر من الأمويين أشخاص لهم مكانتهم (ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٢ ص ٣٦٥ و ٣٦٦ ؛ ج ٣ ص ٤ و ٧) .

(٣) وكانت هند امرأة أبى سفيان أشدهن فتكاً وتمثيلا ؛ قال إسحاق : « ووقعت هند بنت عتبة والنسوة اللاتى معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله (صلعم) يجدعن الآذان والآنف حتى اتخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خدما وقلائد ، وأعطت خدمها وقرطتها وحشيا غلام جبير بن مطعم ، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها » (نفس المصدر ، ج ٣ ص ٩٦ و ٩٧) .

(٤) نفس المصدر ، ج ٣ ص ١٢٩ و ١٣٣ .

عنقك » ، فشهد شهادة الحق فأسلم[١] . ووقف يراقب جيوش المسلمين وهي تدخل مكة ، فهاله ما رأى من قوة ، وقال يخاطب العباس : « والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً » . فقال العباس : « يا أبا سفيان ، إنها النبوة » ، فقال « فنعم إذن » ، وكشف بذلك عما كان ينطوى عليه صدره من حسد للرسول[٢] .

وحاول النبي أن يعالج الموقف علاجاً نفسيًّا ، فأعلن قبل أن يدخل المسلمون مكة ، أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن[٣] ، فجعل بذلك دار أبي سفيان حرماً . وأراد أن يشعر أهل مكة بالطمأنينة ، ويذهب عن قلوبهم الروع ، فعفا عنهم وقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »[٤] . وزاد فى تألف أبي سفيان ، فجعله على رأس المؤلفة قلوبهم الذين يزاد لهم فى العطاء .

على أن هذا كله لم يغير كثيراً من شعور المسلمين الأوائل . فالمهاجرون والأنصار كانوا يشعرون بأن من أسلم من بنى أمية بعد الفتح لا يدانونهم قوة إيمان وعلو مكانة ، ويرون أنهم لم يسلموا حبًّا فى الإسلام وإيماناً برسالة محمد ، وإنما أسلموا مكرهين بعد أن ذهب بأسهم وانكسرت شوكتهم ؛ فبقيت العداوة كامنة فى النفوس تتحين الفرص للظهور .

ثم مات النبي دون أن يعين من يخلفه ، فاضطرب حبل المسلمين ، وبدأ النزاع على الخلافة . وكان بنو أمية يرجون ويؤملون ، ولكنهم كانوا أضعف من أن يرتفع لهم صوت أو تسمع لهم كلمة ، فانحصر النزاع فى بنى هاشم ، والمهاجرين من غير بنى هاشم ، والأنصار من الأوس والخزرج . طمع فيها بنو هاشم بحكم قرابتهم من الرسول ، وطمع فيها المهاجرون من غير بنى هاشم بحكم سبقهم إلى

(١) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٥ و ٤٦ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٧ — لم تكن زوجه هند أيسر منه إسلاماً ، فقد قامت إليه حين علمت بإسلامه ، وأخذت بشاربه ، وقالت . « اقتلوا الحميت الدسم الأحمس ، قبح من طليعة قوم » (نفس المصدر والصفحة) .

(٣) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٦ و ٤٧ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٥٥ .

الإسلام وبلائهم فى التمسك بعقيدتهم ، وطمع فيها الأنصار من الأوس والخزرج بحكم ما بذلوه من مال وضحوا به من أرواح فى نصرة النبى ودعوته . ولولا حزم أبى بكر وعمر ، وتنافس الأوس والخزرج ، لاستشرى الأمر واستفحل الخطب ، وعادت الحرب جذعة بين مكة والمدينة ، فقد اجتمع الأنصار ، عقب موت الرسول ، فى سقيفة بنى ساعدة ، وأخرج الخزرج سعد بن عبادة ليولوه أمر المسلمين[1] ، فلم يرض الأوس عن هذا الوضع ، ورأوا فى تحقيقه توكيداً لتحكم الخزرج . وقام بشير بن سعد الأوسى ، ونادى فى الأنصار بوجوب ترك الخلافة لقريش ، فقال : « ألا إن محمداً (صلعم) من قريش، وقومه أولى به . وايم الله ، لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً. فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » ، ثم ذهب إلى أبى بكر ، فكان أول من بايعه من الأنصار[2] . قال ابن الأثير : « لما رأت الأوس ما صنع بشير ، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد ، قال بعضهم لبعض ، وفيهم أسيد بن حضير ، وكان نقيباً: "والله لئن وليتها الخزرج مرة ؛ لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً ، فقوموا فبايعوا أبا بكر"[3] » ، فتمت البيعة، وانفرجت الأزمة ، وكان لتنافس الأوس والخزرج أكبر الأثر فى ظفر قريش بالخلافة .

خرج الأمر بتولية أبى بكر من بنى هاشم و بنى أمية والأنصار ، ثم لم يلبث أن خرج منهم بتولية عمر بن الخطاب ، فسكتوا جميعاً على هذا الحرمان ، وهم لذلك كارهون . ولولا ما كان يتصف به أبو بكر وعمر من مزايا وخلال ، وما كانا يأخذان به المسلمين من حزم وعدل ، ولولا انشغال الجميع بحروب الردة ، و بالفتوح فى العراق والشام ومصر و بلاد فارس ، ولولا كثرة الأسلاب وتدفق الغنائم على الحجاز ، لولا هذا كله ، لكان من الممكن أن تظهر هذه الكراهة فى شكل عملى محسوس .

ثم قتل عمر ، فاشرأبت الأعناق إلى الخلافة ، وسعى الطامعون إلى الظفر بها . وكانت قصة الشورى ، وتولى الخلافة عثمان بن عفان ، فارتفع سهم الأمويين ، وانتصروا بخلافة قريبهم ، وظفروا بما كانوا يتحرقون إليه من السيادة والسلطان .

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ص ٤٥٥ — ٤٦٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ص ٢٢٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٢٤ .

وإذا كان أبو سفيان قد شاخ وأوهنت السنون من قواه، فقد احتل مكانه من بني أمية شخصيات أخرى لها مكانتها وقوتها، فنبغ ابنه معاوية وأخذ يمكن لنفسه بالشام، كما أخذ مروان بن الحكم يفرض آراءه على عثمان، ويتحكم فى أمور الناس بالحجاز، ولم يكن المسلمون الأوائل قد بعد بهم العهد بما كانوا يلقونه على أيدى الأمويين من شدة وبلاء. ولم ينسوا أنهم من الطلقاء الذين أسلموا كرهاً واضطراراً بعد أن تألفهم الرسول. وزاد الطين بلة أن عثمان كان يبر قومه ويؤثرهم بالمناصب، ولا يسير سيرة أبى بكر وعمر فى مراعاة كبار المسلمين. فكره الناس حكمه، وكانت شدة بره بأهله وأقاربه من أبرز الأسباب فى إثارة الشغب عليه. فقامت الفتنة. وثار عليه المسلمون بمصر والعراق، وحوصر فى المدينة، وانتهى الأمر بقتله وفرار بنى أمية إلى مكة والشام.

والمتأمل فى تاريخ هذه الفتنة يرى بوضوح أن بنى هاشم والأنصار لم يبرأوا من التسبب فى قتل عثمان، وأنهم كانوا من المحرضين على قتله، أو كانوا، على الأقل، من العاملين بموقفهم السلبى على إفساح الطريق للثوار فى القضاء عليه. ويروى الطبرى أن أول من اجترأ عليه كان رجلا من الأنصار اسمه جبلة بن عمرو، مر به عثمان وهو جالس فى ندى قومه، وفى يد جبلة جامعة، فلما سلم عثمان رد القوم، فانتهرهم جبلة، وقال: «لم تردون على رجل فعل كذا وكذا؟»، ثم أقبل على عثمان فقال: «والله لأطرحن هذه الجامعة فى عنقك أو لتتركن بطانتك هذه»، قال عثمان: «أى بطانة؟ فوالله إنى لا أتخير الناس»، فقال: «مروان تخيرته، ومعاوية تخيرته، وعبد الله بن عامر بن كريز تخيرته، منهم من نزل القرآن بدمه وأباح رسول الله دمه»، فانصرف عثمان، فما زال الناس مجترئين عليه إلى ذلك اليوم[1].

كان من الأنصار إذن فريق يسخط على عثمان سياسته فى إيثار الأمويين، واجترأ عليه أحدهم أول اجتراء كان مشجعاً للآخرين عليه. ولما هم الثوار بقتل عثمان، وقف الأنصار منهم ومنه موقف الحياد، فلم يمنعوهم ولم يدافعوا عنه. بل إن بعض الأنصار يعد مشتركاً فى جريمة القتل، إذ سمح عمرو بن حزم الأنصارى للثوار باقتحام دار عثمان عن طريق داره، فسهل عليهم قتله[2]. وانتقد حسان بن ثابت

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣ ص ٣٩٩ و ٤٠٠.
(٢) نفس المصدر، ج ٣ ص ٤٠٤ و ٤١١ و ٤١٤.

على الأنصار موقفهم ، فقال :

خذلَتْه الأنصارُ إذ حَضر المو تُ وكانت ولاتَه الأنصارُ (١)

وواجههم بذلك النعمان بن بشير ، فقال : « ألستم معشر الأنصار تعلمون أنكم أخطأتم فى خذل عثمان يوم الدار ؟ »(٢) . فالدلائل قائمة على أن الأنصار ضاقوا بعثمان وقومه ، وأنهم كانوا يتحينون الفرص للتخلص منه ومنهم ، فلما قامت الفتنة أدلوا بدلوهم فيها ، وخذلوه ولم يدفعوا عنه بطش الثائرين .

تولى على بن أبى طالب أمر الخلافة بعد مقتل عثمان ، فكان فى ذلك كسب لبنى هاشم ، ورضاء من الأنصار ، ومثار لسخط الأمويين فى الحجاز والشام . فرفض بنو أمية أن يعترفوا بخلافة على ، وانتقضوا عليه فى الشام بزعامة معاوية ابن أبى سفيان ، كما انتقضوا عليه فى الحجاز وخرجوا فى جيش طلحة والزبير إلى العراق . واعتمد علىّ على الأنصار فى محاربة الزبير وطلحة اعتماداً كبيراً ، فكان لهم الفضل فى انتصاره فى وقعة الجمل . ولكن القضاء على معاوية لم يكن من السهولة بمكان ، فقد كان قوى المكانة فى الشام ، محبوباً مطاعاً فى دمشق ، لطول مدته هناك ، ولحسن سياسته وسعة حلمه ودهائه . فلما قتل عثمان ، واشرأبت الأعناق إلى على ، نشط معاوية ليظفر بالخلافة دونه ، معتمداً فى ذلك على كفايته ، معتزاً بأنصاره ، متخذاً من المطالبة بثأر عثمان حجة لما يبغى . وانضم الأنصار إلى على يشدون أزره فى النضال ، وأبلوا فى الدفاع عن قضيته بلاء رائعاً ، واشتدوا فى حرب معاوية حتى ضج من بطشهم ، فقال : « لقد غمنى ما لقيت من الأوس والخزرج . صاروا واضعى سيوفهم على عواتقهم يدعون إلى النزال ، حتى والله جبنوا أصحابى ، الشجاع منهم والجبان ، وحتى والله ما أسأل عن فارس من أهل الشام إلا قالوا قتلته الأنصار »(٣) . وكأنما انفجرت هذه الكراهية التى كانوا يطوون عليها أنفسهم منذ عهد الرسول ، فأخذوا يشفون ما فى أنفسهم من غل ، فى النضال بين معاوية وعلى ، وأخذ شعراؤهم وخطباؤهم يهجون بنى أمية بألسنة حداد ، حتى شكا

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ١ ص ٤٤٢ .

(٢) ابن مزاحم : وقعة صفين ، ص ٥١١ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٠٦ و ٥٠٧ .

معاوية ذلك إلى عمرو بن العاص ، فقال : « ما ترى فى شتم الأنصار ؟ » ، قال : « أرى أن توعد ولا تشتم . ما عسى أن تقول لهم ؟ إذا أردت ذمهم فذم أبدانهم ولا تذم أحسابهم » ، فقال معاوية : « إن خطيب الأنصار قيس بن سعد يقوم كل يوم خطيباً ، وهو والله يريد أن يفنينا غداً إن لم يحبسه عنا حابس الفيل ، فما الرأى ؟ » ، قال : « الرأى التوكل والصبر »[1] .

ثم قتل على ، وتنازل الحسن ، وظفر معاوية بالخلافة ، وأحس الأنصار بأنهم خسروا القضية التى يقاتلون من أجلها ، فأغمدوا سيوفهم مكرهين ، وطووا أنفسهم على كثير من السخط والضيق . كانوا يحسون فى أعماق نفوسهم أن معاوية لم يكن مستحقاً للخلافة وأنه اغتصبها من آل بيت الرسول. ولم يكن من المعقول ، فى رأيهم ، وهم المؤمنون الذين نصروا الرسول منذ البداية ، وشهدوا غزواته كلها ، وشاركوه فى السراء والضراء ، وأشربت قلوبهم حب دينه ، لم يكن من المعقول، وهم الأقوياء إيماناً ، الراسخون ديناً ، أن ينظروا نظرة احترام إلى هؤلاء الأمويين الذين اغتصبوا الخلافة ، وحاربوا الإسلام وعادوا المسلمين ، ولم يسلموا بعد الفتح إلا كارهين . ومن معاوية ؟ أليس ابن ألد أعداء الرسول وأجرئهم على إيذائه ؟ أليس ابن أبى سفيان أعرق بنى أمية فى معاداة الإسلام ؟ بأى حق يطلب الخلافة وهو الطليق ابن الطليق ؟ إن الطلقاء لا تحل لهم الخلافة ، ولا تعرض فيهم شورى . على هذا النحو كان الأنصار ينظرون إلى خلافة معاوية ، وبمثل هذا القول كانت ألسنتهم تنطلق بالنيل من الأمويين .

على أن معاوية لم يقابل عداء الأنصار بالمثل ، فأخذ يترضاهم ، وجهد فى أن يشعرهم بالأمان والطمأنينة ، عسى أن يستل ما فى صدورهم من ضغن . ولا غرو فقد كان يعرف لهم مكانتهم فى قلوب المسلمين ، ولم يكن يأمن على دولته الناشئة من الانتقاض ، إذا هو نكل بهم واقتص منهم . قال يوماً لقيس بن عبادة الأنصارى : « يا قيس ، والله كنت أود أن تنكشف الحروب التى كانت بينى وبين على وأنت حى » ، فقال قيس : « والله إنى كنت أكره أن تنكشف تلك الحروب وأنت أمير المؤمنين » ، فلم يقل له شيئاً[2] . وبعث إلى رجل من الأنصار

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٠٩ .

(٢) ابن الطقطقى : الفخرى ، ص ٧٧ .

بخمسمائة دينار ، فاستقلها الأنصارى ، وقال لابنه : « خذها وامض إلى معاوية فاضرب بها وجهه وردها عليه » ، وأقسم على ابنه أن يفعل ذلك ، فجاء ابنه إلى معاوية ومعه الدراهم ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن أبى فيه حدة وسرعة وقد أمرنى بكيت وكيت وأقسم على وما أقدر على مخالفته » ، فوضع معاوية يده على وجهه ، وقال : « افعل ما أمرك أبوك وارفق بعمك » ، فاستحيا الصبى ورمى بالدراهم ، فضاعفها معاوية وحملها إلى الأنصارى . وبلغ الخبر يزيد ابنه فدخل عليه غضبان ، وقال : « لقد أفرطت فى الحلم حتى خفت أن يعد ذلك منك ضعفاً وجبناً » . فقال : « أى بنى ، إنه لا يكون مع الحلم ندامة ولا مذمة ، فامض لشأنك ودعنى ورأيى »[1] . ولم يكن هذا اللين عن حب للأنصار ، فالعهد قريب بما لقيه على أيديهم من عنت وأذى ، وإنما كان يترفق بهم ويسترضيهم باعتبارهم فئة لها خطرها ومكانتها فى المجتمع الإسلامى . ومما يدل على حقيقة شعوره نحوهم ما كلمهم به حين أتوا إليه فى مطلع خلافته طامعين مؤملين ، قال : « يا معشر الأنصار ، بم تطلبون ما قبلى ؟ فوالله لقد كنتم قليلا معى كثيراً على ، ولفللتم حدى يوم صفين حتى رأيت المنايا تلظى فى أسنتكم ، وهجوتمونى فى أسلافى بأشد من وقع الأسنة ، حتى إذا أقام الله ما حاولتم ميله قلتم ارع وصية رسول الله . هيهات ! يأبى الحقير الغدرة »[2] . ولم يتراجع أبداً عن تنفيذ هذه السياسة فأبعدهم عن تولى الإمارات ، ولم يول أمرهم فى المدينة أحداً منهم ، بل كان يختار ولاته من البيت الأموى . ولى عليهم أول الأمر مروان بن الحكم ، ثم سعيد بن العاص ، ثم أعاد إليهم مروان ، حتى إذا كان فى آخر أيامه ، أسلم أمرهم إلى الوليد بن عتبة [3] .

حد هذا المسلك من نشاط الأنصار ، وزادهم ضيقاً على ضيق شدة مروان ابن الحكم وصرامته وتعاليه فيمن معه من قومه . وفجر عوامل السخط فى نفوسهم أن أخاه عبد الرحمن بن الحكم تطاول على شاعرهم عبد الرحمن بن حسان ، فهجاه بأبيات نال فيها منهم نيلا شديداً[4] ، فبدأ الهجاء بين الشاعرين ، وانتقل العداء بين

---

(١) نفس المصدر ، ص ٧٧ و ٧٨ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ص ٦٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٣ (من ٤١ هـ إلى ٦٠ هـ) .

(٤) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ١٣ ص ١٤٤ — ١٤٦ .

الأمويين والأنصار من ميدان الحرب إلى حومة الشعر. فلما عزل معاوية مروان وولى مكانه سعيد بن العاص، تنفس الأنصار بعض الشيء، لأن سعيداً كان أكثر تساهلا من سلفه، وأخذ ابن حسان يهجو ابن الحكم ويرد عليه هجاءه، يشجعه على ذلك صداقته لسعيد. وتجاوز الشاعران العداء الشخصى إلى الهجاء السياسى، فأخذ ابن الحكم يندد بالأنصار وبما صاروا إليه من ذلة وخضوع، ويفخر بالأمويين وبما آلوا إليه من أيد وسلطان. كما أخذ ابن حسان يندد بالأمويين وبعلم أحقيتهم بالخلافة، ويفخر بالأنصار وبما كان لهم من بلاء فى نصرة الإسلام.

قال شاعر الأنصار :

صار الذليلُ عزيزًا ، والعزيزُ به ... ذل ، وصار فروع الناس أذنابا

إنّى لَملتمِس ، حتى يَبينَ لكم ... فيكم ، متى كنتمُ للناس أربابا ؟

ففارِقوا طلعكم ثم انظروا وَسَلوا ... عنا وعنكم قديمَ العلم أنسابا

فكيف يضحك أو تعتاده ذكَر ؟ ... يا بؤسَ للدهر للإنسان ريّابا[1]

وقال :

دَع ذا وعدِّ قريض شعرك فى امرئ ... يَهذِى ويُنشد شعره كالفاجِر

عثمان عَمكمُ ولستم مثله ... وبنو أميةَ منكمُ كالآمر

وبنو أبيـــه سخيفة أحلامهم ... فُحْش النفوس لدى الجليس الزائر

أحياؤهم عار على أمواتهم ... والميّتون مسبّة للغابر[2]

فابن حسان فى هذا الشعر يصور الأمويين أعزة بعد ذل، والأنصار أذلة بعد عز، أذناباً بعد أن كانوا فروعاً، ويتربص بالأمويين الدوائر، وينتظر حكم الحق فيهم، وخروج الأمر من أيديهم، ويندد ببنى العاص، ويوقع بينهم وبين أبناء عمومتهم بنى سفيان، ويشمل الأمويين جميعاً بالهجاء، فإذا الأحياء منهم عار

---

(١) نفس المصدر، جـ ١٣ ص ١٤٥ .

(٢) نفس المصدر، جـ ١٣ ص ١٤٦ .

على الموتى ، والأموات مسبة للغابرين .

ولم تحتبس هذه الحركة الشعرية فى الحجاز ، فامتدت إلى الأمصار المفتوحة ، وتردد صداها فى العراق والجزيرة والشام ، وكانت مجالا خصباً لإثارة العصبيات القديمة التى أخمدها الإسلام أو كاد . وشارك فيها بعض شعراء الأمصار ، فأعان مسكين الدارمى ابن الحكم ، وفاخر ابن حسان بقصيدة طويلة عدد فيها مآثر بنى تميم ، فأجابه ابن حسان بقصيدة أطول منها [١] ، وأدلى يزيد بن معاوية بدلوه فى الهجاء ، فتقاول وابن حسان [٢] .

والرواة مختلفون فى السبب الذى حدا بيزيد إلى التدخل . فمن قائل : إنه حمى لقريبه ابن الحكم [٣] ، وقائل : إنه تقاول وابن حسان فاستعلاه هذا وأثار غضبه وحفيظته [٤] ، وقائل : إنه غضب حين تمادى ابن حسان فشبب ببعض نساء البلاط [٥] . واختلفوا فيمن شبب بها ابن حسان ؛ فقال بعضهم : هى رملة بنت معاوية ، شبب بها فقال :

رَمْلَ هل تذكرين يوم غزال ... إذ قطعنــا مسيرنا بالتمنِّى؟
إذ تقولين عَمْرُكَ الله هل شى ... ء وإن جلّ سوف يُسْليك عنى ؟
أَوَأطمعتُ منكمُ يا بنَ حسّا ... ن كما قد أراك أطمعتَ منى؟[٦]

وقيل : بل هى أخت معاوية وعمة يزيد ، شبب بها فقال :

طال ليلى وبتُّ كالمحزون ... ومَلِلت الثّواءَ فى جَيرونِ
فلِذاك اغتربتُ بالشام حتى ... ظن أهلى مُرَجّماتِ الظنون
هى زهراء مثل لؤلؤة الغوّ ... اص مِيزت من جوهر مكنون

(١) نفس المصدر ، جـ ١٣ ص ١٤٧ .
(٢) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٧٦ .
(٣) أبوالفرج : الأغانى ، جـ ١٣ ص ١٤١و ١٤٤ و ١٤٧ .
(٤) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٧٦ .
(٥) أبوالفرج : الأغانى ، جـ ١٣ ص ١٤١ ؛ جـ ١٤ ص ١١٧ .
(٦) نفس المصدر ، جـ ١٣ ص ١٤١ ؛ جـ ١٤ ص ١١٧ .

وإذا ما نسبتَها لم تجدها في سناء من المكارم دون
ثم خاصرتُها إلى القبَّة الخضـ راء تمشي في مرمر مسنون
قبَّة من مراجِل نصبوها عند حدّ الشتاء في قَيْطون
عن يسارى إذا دخلت من البا ب وإن كنت خارجاً فيميني
تجعل النَّدَّ والأُلُوَّة والعـو دَ صِلاءً لها على الكانون
وقباء قد أسرجت وبيـوت نَطقت بالريحان والزَّرجون[1]

وكل من هذه الأسباب ممكن قريب الاحتمال . فابن الحكم ويزيد تجمعهما رابطة القرابة ، فلا غرابة في أن يغضب يزيد لقريبه ويعمل على إعانته في مقارعة خصمه . ثم إن يزيد كان يقرض الشعر ويكثر من روايته ، فلا يبعد أن يتقاول وابن حسان وأن تدفع به الهزيمة إلى الغيظ والحنق . وليس بغريب أن يسخط يزيد ويثور حين يشبب ابن حسان بنساء البلاط ، فالعداء بين الأمويين والأنصار يخرج تشبيبه عن أن يكون فناً خالصاً يشرف بتصوير المشبب بها ، إلى هجاء ساخر يقصد به إلى الحط من الأمويين .

أيًّا ما كان الأمر ، فهذا التشبيب أثار يزيد إثارة بالغة ، فدخل على معاوية ، وقال : « يا أمير المؤمنين ، ألا ترى إلى هذا العلج من أهل يثرب يتهكم بأعراضنا ويتشبب بنسائنا ؟ » ، قال : « ومن هو ؟ » ، قال : « عبد الرحمن بن حسان » ، ثم أنشده ما قال ، فهدأ معاوية من روعه ، وطلب إليه أن يمهله حتى يقدم وفد الأنصار إلى دمشق[2]. وبلغ من غضب يزيد على ابن حسان أن طلب إلى أبيه أن يقتله ، فقال معاوية يطامن من سورة غضبه : « يا بني ، ليس يجب القتل في هذا ، والعقوبة دون القتل ، ولكنا نكفه بالصلة والتجاوز »[3] . وطلب الناس إلى معاوية أن يجعله نكالا ، فقال : « لا . ولكن أداويه بغير ذلك »[4] .

---

(١) نفس المصدر ، جـ١٣ ص ١٤٣ .
(٢) نفس المصدر ، جـ١٣ ص ١٤٢ .
(٣) نفس المصدر ، جـ١٣ ص ١٤٣ .
(٤) نفس المصدر ، جـ١٣ ص ١٤٣ .

وكان معاوية فى ذلك مثال الرجل الهادئ الذى يقدر العواقب ، وكان مسلكه يتفق وسياسته فى استرضاء الأنصار ، ويتمشى وما أثر عنه من حلم ودهاء . فلما وفد عليه ابن حسان فى وفد الأنصار ، قال : « يا عبد الرحمن ، ألم يبلغنى أنك تشبب برملة بنت أمير المؤمنين ؟ » ؛ قال : « بلى ، ولو علمت أحداً أشرف به شعرى أشرف منها لذكرته » ، قال : « وأين أنت من أختها هند ؟ » ، قال : « وإن لها أختاً ؟ » ، قال : « نعم » . ووصل معاوية الوفد ، وتجاوز عن ابن حسان ، وأغواه بأن يشبب ببنت أخرى من بناته ، ليكذب نفسه حين يشبب بهما جميعاً[١] .

ولكن يزيد لم يرض بهذا التصرف حلاً للموقف ، فتلفت باحثاً عن شاعر من الحزب الأموى يهجو شاعر الأنصار ، ولم يجد غير كعب بن جعيل ، شاعر معاوية وأهل الشام ، فسعى إليه على غير علم من أبيه ، وقال : « إن ابن حسان قد فضح عبد الرحمن بن الحكم وغلبه وفضحنا ، فاهج الأنصار » ، فقال كعب : « أرادى أنت فى الشرك ؟ أأهجو قوماً نصروا رسول الله (صلعم) وآله وآووه ؟ ولكنى أدلك على غلام منا نصرانى لا يبالى أن يهجوهم كأن لسانه لسان ثور » ، فقال يزيد : « من هو ؟ » ، فقال كعب : « الأخطل »[٢] . وغير بعيد أن يتحرج كعب عن هجاء الأنصار ، ويرى فى هجائهم عودة به إلى الشرك بعد الإسلام ، ولكن قوله فى رواية أخرى : « أفرق من أمير المؤمنين »[٣] ، يدل على أنه كان يخشى الخليفة أيضاً إن هو قام بهذا الهجاء . ولا غرابة فى ذلك ، فقد كان شاعره الخاص الذى خبر سياسته فى استرضاء الأنصار ، هذا إلى أن يزيد لم يستشر فى الأمر أباه ، فخاف كعب أن يغضب الخليفة ، ورفض ما عرض عليه يزيد ، ووضع عبء القيام بذلك على عاتق الأخطل ، هذا الغلام السفيه الذى نبغ فى الهجاء ، وعرفته الجزيرة والعراق بالبذاءة وسلاطة اللسان .

---

(١) نفس المصدر ، ج ١٣ ص ١٤٢ — وفى ص ١٤٣ رواية أخرى تذهب إلى أن معاوية لم يكن له بنت أخرى تسمى هند ، وأنه إنما خدع ابن حسان ليشبب بها ولا أصل لها ، فتعلم الناس أنه كذب على الأولى لما ذكر الثانية . على أن ابن كثير يذكر هند فى عداد بنات معاوية ، ويروى ماحدث بينها وبين عبد الله بن عامر حين دخل بها ، مما يؤيد الرواية التى أخذنا بها فى تفسير مقصد معاوية (البداية والنهاية ، ج ٨ ص ١٤٥) .

(٢) نفس المصدر ، ج ١٣ ص ١٤٧ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١٣ ص ١٤٢ .

الفصل الثانى

صلة الأخطل بالبيت السفيانى

يزيد يستقدم الأخطل من الجزيرة – الأخطل يتردد فى هجاء الأنصار – يزيد يتعهد بحماية الأخطل – الأخطل يهجو الأنصار وشاعرهم ابن حسان – النعمان بن بشير يتهدد الأمويين والأخطل – شفاعة يزيد واسترضاء النعمان – الأخطل ومعاوية بعد هجاء الأنصار – صلة الأخطل بيزيد بن معاوية – الأخطل وشخصية يزيد – شعر الأخطل فى يزيد – الأخطل وعمال يزيد – صلة الأخطل بعبد الله بن معاوية – الأخطل وشخصية عبد الله – شعر الأخطل فى عبد الله – صلة الأخطل بخالد بن يزيد – الأخطل وشخصية خالد – شعر الأخطل فى خالد .

لم يغب عن كعب بن جعيل ، وقد رفض هجاء الأنصار ، أن الأخطل شاعر قبيلته الناشئ ، قد أوتى من البراعة فى الهجاء ، ما جعل اسمه ذائعاً فى الجزيرة والعراق . ولم يغب عنه كذلك أن هذا الغلام السفيه الذى كان يسلقه بلسانه الحاد ليس من الإسلام فى شىء حتى يتحرج عن هجاء الأنصار . فأشار على يزيد ابن معاوية باستخدامه ، وحدثه بأخبار فجره وتحرشه بالناس ، ونوه بمهارته فى الهجاء ، وعرض بنصرانيته التى قد تجعله فى حل من هجائهم ، ووصفه بأنه شاعر ، فاجر ، ماهر ، كافر ، خبيث الدين ، نصرانى ، لا يبالى أن يهجوهم ، كأن لسانه لسان ثور[1] . واقتنع يزيد بقول كعب ، فاستقدم الأخطل من الجزيرة إلى الشام ، وأمره بهجائهم والرد على شاعرهم عبد الرحمن بن حسان .

تردد الأخطل فى أن يقدم على هذا الهجاء ، وأبدى ليزيد مخاوفه ، فقال : « كيف أصنع بمكانهم ؟ أخاف على نفسى »[2] ، وقال : « أفرق من أمير المؤمنين »[3] . فدل على أنه كان مقدراً لخطورة الموقف ، متنبهاً إلى المكانة الممتازة

---

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٧٦ ؛ أبو الفرج : الأغانى ، جـ ١٣ ص ١٤٢ و ١٤٧ ؛ جـ ١٤ ص ١١٧ و ١١٨ .

(٢) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٧٧ .

(٣) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ١٣ ص ١٤٢ ؛ جـ ١٤ ص ١١٧ .

التي يحتلها الأنصار من قلوب الناس ، عالماً بأن معاوية لن يرضى عن تهجمه عليهم بالهجاء . ولم يغب عنه أيضاً أنه نصراني وهم مسلمون ، وأن كعباً المسلم خاف على نفسه فامتنع عن هجائهم على ارتفاع منزلته ، فكان طبيعياً أن يكون أشد منه خوفاً ، وأن يتردد فى القيام بهذا الهجاء . ولكن يزيد أدخل الطمأنينة على قلبه ، وأمنه من بطش معاوية ، فقال : « لك ذمة أمير المؤمنين وذمّى »[1] ، وتعهد بحمايته ، فقال : « لا تخف شيئاً ، أنا لك بذلك »[2] .

ولم يكن من الرضوخ بد ، فقال الأخطل ، يهجو الأنصار وشاعرهم عبد الرحمن بن حسان :

لعن الإلهُ من اليهودِ عصابةً بالجِزْعِ بين جُلاجِلٍ وصِرارِ
قوم إذا هَدر العصيرُ رأيتهم حُمْرًا عيونهمُ كجمر النار
ذهبت قريش بالمكارم والعُلا واللؤم تحت عمائم الأنصار
فذَروا المعالىَ لستمُ من أهلها وخذوا مساحِيَكم بنى النَّجار
إنَّ الفوارس يعرفون ظهوركم أولادَ كلّ مُقَسَّح أكّار
وإذا نسبْتَ ابن الفُريعةَ خِلْتَه كالجحش بين حمارة وحمار[3]

والأبيات على قلتّها قوية فى هذه السخرية اللاذعة من الأنصار ، خطيرة لصدورها عن شاعر نصرانى فى حق فريق له خطره ومكانته بين المسلمين . وقد بدأها الأخطل بوخزة أليمة ، فاعتبر الأنصار عصابة من اليهود ، وما كانوا من اليهود فى شىء ، ورماهم بالتهافت على الخمر ، حتى إذا هدرت بدت عيونهم كجمر النار ، ثم ضرب على وتر حساس هو وتر العصبية ، فوازن بينهم وبين قريش وأثار ما كان بين العدنانية والقحطانية من عداء ، ثم لم يكتف بالإثارة وقلب الحقائق حتى وضع اللؤم تحت عمائمهم ، وأبى عليهم أن يسعوا فى طلب

---

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٧٧ .

(٢) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ١٣ ص ١٤٢ ؛ جـ ١٤ ص ١١٧ .

(٣) شعر الأخطل ، ص ٣١٤ ؛ أبو الفرج : الأغانى ، جـ ١٣ ص ١٤٢ ؛ جـ ١٤ ص ١١٧ و ١١٨ .

المعالى لأنهم أصحاب زراعة وفلاحة وليسوا أهلا للقيام بجلائل الأعمال ، ووصمهم بالجبن فى القتال لأنهم أهل تجارة وليسوا أهل طعان ونزال ، فإذا كان فى آخر الأبيات رشق ابن حسان بأوخز بيت لذعاً فى السخرية والاستهزاء .

وكان لهذه الأبيات أسوأ الأثر فى نفوس الأنصار ، وغضب منها النعمان ابن بشير الأنصارى غضباً شديداً ، فقال يتوعد معاوية إن لم يقطع لسان الأخطل :

معاوِىَ إلاَّ تعطنا الحقَّ تعترفْ   لِحَى الأَزدِ مشدودًا عليها العمائمُ
أيشتمنا عبد الأراقم ضلةً   وماذا الذى تُجدى عليك الأَراقم
فما لىَ ثأْر دون قطع لسانه   فدونَك من يرضيه عنك الدراهم

ويذكره بما لقى الأمويون على أيدى الأنصار فى عهد الرسول :

فإن كنت لم تشهد ببدر وُقَيعة   أذلَّت قريشاً والأنوفُ رواغم
فسائل بنا حيّى لؤىّ بن غالب   وأنت بما يَخفى من الأمر عالم
ضربناكم حتى تفرّق جمعكم   وطارت أكفٌ منكمُ وجماجم

ويصارحه بأنه ليس أهلا للخلافة ، وأن أولياء الحق والأمر بنو هاشم :

فما أنت والأمرَ الذى لستَ أهلَه   ولكن ولىّ الحق والأمرِ هاشم
إليهم يصير الأمر بعد شَتاته   فمن لك بالأمر الذى هو لازم
بهم شرع الله الهدى فاهتدِى بهم   ومنهم له هاد إمام وخاتم[1]

---

(١) أبو الفرج : الأغانى ، ج ١٣ ص ١٤٢ ؛ ج ١٤ ص ١١٧ و ١١٨ و ١٢١ و ١٢٢ — روى أبو عبيدة أن النعمان بن بشير رد على الأخطل ، فقال :

أبلغ قبائل تغلب ابنة وائل   من بالفرات وجانب الثرثار
فاللؤم بين أنوف تغلب بين   كالرقم فوق ذراع كل حمار

فخاف الأخطل أن يهجوه ، فقال :

هجوت بنى الفريعة إذ هجونى   فما بالى وبال بنى بشير
أنيحج من بنى النجار يضحى   شديد القصريين من السحور
وقد جاريت قد علمت معد   بلا وانى اليدين ولا قصير
بلى شق على الضبرات حتى   يلين على التخفف والشخير

(نفس المصدر ، ج ١٣ ص ١٤٧ ؛ شعر الأخطل ، ص ٣١٣) .

وبلغت قصيدة النعمان بن بشير معاوية ، فتركت فى نفسه أبلغ الأثر ، فقد كان النعمان كريماً عليه رفيقاً عنده ، وشهد معه بصفين ولم يكن معه من الأنصار غيره ، وكان يعلق عليه أكبر الآمال فى السفارة بينهم وبينه[1] ، فاستقدمه وتجاهل ما قال ، فحسر النعمان عن رأسه عمامته ، وقال : « يا أمير المؤمنين ، أترى لؤماً ؟ » قال : « لا ، بل أرى كرماً وخيراً . ما ذاك ؟ » ، قال : « زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائمنا » ، قال : « أوفعل ؟ » قال : « نعم » ، قال : « لك لسانه »[2] ، وأمر بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانه .

أسرع الأخطل إلى يزيد ، وقد أخذ الخوف منه كل مأخذ ، فقال : « هذا الذى كنت أخاف » ، فقال يزيد : « لا تخف شيئاً » ، ودخل على أبيه ، فقال : « علام أرسل إلى هذا الرجل وهو يرمى من وراء جمرتنا » ؟ » فقال معاوية : « هجا الأنصار » . فشرح يزيد لأبيه الموقف ، وألح عليه فى طلب العفو عن الأخطل ، ولم يكن معاوية ليرفض لابنه يزيد شفاعة ، فعفا عن الأخطل ، وأرضى النعمان وقومه ، وأفلت شاعر تغلب الناشئ من قبضة النعمان ، واعتد يزيد بفضله ، فقال :

دعا الأخطلُ الملهوفُ بالشر دعوةً ... فأىَّ مجيب كنتُ لمّا دعانيا
ففرَّج عنه مشهدَ القوم مشهدى ... وألسنةَ الواشين عنه لسانيا[3]

هكذا بدأت صلة الأخطل بالأمويين . لم يكن هو الساعى بنفسه إليهم ، بل كانوا هم الذين سعوا إليه . ولم يطلبوه ليمدحهم ويتغنى بفضلهم ، بل طلبوه ليهجو أعداءهم . ولم يلق فى بدء هذا الاتصال خيراً وأمناً وطمأنينة ، بل لقى فيه الشر والقلق والخوف .

كان لهذه الحادثة أثر كبير فى تكييف صلة الأخطل بمعاوية بن أبى سفيان ، فقد فكر معاوية بعدها فى أن يأخذ البيعة ليزيد بولاية العهد . وكان يعلق أكبر

---

(١) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ١٤ ص ١١٥ و ١٢٠ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ١٣ ص ١٤٢ ؛ جـ ١٤ ص ١١٨ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ١٣ ص ١٤٨ .

الآمال على مبايعة أهل الحجاز . وكانت المدينة ، عاصمة الخلافة الأولى ، من أخطر مراكز المعارضة ، وكان الأنصار فيها قوة لها خطرها ومكانتها . فلم يكن من السياسة أن يسمح معاوية بظهور الأخطل فى البلاط ، وهم يعلمون أن يزيد ابنه هو الذى حرضه على هجائهم ، ثم أجاره وحماه حين طالب النعمان بقطع لسانه . وأشيع أن معاوية نفسه هو الذى دس إلى كعب بذلك ، فدله كعب على الأخطل ، وأن الأنصار لما استعدوا عليه معاوية ، قال : « لكم لسانه إلا أن يكون ابنى يزيد قد أجاره » ، وأن معاوية دس إلى يزيد ، فقال : « إنى قلت للقوم كيت وكيت فأجره » ، فأجاره[1] . فلو سمح معاوية للأخطل بعد ذلك بالظهور فى البلاط ، لجازف بالقضية التى كان يسعى إلى تحقيقها ، إذ لن يثور الأنصار حينئذ على الأخطل وحده ، بل سيثورون عليه وعلى معاوية ويزيد . فلا غرو أن يقفل معاوية دون الأخطل بابه ، وأن يسد عليه الطريق فى أن يحتل مكانه بين الشعراء الوافدين عليه فى دمشق .

ولكن ذلك لم يقف حائلا دون الأخطل ويزيد بن معاوية ، ففتح له يزيد بعد ذلك صدره ، وأغدق عليه من بره وعطفه ، واتخذ منه شاعراً ونديماً . وكان يزيد أحب ولد معاوية إليه وآثرهم عنده . عنى بتثقيفه وتعليمه ، فحفظ الأشعار ، ولقن الأخبار ، وروى الأحاديث . ولكنه لم يستطع أن يخرجه على غراره فى الحلم والدهاء ، فخرج على غير ما أراد ، سريعاً إلى التأثر والاندفاع ، متكالباً على الملذات والشهوات . وأطمعه بحبه له وحدبه عليه ، فتهاون فى الأخذ بتقاليد الإسلام، وخرج عما ألفته الجماعة ، وتكلف الشذوذ والتفرد فى أعماله . كان يترك بعض الصلوات فى بعض الأوقات ويميتها فى غالب الأوقات[2] ، ويشرب الخمر ويحب المنادمة على الشراب[3] ، ويعزف بالطنابير ويضرب عنده القيان[4] ، ويخرج إلى الصيد مستصحباً معه الغلمان والقيان والكلاب ، ويسابق بين الخيل ويناطح

---

(١) نفس المصدر ، ج ١٣ ص ١٤٧ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٨ ص ٢٣٠ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ص ٩٤ .

(٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ص ٣٦٨ .

بين الكباش والدباب[1] ، ويقتنى القرود ويلبسها القلانس المذهبة[2] ، ويجاهر بهذا كله فى غير تحرج أو استبقاء ، مما أثار عليه السخط والإنكار ، وأفسح السبيل لخصومه وأعدائه فى أن ينالوا منه نيلا شديداً .

ولعل بعض خلائقه هذه ترجع إلى نشأته الأولى فى البادية ، فقد عاش فى صباه عيشة بدوية بين أخواله من قبيلة كلب اليمنية ، فشب على ما عودوه من حياة البداوة وما تبيحه من صيد ولهو وشراب . وكان معاوية يحاول أن يكبح جماح إسرافه ، فيشتد عليه حيناً ، ويرفق به أحياناً . فلما أراد أن يأخذ له البيعة بولاية العهد ، اشتد عليه فى ترك ما ينقم الناس عليه ، وما زال به حتى كف عن كثير مما يصنع[3] ؛ كف عن المجاهرة به ، وإن لم يكف عن الاستمرار فيه ، متستراً متخفياً عن عيون الرقباء . فلما ولى الخلافة ، تنفس الصعداء ، وعاد سيرته الأولى فى المجاهرة بما اعتاد عليه من لهو وعبث ، حتى قال عنه وفد الأنصار : « إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين ؛ يشرب الخمر ، ويعزف بالطنابير ، ويضرب عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخراب والفتيان »[4] . وروى أبو الفرج أنه أول من سن الملاهى فى الإسلام من الخلفاء ، وآوى المغنين ، وأظهر الفتك ، وشرب الخمر ، وأنه كان ينادم عليها الأخطل وسرجون مولاه[5] . وقال الفخرى إنه كان موفر الرغبة فى اللهو والقنص والخمر والنساء والشعر . كما كان فصيحاً كريماً شاعراً مفلقاً[6] .

اتصل الأخطل بيزيد أميراً فى خلافة أبيه ، ثم خليفة من بعده ، فكان ينادمه على الشراب ، ويحضر مجالسه الخاصة فى اللهو والغناء ، ويقارضه الشعر ويطارحه الأحاديث والأخبار[7] . وكانا يتفقان فى السن والنشأة ، ويتقاربان فى الميول

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٨ ص ٢٣٥ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ص ٩٤ .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ص ٢٢٥ .

(٤) نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٣٦٨ .

(٥) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ١٦ ص ٦٨

(٦) ابن الطقطقى : الفخرى ، ص ٨٤ .

(٧) يروى أبو الفرج أن يزيد صحب الأخطل ، عام حج ، فاشتاق يزيد أهله ، وقال شعراً أجازه الأخطل (الأغانى ، جـ ٨ ص ٣٠١) . ولا نظن الجرأة تبلغ بيزيد أن يفعل هذا بعد هجاء الأخطل للأنصار .

والطباع . كانا يتقاربان سناً ؛ إذ ولد الأخطل نحو سنة عشرين ، وولد يزيد سنة خمس وعشرين[1] . وكانا يتماثلان نشأة ؛ إذ شب الأخطل وترعرع فى قبيلة تغلب بين قومه فى بوادى الجزيرة ، ونشأ يزيد وتربى فى قبيلة كلب بين أخواله فى بوادى الشام . وكانا يتفقان فى الكلف بحياة البادية ؛ تظلهما سماؤها ، ويتنفسان جوها ، ويتطبعان بطباع أهلها ، من حب للحرية ، وكلف بالصراحة ، وميل إلى الطلاقة والبساطة . وكانا يتشابهان سرعة فى التأثر وحدة فى المزاج ؛ فكان الأخطل سريعاً إلى الغضب يؤذى الناس بلسانه فى غير مبالاة ، وكان يزيد لا يقل عنه حدة واندفاعاً فى غير ما تعقل أو اتزان . وكانا يتشاكلان حفظاً للشعر وممارسة للقريض ؛ إذ نطق الأخطل بالشعر فى سن مبكرة ، وروى لغيره من الشعراء ، وأخذ يمارس فن الهجاء ، وكلف يزيد بالشعر منذ الصغر ، يحفظه ويرويه ويمارس فنونه ، حتى قال البعض فيه : « بدئ الشعر بملك وختم بملك ، إشارة إلى امرئ القيس وإليه »[2] . وكانا يتدانيان كلفاً بالخمر وتغنياً بوصفها ؛ إذ أقبل الأخطل على شربها وحضور مجالسها وارتياد حوانيتها ، لم يقل عنه يزيد إقبالا عليها وشغفاً بها ومجاهرة بشربها وتغنياً بوصفها[3] . فلا غرو ، وقد اتفق الأخطل ويزيد فى هذا كله ، أن يكون لهذا الاتفاق أثر بعيد فى توثيق الصلة بينهما[4] .

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٣ ص ٣١٠ .

(٢) ابن الطقطقى : الفخرى ، ص ٨٤ .

(٣) لم يتحرج يزيد عن أن ينشد الحسين بن على ، عام حج فى خلافة أبيه :

ألا ياصاح للعجب   دعوتك ثم لم تجب
إلى القينات واللذا   ت والصهباء والطرب
وباطية مكللة   عليها سادة العرب
وفيهن التى تبلت   فؤادك ثم لم تتب

(أبوالفرج : الأغانى ، ج ١٤ ص ٦٠ و ٦١) .

(٤) صور المعرى هذه الصلة بلسان الأخطل ، فقال : « آه على أيام يزيد ! أسوف عنده عنبراً ، ولا أعلم لديه سيسنبرا ، وأمزج معه مزج خليل ، فيحتملنى احتمال الجليل . وكم أبتني من موشى ، أسحبه فى البكرة أو العشى . وكأنى بالقيان الصادحة بين يديه تغنيه بقوله :

ولها بالماطرون إذا   أنفد النمل الذى جمعا
خلفة حتى إذا ظهرت   سكنت من جلق بيعا
فى قباب حول دسكرة   حولها الزيتون قد ينعا
وقلت البدر ترقبه   فإذا بالبدر قد طلعا

على أن أخبار هذه الصلة بلغت من القلة حداً يصعب معه على الباحث أن يخرج بصورة مفصلة عن دقائق العلاقة التي قامت بينهما . ولعل من أسباب قلة هذه الأخبار أن الأخطل ، منذ تهدده معاوية بقطع لسانه ، كان خائفاً وجلا من العودة إلى الشام ، ولعل من أسباب ذلك أيضاً أن يزيد ، منذ أخذت له البيعة بولاية العهد ، كان يحاول الظهور بمظهر الاعتدال والتوقر ، حتى لا يتيح الفرصة للمعارضين فى أن ينالوا منه ، وأن أخبار حياته الخاصة أصبحت من الممنوعات التى يحرص معاوية على أن تبقى طى الكتمان حتى لا تلوكها الألسن . ولعل من أسباب ذلك أيضاً أن يزيد ، حين تولى الخلافة ، لم يسمح للأخطل بالظهور فى البلاط ، حتى لا يثير بظهوره ثائرة الأنصار ، وإن سمح بأن يشاركه حياته الخاصة . ولعل من أسباب ذلك أخيراً أن خلافة يزيد كانت قصيرة فلم تمتد أكثر من ثلاثة أعوام وبعض عام .

أيا ما كان الأمر فبين يدينا شعر للأخطل فى يزيد نستطيع على ضوئه أن نستهدى فى تصوير الصلة التى قامت بينهما . وقد حفظ لنا ديوانه أربع قصائد فى مدحه ، ومقطوعتين إحداهما غامضة والأخرى فى رثائه ، هذا إلى مقطوعة يشفع فيها عنده لعبيد الله بن زياد والى العراق[1] .

ويغلب على الظن أن أولى القصائد الأربع فى يزيد هى قصيدته النونية :

ألا يا اسلما على التقادم والبِلَى ... بدَومة خَبْت أيها الطللان[2]

يدعو فيها يزيد (ابن الإمام) :

فلولا يزيدُ ابن الإمام أصابنى ... قـوارعُ يجنيهـا علىّ لسانى
(ص٢٣٦ب٢٧)

مما يدل على أنه قالها فى خلافة معاوية .

ويمزج فيها الغزل بالهجاء :

= ولقد فاكهته فى بعض الأيام ، وأنا سكران ملتخ ، فقلت :

اسلم سلمت أبا خالد ... وحياك ربك بالعنقز
أكلت الدجاج فأفنيتها ... فهل فى الخنانيص من مغمز

فما زادنى عن ابتسام ، واهتز للصلة اهتزاز الحسام » . (رسالة الغفران ص ٢٦٥ — ٢٦٧) .

(١) شعر الأخطل ، ص ٢٣٢ و ٩٠ و ١١٢ و ١٤٦ و ٣١١ و ٢٨٩ و ٢٩٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٣٢ .

وكيف يداويني الطبيبُ من الجوى   وبَرّةُ عند الأعور بن بنان
أتجعل بطناً مُنْتِن الريح مقفرًا   على بطن خَوْد دائم الخفقان
(ص ٢٣٣ ب ٣ و ٤)

مما يرجح قولها فى أعقاب حادثة الأنصار وهو قريب عهد بالسفاهة وسلاطة اللسان وبالنزعة الشديدة إلى الهجاء .

ويذكر فيها حلبة للسبق أجرى فيها يزيد أفراساً له كريمة ، ويصف هذا السباق الذى نمت إليه أخباره ، وهو قائم بالأزاغب :

أتانى وأهلى بالأزاغب أنه   تتابع من آل الصريح ثمانى
(ص ٢٠٦ ب ٣٤)

مما يدل على أنه قالها وهو قائم بين أهله فى الجزيرة .

ولا يتناول فيها حادثة الأنصار بالتصريح أو التفصيل ، وإنما هى إشارة عابرة إلى هذه القوارع التى يجنيها عليه لسانه ، وإلى هذا النذير الذى بعث به إليه يزيد ، وقسم يقرر به الامتناع عن القدوم إلى الشام حتى يمضى الحرمان :

فلولا يزيد ابنُ الإمام أصابنى   قوارعُ يجنيها علىَّ لسانى
ولم يأتنى فى الصحف إلا نذيركم   ولو شئتمُ أرسلتمُ بأمانى
فأقسمت لا آتى نَصيبِينَ طائعاً   ولا السجنَ حتى يمضىَ الحرمان
(ص ٢٣٦ ب ٢٧ - ٢٩)

وهذا الخوف من القدوم إلى الشام ، وهذا التوجس من التصريح بحادثة الأنصار ، وهذا النذير الذى وافته به الصحف ، وهذا السجن الذى ينتظره ، يرجح أنه قالها فى أعقاب حادثة الأنصار ، وتهديد معاوية لا يزال يطن بأذنه ، وذكرى هذا البلاء الشديد لا تزال ملحة على قلبه وحسه .

ثم هى أقل قصائده فى يزيد جودة ، فبناؤها لا يسلم من القلق والاضطراب ، وصورها لا تخلو من الغموض والابتسار ، والمقاطع فيها مختلطة محتشدة ، مما يتفق وما يمكن أن يكون عليه الأخطل فى ذلك الوقت من قلق وتعثر وميل إلى التقليد والمحاكاة .

ثم يلى ذلك ، فيما نرجح ، قصيدته الرائية :

تغير الرسم من سلمى بأحفار ... وأقفرت من سُليمى دمنةُ الدار[١]

يقول أبو الفرج إن الأخطل مدح بها يزيد بن معاوية لما منع من قطع لسانه حين هجا الأنصار[٢] . ويقول جامع الديوان إن الأخطل مدح بها عبد الملك بن مروان[٣] . وليس فيها مع ذلك إشارة إلى هذا أو إلى ذاك . والذى يترجح عندنا أنها فى يزيد ، فالأخطل يمدح فيها بنى حرب ، أى بنى سفيان ، ويشير إلى إنقاذهم له من براثن النعمان :

لألجأتْنى قريش خائفاً وجِلا ... وموَّلتْنى قريش بعد إقتار

المنعمون بنو حرب وقد حَدَقت ... بىَ المنيَّةُ واستبطأْتُ أنصارى

بهم تكشَّف عن أحيائها ظُلَمٌ ... حتى تَرَفَّعَ عن سمع وأبصار

قوم إذا حاربوا شدُّوا مآزرهم ... دون النساء ولو باتت بأطهار

(ص١١٩ و ١٢٠ ب ٤٦ – ٤٩)

وفى النص على بنى حرب دليل على أنه يمدح بها واحداً من آل سفيان لا من آل مروان ، ولعله مدح فيها يزيد بأبيات أخرى أتى عليها الضياع .

والفن فيها أنضج منه فى القصيدة السابقة ؛ فالنفس فى مقاطعها أطول ، والتصوير أدق وأجمل ، والبناء أمتن وأنسق . وبعض السر فى هذا أنه يتكئ فيها اتكاء شديداً على النابغة الذبيانى . ويكفى أن نقابل بينها وبين رائية النابغة :

عوجوا فحيّوا لنُعْمٍ دِمْنَةَ الدار ... ماذا تحيون من نُؤْى وأحجار[٤]

لنرى تأثره بالشاعر الجاهلى ممثلا أوضح تمثيل . فكلتا القصيدتين على روى واحد ومن بحر واحد ، وبعض الصور والألفاظ تكاد تكون واحدة فى مشهد الثور ، مما يرجح أنه قالها قبل أن يستقل بطابعه فى تأثره بالجاهليين .

---

(١) شعر الأخطل ، ص ١١٢ .

(٢) أبو الفرج : الأغانى ، ج ١٣ ص ١٤١ .

(٣) شعر الأخطل ، ص ١٥٣ .

(٤) القرشى : جمهرة أشعار العرب ، ص ٧٧ .

يلى ذلك ، فيما نرجح ، قصيدته الدالية :

صحا القلبُ إلّا من ظعائنَ فاتنى   بهنّ أميرٌ مستبدّ فأصعدا[1]

يهنئ فيها يزيد بولاية العهد :

فأصبحتَ مولاها من الناس بعده   وأحْرَى قريش أن يُهاب ويُحمَدا

(ص ٩٥ ب ٢٩)

مما يدل على أنه قالها ويزيد ولى للعهد .

والأخطل فيها لا يزال على ذكر من هذا اليوم العصيب الذى كاد يقطع فيه لسانه ، فيصوره تصويراً دقيقاً يبين عن شدة وقعه فى نفسه ، ويتخذ منه مادة غنية بالصور فى مدح يزيد وشكره ؛ فيذكر تهديد معاوية واستدعاءه ، وبكاء امرأته لمصابه ، وسعى يزيد لإنقاذه ، ويصور ما كان بين الخليفة ويزيد فى شأنه ، فإذا الخليفة قوى باطش لا تؤمن غضبته ، وإذا يزيد مقبل عليه يحاوره ويداوره ؛ لا يرى التشدد والإصرار على معاقبته ، حتى يلين القول ويرخى ، ولا يلمح فى وجهه القبول والرضى ، حتى يلح فى طلب العفو عنه ، وما يزال به حتى يقبل شفاعته ، وينقذ الأخطل من بطشه :

وإنّى غداةَ استعبرتْ أمُّ مالك   لَراضٍ من السلطان أن يتهددا

ولولا يزيدُ ابنُ الملوك وسعيُه   تجللتُ حِدْباراً من الشر أنكدا

وكم أنقذتْنى من جَرور حبالُكم   وخرساءَ لو يُرْمى بها الفيلُ بَلّدا

ودافع عنى يوم جِلّقَ غمرةً   وهمّاً ينسّينى السُّلافَ المهوّدا

وبات نجيّاً فى دمشقَ لحيّة   إذا عضّ لم يَنم السّليم وأقصدا

يخفّته طوراً وطوراً إذا رأى   من الوجه إقبالا ألحّ وأجهدا

أبا خالدٍ دافعتَ عنى عظيمةً   وأدركتَ لحمى قبل أن يتبددا

(ص ٩٣ و ٩٤ ب ١٣ – ١٩)

---

(١) شعر الأخطل ، ص ٩٠ .

ثم يلتفت إلى النعمان ، هذا الذى سعى به إلى معاوية وطالب بقطع لسانه ، فإذا يزيد يفسد عليه تدبيره ، ويطفئ عنه نار كيده ؛ وإذا النعمان يتراجع فى تهديده ، فيرضخ لمعاوية ويتوقف عن إيذائه :

وأطفأتَ عنى نارَ نُعمانَ بعدما   أغذَّ لأمرٍ عاجزٍ وتجـرّدا
ولما رأى النعمان دونى ابنَ حُرَّة   طوى الكشحَ إذ لم يستطعنى وعرّدا
ولاقى امرأً لا يَنْقُضُ القومُ عهدَه   أمرَّ القوى دون الوشاة وأحصدا

(ص ٩٤ ب ٢٠ — ٢٢)

وقبل أن ينتقل إلى تهنئة يزيد بولاية العهد ، ينوه بعظمة أبيه معاوية ، فيصوره قوى الشخصية، تعجم عوده الأحداث، فإذا هو أصلب قريش عوداً ، ويخبر الناس أخلاقه، فإذا هو أكثرهم عفة ووفاء ، وأشدهم عزماً وحزماً فى حسم الخلاف :

وما وجدت فيها قريش لأمرها   أعفَّ وأوفى من أبيك وأمجدا
وأصلبَ عودًا حين ضاقت أمورهم   وهمّت معدّ أن تخيم وتخمُدا
وأورى بزنديه ولو كان غيرُه   غداةَ اختلاف الأمر أكبى وأصلدا

(ص ٩٥ ب ٢٦ — ٢٨)

ثم يهنئ يزيد بالمكانة الممتازة التى صار إليها ، ويشيد بقدرته على تحمل أعبائها ، ويصف بلاءه فى الحرب ورميه بالكتائب ، ويصور بطشه وانتقامه فى غضبه ووعيده ، ويتغنى بكرمه وجوده ، ويحتفل بتفخيمه ، لكأنما يريد بذلك أن يقرر جدارته بما هيئ له من ملك وجاه .

والقصيدة أنضج فنًّا من سابقتيها فى باب المديح ، والمرجح أنه قالها بعد أن ارتقى من التكوين الفنى خطوات واستقل بطابعه فى هذا الباب .

يلى ذلك ، فيما نرجح ، قصيدته الدالية :

بانت سعاد ففى العينين تسهيد   واستحقبت لُبَّه فالقلب معمود[1]

---

(١) شعر الأخطل ، ص ١٤٦ .

يذكر فيها الشيب الذى ألم برأسه ، والكبر الذى دلف إلى جسمه ، ويتسخط إعراض النساء عنه وإنكارهن لشيبه وعلو سنه ، ويتغنى بالشباب متحسراً على فقده ، ويندد بالمشيب شاكياً أثره ، فى أبيات لا نستطيع أن ننكر ما فيها من حزن على فقد شبابه :

إمّا ترَيْنى حنانى الشَّيْبُ من كِبَرٍ	كالنَّسر أرجف والإنسانُ مهدودُ
وقد يكون الصِّبَى منّى بمنزلةٍ	يوماً وتَقْتادنى الهِيفُ الرعاديد
يا قَلَّ خيرُ الغوانى كيف رُغن به	فشُرْبُه وَشَل فيهنَّ تَصْريد
أَعْرَضْنَ من شَمَطٍ فى الرأس لاح به	فهنَّ منه إذا أبصرْنَه حِيد
قد كنَّ يعهدن منِّى مَضْحكاً حسناً	ومَفْرِقاً حَسَرتْ عنه العناقيد
فهن يشدُونَ منى بعضَ معرفة	وهنَّ بالودّ لا بُخْل ولا جود
قد كان عهدى جديدًا فاستُبِدَّ به	والعهدُ متَّبعٌ ما فيه منشود
يَقلن لا أنت بعل يُستقاد له	ولا الشبابُ الذى قد فات مردود
هل الشباب الذى قد فات مردود	أم هل دواءٌ يردّ الشَّيبَ موجود
لن يرجع الشَّيب شباناً ولن يجدوا	عِدْلَ الشباب لهم ما أورق العود
إن الشباب لمحمودٌ بشاشتُه	والشَّيبُ منصرَف عنه ومصدود

(ص ١٤٦ و١٤٧ب ٤ — ١٤)

وهذه أول نغمة من نوعها نسمعها له فى شعره ، مما يرجح أنه قالها فى خلافة يزيد بعد أن تجاوز الأربعين .

والأخطل فيها لا يزال على ذكر من شفاعة يزيد ، فيشكره شكراً يبين عن عمق شعوره بجميله ، ويطلب من الله أن يحسن جزاءه على مناصرته حين كان وحيداً مشرداً :

أمّا يزيدُ فإنى لست ناسيَهُ	حتى يغيِّبنى فى الرَّمس ملحودُ

جزاك ربُّك عن مستفرَد وَحَد نفاه عن أهله جُرمٌ وتشريد
مستشرف قد رماه الناس كلهمُ كأنه من سَمُوم الصيف سفوّد
جزاء يوسفَ إحساناً ومغفرةً أو مثلَ ما جُزِىَ هارون وداود
أو مثلَ ما نال نوح فى سفينته إذِ استجاب لنوح وهو منجود
(ص١٧٤ ب ١٥ - ١٩)

وكأنما رأى أنه فصل القول فى حادثة الأنصار فى داليته السابقة ؛ فاكتفى هنا بالإشارة إليها ولم يطل .

وقد يضاف إلى هذه القصائد الأربع مقطوعة يشفع بها عند يزيد لعبيد الله ابن زياد والى العراق .

يدعو يزيد فى مطلعها (أمير المؤمنين) :

أبلغْ أميرَ المؤمنين رسالةً جزاء بنُعمى قبلها ووسِيلِ[1]

مما يدل على أنه قالها فى خلافة يزيد .

ويذكر فضل عبيد الله فى إخماد الفتن التى أثارها الشيعة بالعراق ؛ فهو الذى بطش بهانئ بن عروة ، وهو الذى نكل بمسلم بن عقيل ، وهو الذى أنقذ الخلافة من خطر الحسين بن على :

ولم يكُ عن يوم ابن عُرْوَةَ غائباً كما لم يغب عن ليلة ابن عقيل
وأطرقَ عنكم حيةً لو تمكنت من الأرض كانت حيةً بغليل
(ص ٢٩٣ ب ٤ و ٧)

وهذا يعنى أنه قالها فى خلافة يزيد بعد هذه الأحداث .

ونراه فيها يبلغ من المكانة عند يزيد حدًّا يستطيع معه أن يشفع لرجل من رجال الدولة ، وأن تقبل فيه شفاعته .

وتهيأ للأخطل بفضل صلته بيزيد أن يتصل بعاملين آخرين من عماله هما : عباد بن زياد والى سجستان ، وسلم بن زياد والى خراسان . فمدح عباداً ببائيته :

خليلىّ قوما للرحيــل فإننى وجدت بنى الصَّمْعاء غير قَريب[2]

---

(١) شعر الأخطل ، ص ٢٩٣ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٧٨ .

ومدح سلماً بقافيته :

ياميُّ هلاَّ يجازَى بعضُن ودكمُ أمْ لا يُفادَىَ أسيرٌ عندكم غَلِقُ[1]

وفيهما ينسب عباداً وأخاه لأبى سفيان ، توكيداً لما فعل معاوية من إلحاق زياد ، وإقراراً له فى أذهان الناس .

فيقول فى عباد :

إليك أبا حرب تدافعن بعدما وصلن لشمس مطلعاً بغروب
(ص ١٨٠ ب ١٣)

ولولا أبو حرب وفضلُ نوالِه علينـــا ، أتانا دهرُنا بخطوب
(ص ١٨١ ب ١٩)

ويقول فى سلم :

نفسى فداء أبى حرب غداةَ غدا مُخالطُ الجنّ أو مستوحشٌ فَرِق
(ص ٢٦٠ ب ١٤)

فكان بذلك داعياً سياسيًّا يقرر موقف الدولة من بعض رجالها .

وثمة أبيات يذهب الديوان إلى أنه قالها فى يزيد :

إن تكُ عَبْس وَلَدَتْ وليدا وولدت كلبـــاً بنو يزيدا
فقـــد ولدنا ماجدًا حميدا أغـــر تُهْراق يداه جودا
رُكّب فى خير قريش عودا بَحْرًا به الطاقةُ أن يسودا[2]

وفيها إشكال وغموض . فمن الوليد الذى ولدته عبس ؟ أهو الوليد بن عبد الملك ، أم وليد آخر ؟ ثم من بنو يزيد ؟ ومن الكلب الذى ولدوه ؟ ومن الذين ولدوا الماجد الحميد ؟ ومن هذا المولود ؟

ومن ثم لا يسعنا إلا أن نتوقف فى أمرها ، حتى يستبين لنا أو لغيرنا ما يوضحها .

وأخيراً مقطوعته الرائية فى رثاء يزيد :

---

(١) شعر الأخطل ، ص ٢٥٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣١١ .

لعمرى لقد دلَّى إلى اللَّحد خالدٌ جِنازةَ لا كابِى الزِّنادِ ولا غُمْرِ[١]

وقد مات يزيد لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ[٢] ، ومن ثم يسهل تأريخها بعد هذا التاريخ .

وبها يختم الأخطل صلته بيزيد ، فإذا هو باك على موته ، متحسر على فقده ، يدعو لقبره بالسقيا ، ويفتقد بفقده الكرم والسؤدد وعراقة المنبت ، وإذا ابنه خالد يشارك فى دفنه ، وزوجه فاختة تندبه وتبكيه ، والموالى يشاركنها فى البكاء ، والنساء يقدمن لها العزاء :

لعمرى لقد دلَّى إلى اللحد خالدٌ جِنازةَ لا كابى الزناد ولا غُمْرِ

مقيمٌ بحوّارِينَ ليس يريمُها سقته الغوادى من ثوىٌّ ومن قبر

تصبح الموالى أن رأَوْا أمَّ خالد مسلّبةً تبكى على الماجد الغَمر

إذا جاء سِرْب من نساء يَعُدْنَها تعرّين إلا من جلابيبَ أوخمر

وديوانه على ضخامته ليس فيه من الرثاء غير هذه الأبيات ؛ لكأنما لم يهزه موت أحد من ولده وأهله وصحبه ورجال عصره مثل ما هزه موت يزيد[٣] .

* * *

وإذا قارنا شعر الأخطل فى يزيد ، بشعره فى أخيه عبد الله ، خرجنا بصورة أكثر تفصيلا عن طبيعة علاقته بالأخوين .

---

(١) شعر الأخطل ، ص ٢٨٩ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ، ص ٣٨٣ .

(٣) أحصى الدكتور محمد حسين شعر الأخطل فى يزيد ، فقال : « وكل ما نجد أربع قصائد فى مدح يزيد ، اثنتان منهما قبيل وفاة معاوية ، وهما اللتان قدمناهما :

صحا القلب إلا من ظعائن فاتنى بهن أمير مستبد فأصعدا

و ألا يا اسلما على التقادم والبلى بلومة خبت أيها الطللان

واثنتان بعد وفاته وهما :

بانت سعاد ففى العينين تسهيد واستحقبت لبه فالقلب معمود

و حلت ضبيرة أمواه العداة وقد كانت تحل وأدنى دارها ثكد »

(الهجاء والهجاءون فى صدر الإسلام ، ص ٦١ و ٦٢) .

فأسقط بذلك سائر شعره فى يزيد ، وأضاف إليه داليته « ثكد » ، وهى فى عبد الله بن معاوية ، كما سنرى بعد قليل .

كان عبد الله بن معاوية على خلاف يزيد ، من أضعف الناس قعدة وأحمقهم ، حتى لقبه الناس بالمبقَّت ، ومعناه الأحمق المخلط العقل . قال له معاوية يوماً : « سلنى حوائجك » ، فقال : « عبيد يمشون معى ويحفظوننى »[1] . وقال له فى مناسبة أخرى : « إنه قد بدا لى أن أعطيك كل ما تسألنى فى مجلسى هذا » ، فقال : « حاجتى أن تشترى لى كلباً فارهاً وحماراً فارهاً » ، فقال : « يا بنى ، أنت حمار وتشترى لك حماراً ، قم فاخرج »[2] . ومر يوماً بطحان قد شد بغله فى الرحى وجعل فى عنقه جلاجل ، فقال : « لم جعلت فى عنق بغلك هذه الجلاجل ؟ » ، فقال : « جعلتها فى عنقه لأعلم أن قد قام فلم تدر الرحى » ، فقال : « أرأيت إن هو قام وحرك رأسه ، كيف تعلم أنه لا يدير الرحى ؟ » ، فقال : « إن بغلى هذا ، أصلح الله الأمير ، ليس له عقل مثل عقل الأمير »[3]. فعبد الله كان شخصية ضعيفة لا تملك من حميد الخصال ، ما يشجع شاعراً كالأخطل على أن يطيل بها اتصاله .

والواقع أن الأخطل لم يمدح عبد الله بغير قصيدتين ، قال أولاهما فى خلافة معاوية ، والأخرى بعد انتقال الخلافة إلى البيت المروانى .

فى القصيدة الأولى ، وهى الرائية :

صَدَع الخليطُ فشاقنى أجوارى ونـأْوك بعد تقارب ومزارِ[4]

يدعو عبد الله (ابن الخليفة) :

لأُحبِّرَنْ لابن الخليفة مِدْحةً ولأَقذفنَّ بها إلى الأَمصار

(ص ٧٨ ب ١٤)

من مَعْشر حَنِقين لولا أنتمُ يابنَ الخليفة ما شَدَدْتُ إزارى

(ص ٨١ ب ٣٩)

وهذا يدل على أنه قالها فى خلافة معاوية .

---

(١) شعر الأخطل ، ص ١٨ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٨ ص ٢٢٧ .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ص ٣٤٣ .

(٤) شعر الأخطل ، ص ٧٦ .

ويذكر لقاءه بالجد عبد الله :

لولا فواضلُه غداةَ لقيتُه بالجدِّ شاب مسايِحى وعِذارى
(ص ٨١ ب ٣٨)

والجد ماء بالجزيرة[1] ؛ فلعل عبد الله نزل بديار قومه ، فأطمعه بمقدمه ومدحه بها .

والقصيدة من حيث الفن الشعرى تعد من جيد شعره ؛ فديباجته واضحة مشرقة ، ونفسه فى المدح طويل ، وألفاظه منتخلة منتقاة ، مما يرجح أنه قالها بعد أن تولى يزيد عهد أبيه ، وبعد أن قطع شوطاً ليس بالقليل فى مدارسة الشعر وممارسته ، ولعله قالها بعد داليته « فأصعدا » التى هنأ بها يزيد بولاية العهد[2] .

ولكن هناك فرقاً كبيراً بينها وبين تلك الدالية فى العناية بشخصية الممدوح . فشخصية يزيد فى الدالية بارزة واضحة ، يحتفل بتفخيمها وتفصيل جوانبها ، وشخصية عبد الله فى الرائية باهتة تافهة ، ، يمر عليها مروراً سريعاً ، ليصب اهتمامه على الأمويين عامة ومعاوية خاصة ، حتى ليكاد ينسى أن القصيدة فى مدح عبد الله .

ويبدو فى مدح الأمويين داعياً سياسيًّا ؛ فيشيد بخلالهم التى أهلتهم للملك وأظفرتهم بالسلطان :

قَرْم تمهَّل فى أميَّةَ لم يكن فيها بذى أُبَن ولا خوّارِ
بُنيتْ قناتك منهمُ فى أسرة بيضِ الوجوهِ مَصالتٍ أخيار
جُهَراءُ للمعروف حين تراهمُ حلمـاءُ غيرُ تنابلٍ أشرار
قومٌ إذا بسط الإلهُ ربيعَهم دارت رحاه بمسْبل درّار
وإذا أُريدَ بهم عقوبةُ فاجر مطرت صواعقُهم عليه بنار
قوم همُ نالوا التمام وأزحفتْ عنه مذارعُ آخرين قِصار
(ص ٧٨ ب ١٥ – ٢٠)

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٩ .

(٢) شعرالأخطل ، ص ٩٠ .

كما يبدو داعياً سياسيًّا فى مدح معاوية ؛ فينوه بنضاله فى صفين وانتصاره على أعدائه ، ويعدد خصاله التى أهلته للخلافة وجعلته مهيباً فى الناس :

وأبوك صاحب يومِ أذْرُحَ إذ أبَى ... الحكمانِ غيرَ تهايُبٍ وضِرارِ
لما تُبحِثت الضغائن بينهم ... أفضَى وسار بجَحْفل جرار
وأهلَّ إذ غَنِظ العدوُّ بفَيْلقٍ ... تحت الأشاء عريضةِ الآثار
حتى رأوه بجنب مَسْكِنَ مُعْلما ... والخيلُ جاذِبَة على الأقتار
ولقد تناولتِ القُعورَ بضربة ... وبنِى أبى بكر ذوى الأصهار
ورجال عبد القيس تحت نحورها ... كانوا لها جَزَرًا من الأجزار
وعلى خُزَاعةَ والسّكونِ تعطفتْ ... وأصابهم ظُفْر من الأظفار
والخيلُ تَمشُق عنهمُ أسلابَهم ... فى كل معترك وكل مُغار
حتى إذا علم الإلهُ نَكالَه ... وتصاغروا للحرب أىَّ صَغار
حقن الدماء ورَدَّ ألفتهم لهم ... وجزاهمُ بالعُرف والإنكار
شُدَّت رحائل خيلِه وتكشَّفتْ ... عنه الحروبُ بفارس مغوار
بأغرَّ ما وَلد النساءُ شبيهَه ... أحدًا عَلِقن به على الأطهار
تسمو العيونُ إلى عزيزٍ بابُه ... معطَى المهابةِ نافعٍ ضرَّار
وترى عليه إذا العيون شزرْنه ... سِيما الحليمِ وهيبةَ الجبَّار

(ص٧٩و٨٠ ب ٢١ – ٣٤)

ثم يتفضل أخيراً على عبد الله بالإشادة والذكر ، فيجعله موطن الأمل والرجاء ، ويستندى كفه للبذل والعطاء .

فالأخطل فى رائيته هذه يهمل شخصية ممدوحه ، ويهتم بتقرير حق الأمويين فى الخلافة ، ويطيل فى مدح معاوية والتنويه بشأنه ، حتى ليخيل إلى القارئ أنه المقصود بالقصيدة لا ابنه عبد الله . ولا يخلو من مغزى ما ذكره البلاذرى بصددها فى حديثه عن عبد الله ؛ قال : « وكان يُمدح ، فيسرّ ذلك أمه ، فتصل

مادحيه ، وتستميح لهم معاوية ، فقال فيه الأخطل فى قصيدته : لأجبرن . . . الأبيات »[1] . فلا بأس على الأخطل ، وقد أعيته الحيلة فى البحث عن خصال يتغنى بها فى عبد الله ، فى أن يحتفل بمدح معاوية والأمويين ، ما دام البذل والعطاء من معاوية ، وأن يتفضل على عبد الله بأبيات ، ما دامت أمه تسر بذلك ، فتصل مادحيه ، وتستميح لهم معاوية .

أما قصيدته الأخرى فى عبد الله ، فهى الدالية :

حَلَّت ضُبَيرةُ أمواهَ العداقِ وقد كانت تَحلُّ وأدنَى دارِها ثكدُ[2]

يذكر فيها (يوم شرطة قيس) ، أى يوم مرج راهط :

ويومَ شُرطةِ قيسٍ إذ مُنيتَ لهم حَنَّتْ مثاكيل من إيقاعكم نُكد
(ص١٧٢ ب ٣٩)

مما يدل على أنه قالها بعد هذا اليوم ؛ أى بعد أن مات يزيد بن معاوية ، وتنازل معاوية بن يزيد ، وانتقلت الخلافة إلى بيت مروان .

وفيها يعلن عن عبقريته الشعرية قوة فى الأداء ، ودقة فى التصوير ، وإدراكاً بعيداً لفن المدح فى الشعر السياسى . وهذا يتفق وما كان عليه فى ظل بنى مروان ، امتلاكاً لناصية القريض ، وتمرساً بسياسة الحزب الأموى .

يستهل مقطع المديح بذكر يزيد ، فيشير إلى إنقاذه من بطش معاوية ، وينوه ببأسه وعراقة منبته وكرمه ، ويعترف بأفضاله عليه ، قبل أن يدخل على مدح عبد الله :

يابنَ القَريعَين لولا أنَّ سيبهمُ قد عمَّنى لم يُجبنى داعياً أحدُ
أنتم تداركتُمونى بعد ما زَلَقتْ نعلى وأحرِج عن أنيابه الأسد
ومن مُوَدَّنة أخرى تداركنى مثلُ الرُّدَينىِّ لا واهٍ ولا أوِد
نِعْم الخئولةُ من كلْبٍ خُئولتُه ونِعْم ما وَلَد الأقوام إذ ولدوا

(١) شعر الأخطل ، ص ٨١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٦٧ .

بازٍ تظلُّ عِتاقُ الطير خاشعةً   منه وتَمتصِع الكِرْوانُ واللُّبَد
تَرى الوفودَ إلى جزْلٍ مواهبُه   إذا ابتَغوه لأمر صالح وجدوا
إذا عثرتُ أتانى من فواضله   سَيْبٌ تُسنَّى به الأغلالُ والعُقَد
(ص١٧١و ١٧٢ ب ٢١ – ٢٧)

وقد يتبادر إلى الذهن أنه أنشأ القصيدة ويزيد على قيد الحياة . على أنه يمنع من ذلك إشارته فى هذا المقطع إلى يوم مرج راهط الذى اقتتل فيه الأمويون ودعاة ابن الزبير ، وهو يوم مشهور وقعت حوادثه بعد موت يزيد . وفى هذا دليل واضح على أن الأخطل كان لا يزال ذاكراً لفضل يزيد ، مقدراً لسعيه فى إنقاذه ، منوهاً بكرمه وجوده ، بعد أن فرق الموت بينهما ، وانقطعت عنه أسبابه . بل إن فيه أبلغ دليل على أن صلته بيزيد لم تكن صلة مادية فحسب ، بل كانت أيضاً صلة الصديق الذى لا ينسى فضل صديقه حياً وميتاً .

ثم ينتقل إلى مدح الأمويين عامة ، فيقرر حقهم الإلهى فى الخلافة ، ويتغنى بما يتحلون به من شارات الرئاسة :

لا يُسْمَع الجهل يجرى فى نديهِمُ   ولا أميّةُ فى أخلاقها الفَنَد
تمَّت جلودهُمُ والله فضّلهم   وجَدُّ قوم سواهم خامل نَكِد
همُ الذين أجاب الله دعوتَهم   لمّا تلاقت نواصى الخيلِ فاجتلدوا
ليسنت تنالُ أكفُّ الناس بسطتَهمْ   وليس يَنقُض مكرُ الناس ما عقدوا
قوم إذا أنعموا كانت فواضلهم   سَيْباً من الله لا منٌّ ولا حسَد
(ص ١٧٢ ب ٢٨ – ٣٢)

ثم يلتفت إلى عبد الله ، فيتفضل عليه بأبيات يتغنى فيها بكرمه ويهز أريحيته للعطاء . ثم يرى أن يزيده مأثرة ، فينوه ببلائه يوم المرج :

ويومَ شُرطةِ قيس إذ مُنِيتَ لهم   حنَّت مَثاكيل من إيقاعكم نُكُد
ظلُّوا وظلَّ سحاب الموت يُمطرهم   حتى تَوجَّه منهم عارض بَرِد
والمشرفيّةُ أشباهُ البروق ، لها   فى كلّ جمجمة أو بَيْضة خُدَد
(ص١٧٣ ب ٣٩ – ٤١)

وما كان عبد الله من البلاء فى شىء ، فالبلاذرى يقول إنه شهد مرج راهط مع الضحاك بن قيس ثم هرب[1] . ومعنى هذا أنه كان جباناً فراراً محارباً لقومه فى صفوف أعدائهم من دعاة ابن الزبير . ولعلها الأخبار التى تصل إلى الأمصار أحياناً مشوهة محرفة ، فلتقف منها الأخطل أنه كان لممدوحه بلاء فى هذا اليوم .

ثم يعود إلى مدح الأمويين ، فيصور بلاءهم فى صفين ، وينوه بعراقة منبتهم فى قريش ، ويعدد خصالهم ومآثرهم التى أعدتهم للخلافة :

ويومَ صِفينَ والأبصارُ خاشعةٌ	أمدَّهم إذ دَعوْا من ربِّهم مَدد
على الأُولى قتلوا عثمانَ مَظْلِمةً	لم يَنْهَهم نَشَد عنه وقد نُشِدوا
فثَمَّ قرَّت عيونُ الثائرين به	وأدركوا كلَّ تَبْل عنده قَوَد
فلم تزل فَيْلق خضراءُ تَحْطِمهم	تنعَى ابنَ عفَّانَ حتى أفرخ الصَّيَد
وأنتمُ أهلُ بيت لا يوازنهم	بيتٌ إذا عُدَّت الأَحساب والعدد
أيديكمُ فوق أيدى الناس فاضلةٌ	فلن يوازنَكم شِيب ولا مُرُد
لا يَزْمَهِرُّ غداةَ الدَّجْن حاجبُهم	ولا أضِنَّاءُ بالمِقْرَى وإن ثَمِدوا
قوم إذا ضنَّ أقوام ذوو سعة	وحاذروا حضرة العافين أو جحدوا
بارَوْا جُمادَى بشِيزاهم مكلَّلةً	فيها خليطان وارِى الشحم والكبِد
المطعمون إذا هبَّت شآمِيَةٌ	غبراءُ يُجْحَر من شَفَّانها الصَّرِد
وإن سألتَ قريشاً عن ذوائبها	فهم أوائلها الأَعلَوْن والسَّنَد
ولو يُجمَّع رِفدُ الناس كلِّهِمُ	لم يَرْفِد الناس إلاَّ دون ما رَفَدوا

(ص١٧٤ و ١٧٦ ب ٤٢ – ٥٢)

فى القصيدة إذن نفس الظاهرة التى لاحظناها فى القصيدة السابقة ، فحظ الممدوح من المدح ضئيل . وشخصيته باهتة محدودة الجوانب . وحظ قومه من المدح هو الغالب ، والاحتفال بهم قوى بارز ، والجو السياسى عنصر مهم يعوض

---

(١) نفس المصدر ، ص ٨١ ؛ انظر أيضاً ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٣ ص ١٥١ و ١٥٢ .

به الشاعر ما افتقده فى ممدوحه من مآثر وخصال .

ومن ثم كانت صلة الأخطل بعبد الله مادية يحدوها الطمع ، سياسية ترمى إلى مناصرة الحزب الأموى ، قصيرة متقطعة يمنع من إطالتها حمق الأمير وضعفه .

• • •

وقريب من هذه الصلة المحدودة المتقطعة ، صلة أخرى هى آخر ما عقده الأخطل بالبيت السفيانى من صلات . تلك هى صلته بخالد بن يزيد بن معاوية .

ولكن هناك فرقاً كبيراً بين شخصية خالد وشخصية عمه عبد الله . كان فى خالد بعض من أبيه فى ميوله وطباعه . كان من رجالات قريش سخاء وعارضة وفصاحة ، يوصف بالعلم ويقول الشعر[1] . وقد رويت له أبيات رقيقة فى رملة بنت الزبير تكشف عن دماثة طبعه[2] . وكان مقدراً له أن يتولى الخلافة بعد تنازل أخيه معاوية ، لو لم يعترض المعترضون على صغر سنه[3] . ثم كان مهيأ لتولى أمرها بعد مروان بن الحكم ، لو لم ينقض مروان عهده ويأخذ البيعة لابنه عبد الملك من بعده[4] . فلما انقطع أمله فى الملك ، أقبل على علوم الكيمياء يغترف منها ، ويشغل نفسه بطلبها ، حتى أفنى بذلك عمره[5] .

وقد اتصل به الأخطل ، كما اتصل بعمه وأبيه من قبل ، ولكنه لم يطل به

---

(١) أبو الفرج : الأغانى ، ج ١٦ ص ٨٤ و ٨٥ .

(٢) شبب بها فقال :

أليس يزيد السير فى كل ليلة	وفى كل يوم من أحبتنا قربا
أحن إلى بنت الزبير وقد علت	بنا العيس خرقاً من تهامة أو نقبا
إذا نزلت أرضاً تحبب أهلها	إلينا وإن كانت منازلها حربا
وإن نزلت ماء وإن كان قبلها	مليحاً وجدنا ماءه بارداً عذبا
تجول خلاخيل النساء ولا أرى	لرملة خلخالا يجول ولا قلبا
أقلوا على اللوم فيها فإننى	تخيرتها منهم زبيرية قلبا
أحب بنى العوام طراً لحبها	ومن حبها أحببت أخوالها كلبا

(نفس المصدر ، ج ١٦ ص ٨٦) .

(٣) أبو تمام : نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦ ؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ص ٤١٠ — ٤١٤ .

(٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ص ٤٧٤ .

(٥) أبو الفرج : الأغانى ، ج ١٦ ص ٨٤ .

اتصاله ، ولم يمدحه بأكثر من قصيدة واحدة احتفظ لنا بها ديوانه[1] . ولعل ذلك لأن خالداً لم يصبح له من الأمر شيء حتى يرجى منه كبير نفع ، أو لأن البيت المرواني لم يكن ينظر بعين الرضا إلى من يشيد بأفضال رجل يعتبر منافسهم في الملك .

أما القصيدة فهي رائيته :

رأيتُ قريشاً حين ميِّز بينها تباحثُ أضغانٍ وطعنُ أمورِ[2]

يذكر فيها مقتل عمير بن الحباب ، ومصعب بن الزبير ، وعيسى بن مصعب ، والمختار الثقفي :

أمعشرَ قيسٍ لم يمتَّع أخوكُم عُميرٌ بأكفانٍ ولا بطَهور

(ص ٣٥ ب ١٢)

همُ قتلوا بالمصعبَيْنِ كليهما وهم سيَّروا عَيْلان شرَّ مسير
وناطوا من الكذّاب كفًّا صغيرةً وليس عليهم قتلُه بكبير

(ص ٣٧ ب ٢١ و ٢٢)

مما يدل على أنه قالها في عهد عبد الملك بن مروان ، بعد سنة ٧١ هـ .

يصور في مطلعها ظفر الأمويين بالخلافة ، ثم يستجدي خالداً استجداء صريحاً ، ثم يفتخر بدفاعه عن الأمويين بلهجة الممتن :

رأيتُ قريشاً حين ميِّز بينها تَباحثُ أضغانٍ وطعنُ أمور
علتها بحورٌ من أميّةَ ترتقِي ذُرى هضبةٍ ما فرعُهـا بقصير

(ص ٣٤ ب ١ و ٢)

أخالدُ أعلى الناس بيتاً وموضعاً أغِثْنا بَسيْبٍ من نداك غزير

(ص ٣٥ ب ٦)

---

(١) أشار إليه الأخطل من قبل في داليته « فأصعدا » (ص ٩٤ ب ١٩) ، كما ذكره في رائيته « غمر » (ص ٨٩ ب ١) ، وكلتاهما في أبيه يزيد .

(٢) شعر الأخطل ، ص ٣٤ .

ولو سُئلتْ عنى أميةُ خبَّرتْ   لها بأخٍ حامى الذّمار نَصور

إذا انقشعتْ عنى ضبابةُ معشر   شددتُ لأُخرى محملى وزُورى

(ص ٣٥ ب ٨ و ٩)

ثم ينتقل إلى الحروب بين قيس وتغلب ، فيصور هزائم القيسية ويتشفى بمقتل قائدهم عمير بن الحباب ، ويعتد بأثر قومه فى القضاء عليهم وعلى دعاة الشيعة وابن الزبير :

أمعشرَ قيسٍ لم يمتّع أخوكمُ   عُمَيرٌ بأكفان ولا بطَهور

تدل عليه الضَّبعَ ريحٌ تضوَّعتْ   بلا نفحِ كافورٍ ولا بعبير

وقتلى بنى رِعْلٍ كأن بطونَها   على جَلْهةِ الوادى بطونُ حمير

فإن تسألونا بالحَرِيشِ فإننا   مُنينا بِنُوكٍ منهمُ وفجور

غداةَ تحامتْنا الحريش كأنها   كلابٌ بدت أنيابُها لهرير

(ص٣٥ ب ١١ – ١٦)

ألا أيُّهذا الموعِدِى وسْطَ وائل   ألست ترى زارِى وعزَّ نصيرى

وغمرةَ موت لم تكن لِتخوضَها   وليس اختلاسى وسْطَهم بيسير

همُ فتكوا بالمُصْعبَينِ كليهما   وهم سيَّروا عَيْلان شرَّ مسير

وناطوا من الكذَّاب كفًّا صغيرةً   وليس عليهم قتلُه بكبير

وأحْمَوا بلادًا لم يكن لتحِلَّها   هوازنُ إلا عُـوَّذًا بأمير

وذاد تميما والذين يَلُونهم   بها كلُّ ذَيالِ الإزارِ فَخور

(ص ٣٦و٣٧ ب ١٩ – ٢٤)

فتظهر بذلك فى مدائحه نغمة جديدة هى نغمة الفخر بنفسه وبقومه ، وتقوى وتشتد نغمة أخرى كانت ضعيفة حبيسة منذ تهدده معاوية بقطع لسانه ، تلك هى نغمة الهجاء القبلى والسياسى ، ويمتزج المدح بالفخر والهجاء فى الغرض الرئيسى ، وهى ظاهرة يتميز بها أغلب ما نظمه فى ظل البيت المروانى من مدائح .

البَابُ الثالث

الأخطل والبيت المرواني

الفصل الأول

الأمويون ودعاة ابن الزبير

يزيد بن معاوية ومعارضة ابن الزبير – تنازل معاوية بن يزيد والدعوة لابن الزبير – اليمنية يؤيدون الأمويين فى الشام ، والقيسية يدعون لابن الزبير – الجابية ومبايعة مروان بن الحكم – مرج راهط وهزيمة القيسية – القيسية ينتقمون فى الجزيرة من اليمنية – القيسية يدعون فى الجزيرة لابن الزبير – تغلب تتمسك بولائها للأمويين – الحروب بين قيس وتغلب – الأخطل والحروب بين قيس وتغلب – عبد الملك بن مروان والقضاء على فتنة ابن الزبير .

اشتعلت الأمصار الإسلامية بنار الفتنة ، بعد أن تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة ، واصطرعت المطامع فى سبيل الملك ، وتطاولت الأحزاب إلى الرئاسة ، وأصبحت الكلمة للقوة ، والأمر بعد لمن غلب :

إنى أرى فتنةً هاجتْ مَراجِلُها ... والمُلكُ بَعْدَ أبى لَيْلَى لمن غَلَبا[1]

وما كان لأحد أن يتنبأ فى مطلع هذا الصراع لمن تكون الغلبة ، ولمن يكتب النصر ؛ أتكون الغلبة للأمويين ؟ أم يكون النصر لدعاة ابن الزبير ؟ وما كان الأخطل ليستطيع وقتئذ أن يتخطى الجزيرة إلى الشام ؛ فالأمن مضطرب ، والفوضى منتشرة ، وموطنه قد أصبح مسرحاً لصراع دموى عنيف ، وقومه يتلقون الشدائد من دعاة ابن الزبير ، فكان عليه أن يقيم فى الجزيرة حتى ينكشف الخطب ، فأقام يشاطر قومه ما يلقون من بأس ، حتى قضى عبد الملك بن مروان على دعاة الزبير ، واستقر لبنى مروان الملك ، فشد إلى دمشق ركابه ، واستأنف صلته بالأمويين فى ظل البيت المروانى .

ولما كان النزاع بين الأمويين ودعاة ابن الزبير ذا أثر بعيد فى صلة الأخطل بهذا البيت ، فقد رأينا أن ندرس هذا النزاع قبل أن نعرض لهذه الصلة ، وأن

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ص ٩٧ .

ندرسه بقدر ما نحتاج إليه فى فهم موقف الأخطل وموقف قبيلته من الفريقين المتنازعين .

* * *

وقف الحجاز من معاوية موقف المعارضة حين سعى فى أخذ البيعة ليزيد بولاية العهد . فقد كان ذلك نذيراً باستقرار الخلافة فى الشام ، وخروجها إلى غير رجعة من الحجاز ، كما كان نذيراً بالقضاء على أطماع كبار قريش وأجلتهم فى السيادة والملك . وأحس معاوية خطورة هذه المعارضة ، فعمل على تخفيف حدتها بدهائه . ولكنه لم يستطع أن يستأصلها ، فبقى فى الحجاز من يرى نفسه أولى من يزيد بالخلافة ، ويتربص بمعاوية الدوائر لينقض هذا العهد الذى فرض على أهل الحجاز .

وكان الحسين بن على وعبد الله بن الزبير أبعد المعارضين خطراً فى الحجاز . وكان معاوية يحذر منهما ، ويخاف على ابنه من خطرهما . فالحسين كان حبيباً إلى قلوب المسلمين فى الحجاز ، وكان له شيعة يتمنون قدومه إلى العراق ، وكان يعتبر معاوية مغتصباً للملك هو أحق به منه . وابن الزبير كان بعيد الأطماع واسع الدهاء غير راض عن تولية يزيد ، حتى لقد رأى فيه معاوية أخطر المعارضين ، وحذر منه ابنه ، فقال : « وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير . فإن هو فعلها بك فقدرت عليه ، فقطعه إرباً إرباً »[1] . وقد أثبتت الحوادث صدق فراسته . فبعد أن ولى يزيد الخلافة ، وكتب إلى أمير المدينة بأن يأخذ المعارضين بالشدة ، امتنع الحسين وابن الزبير عن البيعة ، وخرجا هاربين إلى مكة .

كان ابن الزبير يعرف فى الحسين قوة لها خطرها وشخصية لها مكانتها بحيث لا تؤمن معه المعارضة فى الحجاز [2] . فانتظر يترقب الحوادث ، ولم يسرع بالكشف عن أطماعه ، حتى إذا ما أرسل أهل الكوفة يطلبون إلى منافسه الذهاب إلى العراق ، وجد فى ذلك فرصة للتخلص منه ، فأخذ يزين له الخروج ويشجعه عليه ،

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ص ٢٣٨ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٦١ .

ليخلو له الجو فى الحجاز . ولم تخف عن الحسين مطامعه ، فقال : « ها ! إن هذا ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق . وقد علم أنه ليس له من الأمر معى شيء ، وأن الناس لم يعدلوه بى ، فود أنى خرجت منها لتخلو له »[١] . ومع ذلك ، فقد صمم الحسين على الخروج ، فخرج إلى العراق ، ليلقى مصيره وآل بيته فى كربلاء .

خلا الجو بذلك لابن الزبير فى الحجاز ، فعاذ بالحرم ، وأخذ يثير النفوس على يزيد ؛ فشهر بعبثه ولهوه ، بشغفه بالغناء والحداء ، وشربه للخمر وكلفه بالطراد ، واتخذ من مقتل الحسين سلاحاً فى إثارة النفوس عليه ، فقال : « أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهداً ؟ لا . ولا نراهم لذلك أهلا . أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه ، كثيراً فى النهار صيامه ، أحق بما هم فيه منهم ، وأولى به فى الدين والفضل . أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس فى حلق الذكر الركض فى تطلاب الصيد ، فسوف يلقون غيًّا »[٢] . فثار على يزيد أهل الحجاز ، وخلعه أهل المدينة ، واشرأبت الفتنة منذرة متوعدة . وجرد يزيد إلى الثائرين جند الشام ، فاستبيحت المدينة ، وأوذى الصحابة ، وحوصرت مكة ، وضربت الكعبة بالمنجنيق ، وأحرقت ستائرها ، وكادت جنود الشام تفتك بأهل الحجاز ، لو لم تأت الأخبار بموت يزيد ، فتوقف القتال ، وعادت جنود أمية إلى الشام .

وما كاد معاوية بن يزيد يتولى أمر الخلافة ، حتى اشتعلت الأمصار بنار الفتنة ، وضعف الخليفة الشاب عن مواجهة الموقف ، فتنازل عن الخلافة ، وتركها نهبى لمن غلب[٣] ، فتطاولت إليها الأعناق ، واصطرعت فى سبيلها الأهواء . واشتدت شوكة ابن الزبير ، فجاهر بالدعوة لنفسه فى الحجاز ، وأخذ البيعة من أهله ، وبعث برسله يدعون إليه فى الأمصار ، فبايع له أهل العراق والجزيرة[٤] ،

---

(١) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٨٧ و ٢٨٨ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣٦٤ .
(٣) أبو تمام : نقائض جرير والأخطل ، ص ١ — ٦ .
(٤) ماعدا تغلب قبيلة الأخطل .

كما بايع له أهل اليمن ومصر . ونجح فى أن يمد نفوذه إلى الشام ، فبايع له زفر بن الحارث بقنسرين ، والنعمان بن بشير بحمص ، وناتل بن قيس بفلسطين ، والضحاك بن قيس بدمشق ، ولم يبق موالياً لبنى أمية فى الشام غير أهل الأردن[١] . وكاد ابن الزبير يهدد ملك الأمويين بالزوال ، وينقل الخلافة من الشام ، ليعيدها ثانية إلى مقرها الأول فى الحجاز .

وقد يبدو غريباً أن تتغلغل الدعوة لابن الزبير بهذه السرعة فى مقر الخلافة الأموية بالشام . ولكن هذه الغرابة تتبدد إذا وضعنا نصب أعيننا ما كان قائماً بين المضرية واليمنية من نزاع . والعصبية القبلية نزعة قديمة تغلغلت فى نفوس العرب منذ الجاهلية ، ودفعت بهم إلى كثير من المحن والحروب ، وأوقعت بينهم الفرقة والعداء ، فكانت هذه « الأيام » التى سجلتها كتب التاريخ ، وكان هذا « الشعر القبلى » الذى تطالعنا به كتب الأدب ودواوين الشعراء .

وهذه القبائل المتعادية ترجع فى أصلها إلى شعبتين كبيرتين هما قحطان وعدنان . وقد يسمى القحطانية باليمنية نسبة إلى اليمن موطنهم الأصلى ، كما يسمى العدنانية بالمضرية نسبة إلى مضر ، أو بالقيسية نسبة إلى قيس عيلان . وقد استمرت العداوة بين الشعبتين سنين طوالا ، حتى أصبحت جزءاً من دمائهم . ولم يستطع الإسلام أن يستأصلها ، فكانوا يحاربون جنباً إلى جنب ، وهم على ذكر منها[٢].

وقد عمل معاوية على إثارة العصبية بين المضرية واليمنية منذ تولى إمرة الشام فى عهد عمر بن الخطاب . وكانت قبيلة « كلب » أخطر القبائل اليمنية شأناً ، كما كانت قبائل « قيس عيلان » أكثر القبائل المضرية عدداً . ورأى معاوية أن اليمنية عموماً يمثلون أكثرية القبائل العربية فى ربوع الشام ، وأن قبيلة كلب أقوى هذه القبائل اليمنية وأكثرها نفوذاً . فتقرب إليهم وتزوج منهم بميسون بنت بحدل صاحب الكلمة فيهم[٣] ، وأنجب منها يزيد أحب ولده إلى نفسه ، وبعث

---

(١) أبو تمام : نقائض جرير والأخطل ، ص ٦ ؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ص ٤٠٨ — ٤١٢ .

(٢) Dozy, R. : Histoire des Musulmans d'Espagne, t. 1, p. 70 et Suiv.

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ص ٢٤٣ .

به إليهم يتربى بينهم وينشأ على غرارهم ، فكان لليمنية فى إمرته نفوذ كبير . وكان عثمان قد أصهر إليهم من قبل ، وتزوج منهم نائلة بنت الفرافصة[١] ، فلما قتله الثوار ، وقطعوا أصابع زوجه نائلة ، استغل معاوية هذا الظرف واستنصرهم على قتلته ، فانضموا إليه وحاربوا فى صفوفه ، حتى كتب له النصر وظفر بالخلافة ، فرفع منزلتهم ، وزاد فى الاحتفاء بهم ، وامتد بذلك نفوذهم بالشام .

كان لهذا النفوذ الذى ظفر به اليمنية ، وهذه المكانة التى بلغوا إليها ، أثر كبير فى إثارة غضب المضرية من قبائل قيس عيلان ، وأخذ العداء القديم ينبعث من مرقده ويتحين الفرص للانفجار . فلما سعى معاوية ليأخذ البيعة ليزيد بولاية العهد ، رفض القيسية أن يبايعوا له ، لأن أخواله الكلبيين يمنية ، ولأن فى ظفره بالخلافة نذيراً للقيسية بامتداد النفوذ اليمنى . ثم رفضوا أن يبايعوا لمعاوية بن يزيد ، لأن أمه هو الآخر يمنية من كلب[٢] ، ولأن فى الاعتراف بخلافته إقراراً منهم بالخضوع لليمنية . فلما تنازل هذا عن الخلافة ، سعى الكلبيون وعلى رأسهم حسان بن مالك بن بحدل ، فى أن يتولاها أخوه وابن أختهم خالد بن يزيد . فضاق القيسية ذرعاً ببنى أمية عامة وبالكلبيين خاصة ، ووجهوا نظرهم شطر الحجاز ، فكان هواهم مع ابن الزبير ، وقبلوا أن يلى أمرهم هذا الشيخ المضرى من قريش ، على أن يتحكم فيهم أطفال يزيد وأخوالهم اليمنية من كلب . وانقسم الناس بذلك فى الشام فريقين ، أحدهما أموى بحدلى ، والآخر زبيرى :

وما النَّاسُ إلَّا بَحْدَلِىٌّ على الهَوَى   وإلَّا زُبَيرِىٌّ عَصَى فَتَزَبَّرا[٣]

ومن ثم نرى إلى أى حد عملت العصبية بين المضرية واليمنية على بذر بذور الفتنة فى ربوع الشام . ويغلب على الظن أنه لولا هذه العصبية القبلية لما استطاعت الدعوة لابن الزبير أن تشق طريقها إلى مقر الخلافة الأموية بهذه السرعة الفائقة .

---

(١) نفس المصدر ، ج ٣ ص ٤٤٥ .
(٢) أبو تمام : نقائض جرير والأخطل ، ص ١ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٦ .

على أن نفوذ ابن الزبير لم يستمر طويلا فى الشام ، وقدر للأمويين أن يجمعوا صفوفهم ، ويوحدوا كلمتهم ، بعد قدوم مروان بن الحكم من الحجاز . أقبل مروان ، وهذا النزاع القبلى السياسى على أشده ، فرأى شدة الدعوة لابن الزبير فى الشام ، ولمس ضعف البيت السفيانى عن مواجهة الموقف ، فيئس أول الأمر من تحقيق أطماعه ، وهمَّ فى قلقه واضطرابه أن يبايع لابن الزبير . فألح عليه عبيد الله بن زياد فى أن يدعو لنفسه ، وقال : « استحييت لك مما تريد . أنت كبير قريش وسيدها تصنع ما تصنعه ؟ ! »[١] . وشجعه على ذلك عمرو بن سعيد ابن العاص ، فقال : « بينا أنت المرجو وشيخ قريش ، إذ صرت رسولا لأخى فهر ، وما أنت من الأمر ببعيد »[٢] . وأكد له ابنه عبد الملك أنه لا بد ظافر بالخلافة ، فقال : « لست أشك مع الاختلاف الذى أرى أن الأمر صائر إليك »[٣] . وكان لذلك أثره فى نفس مروان ، فعدل عن المبايعة لابن الزبير ، واستعاد أطماعه ، ولزم سارية المسجد ، وبث دعاته يذكرون فضله وينوهون بمكانته .

عمل مروان بدهائه على أن يوجه إليه أنظار أهل الشام ، وانبث بينهم دعاته يذكرون سنه وتجربته وقرابته من عثمان ، ويلوحون بكرمه وسخائه ، ويندّدون ببخل ابن الزبير . واستعان بروح بن زنباع فى الدعوة له ، وطلب إليه أن يدلهم على مكانه ، فقال : « يا أبا زرعة ، إنك من هذا الأمر بصدد ، وإنى لا أعلمك من أمرى إلا ما قد علمت . أنا ابن عم أمير المؤمنين عثمان ، وخليفته فى الدار ، والذى أوصى به بعده ، فلا تدع من ذكرنا ما أنت أهله . ومهما نسيت من شىء ، فلا تنسين أن تذكر سنى ونظرى وتجربتى ، وقرابتى بأمير المؤمنين عثمان ، مع الشدة فى الحدود ، والعفاف فى الإسلام ، وبذل ذات اليد ، مع قصب ابن الزبير ، وجمعه ومنعه »[٣] . ولم يلبث مروان إلا قليلا ، حتى التف حوله أهل الأردن وغيرهم ، وقالوا له : « أنت شيخ كبير ، وابن الزبير كهل ، وإنما يقرع الحديد

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ص ٤١٢ .
(٢) أبو تمام : نقائض جرير والأخطل ، ص ٦ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٣ .

بعضه ببعض . فلا تباره بهذا الغلام ، وارم بنحرك فى نحره ، ونحن نبايعك »[١] .
وقبل مروان ، فبايعوه بالجابية يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذى القعدة سنة ٦٤ للهجرة ، على أن يلى الخلافة من بعده خالد بن يزيد . وبذلك جمع الأمويون صفوفهم ، ووحدوا كلمتهم ، واستعدوا فى الشام لمواجهة دعاة ابن الزبير .

والمتأمل فى تاريخ هذه الفترة التى أعقبت البيعة لمروان ، يلاحظ أن قبيلة كلب كانت أشد القبائل تحمساً فى الدعوة للأمويين ، وأن قوام جيش مروان كان من اليمنية[٢] ، فى حين أن قبائل قيس كانت أنشط القبائل فى الدعوة لابن الزبير ، وأن أغلب جيش الثوار كان من المضرية[٣] . وفى هذا أبلغ دليل على أن النزاع بين الأمويين ودعاة ابن الزبير فى الشام ، لم يكن سياسياً فحسب ، بل كان إلى ذلك قبلياً يغذوه ما كان بين المضرية واليمنية من عداء .

ومهما يكن من شىء . فقد التقى الأمويون ودعاة ابن الزبير فى « مرج راهط » ، واقتتل الفريقان قتالا شديداً أسفر عن هزيمة دعاة ابن الزبير وانتصار الأمويين . وانحسر نفوذ ابن الزبير عن الشام ، ثم ما لبث أن انحسر أيضاً عن مصر ، وانتقلت الخلافة فى بنى أمية من البيت السفيانى إلى البيت المروانى ، وأصبح العالم الإسلامى موزعاً بين خلافتين : إحداهما أموية تبسط نفوذها على الشام ومصر ، والأخرى زبيرية تتركز فى الحجاز ، وتبسط نفوذها على اليمن والعراق ، وتسعى إلى فرض سيطرتها على الجزيرة .

وإنما يهمنا من هذا النزاع المترامى الأطراف موقف القيسية بعد يوم المرج . فقد قتل قائدهم الضحاك بن قيس فى هذا اليوم ، وجاء برأسه إلى مروان رجل من كلب ، وبلغ عدد قتلاهم تسعة آلاف ، منهم ستمائة من بنى سليم ، وثمانون ممن كان يأخذ شرف العطاء ، فاشتد بهم الحزن ، حتى زعموا أن رجالا منهم لم يضحكوا بعد هذا اليوم ، حتى ماتوا جزعاً على من أصيب فيه من فرسان قيس[٤] .

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ص ٤١٢ .
(٢) أبو تمام : نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٧ ؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ص ٤١٣ .
(٤) أبو تمام : نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧ ؛ ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ ٣ ص ١٥١ .

خرج القيسية من مرج راهط بعد هذه الهزيمة وهم أشد كراهية لليمنية والأمويين . واشتد عليهم أن ينكل بهم اليمنية هذا التنكيل ، فخرجوا من الشام إلى أرض الجزيرة ، ونفوسهم تغلي بالحقد ، وتحصنوا في ديار مضر بقرقيسياء ، وأمّروا عليهم زفر بن الحارث الكلابي ، وعقدوا العزم على أن ينتقموا لأنفسهم من كلب اليمنية .

ولقد صور زفر شعورهم تصويراً قوياً ، فقال :

أرِيني سلاحي لا أبالك إنني … أرى الحربَ لا تزداد إلا تماديا

أتانيَ عن مروانَ بالغيب أنه … مُقِيدٌ دمى أو قاطعٌ من لسانيا

ففي العِيس منجاةٌ وفي الأرض مهربٌ … إذا نحن رفّعْنا لهن المثانيا

فلا تَحسِبوني إذْ تغيبتُ غافلا … ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا

فقد يَنبت المرعى على دِمن الثّرى … وتَبقى حَزازات النفوس كما هيا

أتذهب كلبٌ لم تنلْها رماحُنا … وتُترك قتلى راهِطٍ هي ماهيا

لعَمْري لقد أبقت وُقَيعةُ راهط … لحسّانَ صَدْعًا بيننا متنائيا

فلا صُلْحَ حتى تَنْحِطَ الخيلُ بالقَنا … وتثأرَ من نِسْوان كلب نسائيا[1]

ذلك ما كان يعتمل في نفس هذا الزعيم القيسي ، وهو في طريقه إلى قرقيسياء بالجزيرة . كان الحقد يملأ عليه نفسه ، والأخذ بالثأر يطغى على تفكيره وعقله . وكان القيسية جميعاً يحسون إحساسه ، ويفكرون تفكيره ، فتحصنوا بقرقيسياء ، واتخذوا منها موئلا يجمع شملهم ، وقاعدة يشنون منها إغاراتهم . وانضم إليهم عمير ابن الحباب السلمي ، وكان موتوراً لما أصاب قومه بني سليم من تقتيل ، وأخذوا يغيرون على منازل كلب ببادية السماوة منتقمين بذلك لقتلى المرج .

وكانت تغلب قبيلة الأخطل تسكن ديار ربيعة بالجزيرة ، فكانت بذلك شديدة القرب من معقل القيسية . وقد استطاع زفر بن الحارث أن يضمها إلى صفه ،

---

(١) أبو تمام : نقائض جرير والأخطل ، ص ٢٤ و ٢٥ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ص ٤١٨ و ٤١٩ .

فشاركت فى هذه الإغارات برجالها ، وانضمت إلى جانب القيسية فى مطاردة اليمنية من كلب[١] . وكان يحدوها إلى ذلك عامل العصبية ، لأنها وقيساً ينتميان إلى أصل واحد ، فهى من ربيعة ، وقيس من مضر ، وكلا الحيين من عدنان ، والعداء متبادل قديم بين عدنان وقحطان . وكان يشجعها على ذلك خروج الأمر من البيت السفيانى إلى البيت المروانى ، لأن البيت الأول كان وثيق الصلة بكلب اليمنية لما كان بينهما من علاقة فى النسب والمصاهرة ، ولأن البيت الثانى كان خالصاً فى عدنانيته لا يمت إلى هؤلاء اليمنية بصلة . وكان يدفعها إلى ذلك سكوت القيسية وقتئذ عن الدعوة لابن الزبير ، وانشغالهم الشديد بالانتقام من اليمنية ، فلا جزية ، ولا نفوذ لأحد عليها أو سلطان ، وإنما هى حروب قبلية تجنى تغلب من ورائها الغنم ، وتظفر بالأسلاب ، فاتحدت مع القيسية على كلب ، وأجلوهم عن منازلهم ، وطردوهم إلى الغور بالشام[٢] .

وكان للشعر فى ذلك جولة ، فانبرى شعراء كلب يندون بتغلب ، وانبرى الأخطل يهجو شعراء كلب ، ويمجد زفر بن الحارث ، ويتغنى باتحاد نزار :

إنّى أظن نِزارًا سوف تجمعها ... بعد التفرق حربٌ شبّها زُفَرُ

سارَى بِهم أرضَهم ليلا فصبَّحهم ... بوقعةٍ لم تقدَّم قَبلَها النُّذر

فى عارض من نِزار يُبْرِقون إذا ... نال الأعادِىَ منهم فَيْلقٌ هَبَروا

سعى بأوتار أقوام فأدركها ... لولا أياديه ما امتنّوا ولا انتصروا[٣]

وكان من المحتمل أن يطول الاتحاد بين قيس وتغلب ، لو لم يقم القيسية ، بعد الانتقام من اليمنية ، بالدعوة لابن الزبير . فبعد أن أخذ القيسية بثأرهم لقتلى مرج راهط ، عادوا إلى الجزيرة ليقوموا بالدعوة لابن الزبير ، ونزل قائدهم عمير بن

---

(١) يرى الدكتور محمد حسين أن تغلب فى أيام الفتنة ، وقبل أن تقوم الحرب بينها وبين قيس ، وظلت فى معظمها على الحياد ، تترقب الظروف وتشارك الأمويين بعواطفها ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً (الهجاء والهجاءون فى صدر الإسلام ، ص ٦٨ و ٦٩) . وهو رأى فيما نرى يحتاج إلى الدليل ، وليس هناك ما يسنده من الشعر أو التاريخ .

(٢) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٢٠ ص ١٢٠ – ١٢٦ .

(٣) شعر الأخطل ، ص ٢٦٨ – ٢٧٠ .

الحباب بالخابور بين منازل تغلب ، واحتك بهم رجاله احتكاكاً شديداً ، وأخذوا يستأوون جواريهم ، ويسخرون مشايخهم من النصارى ، ويستدون عيرهم ، ويعتدون على رجالهم . فضاق بنو تغلب بذلك ذرعاً ، وصمموا على أن يرتحل القيسية عن ديارهم ، وطلبوا إلى زفر أن يجليهم عن أراضيهم ، وأنذروه بالشر إذا استمروا فى جوارهم ، فرفض طلبهم ، وتمسك ببقاء قيس فى منازلهم ، ثم أسفر عن غرضه ، فدعاهم إلى الدخول فى طاعة ابن الزبير ، وطالبهم بالجزية أو الصدقة التى كانوا يدفعونها لعمال بنى أمية[1] .

ولم تكن تغلب قد اشتركت فى مطاردة كلب اليمنية بدافع من ولائها لابن الزبير ، بل اشتركت فى ذلك بدافع من العصبية القبلية وتحقيق المصلحة المادية : فلما دعيت إلى الدخول فى طاعته ، تمسكت بولائها القديم للبيت الأموى . وما كان لها إلا أن تتمسك بهذا الولاء ، لأن حياتها الاقتصادية كانت مرتبطة بالشام ، أكثر من ارتباطها بالحجاز أو العراق . فقد كان بنو تغلب . كما سبق لنا القول ، يحتلون إقليماً خصباً مليئاً بالخيرات ، وكان هذا الإقليم منفذاً لمرور التجارة بين الهند والشام ، وكانوا يقومون بحراسة هذه التجارة ويشرفون على نقلها ، فيجنون من ذلك أرباحاً طائلة . فلم يكن من مصلحتهم ، بعد أن ظفر البيت المروانى بالخلافة ، واستقرت أموره فى الشام ، أن يقلبوا للأمويين ظهر المجن ، وهم أصحاب السيطرة والنفوذ فى ربوعه ، فتمسكوا لذلك بولائهم للبيت الأموى .

أبى التغلبيون إلا أن يكونوا أحراراً فى إقليمهم ، ورفضوا دعوة زفر للدخول فى طاعة ابن الزبير ، وصمموا على طرد القيسية من ديارهم بالقوة . ثم تعقد الموقف تعقداً شديداً ، وأريقت فى ذلك دماء ، فاشتعلت الحرب بين قيس وتغلب ، وانهار بذلك اتحاد نزار .

حشدت تغلب جموعها على شاطئ الخابور قريباً من (ماكسين) ، فكان ذلك إيذاناً ببدء الحرب . واقتتل الفريقان قتالا شديداً أسفر عن هزيمة تغلب ، وفشا القتل فيها ، وأسر كثير من رجالها ، وبقر من بطون نسائها عدد كبير[2] .

---

(١) أبو الفرج : الأغانى ، ج ٢٠ ص ١٢٦ و ١٢٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ص ٤ .

(٢) أسر فى هذا اليوم القطامى ابن أخت الأخطل ، وأراد القيسية قتله ، فحال زفر بن الحارث

فاستنجدت بجيرانها من عرب ربيعة، والتقت بالقيسية عند (الثرثار)، وانتقمت لنفسها ، فقتلت من قيس مقتلة عظيمة ، وتجاوزت ذلك إلى مجازاتهم بالمثل ، فبقر رجالها بطون ثلاثين امرأة من سليم . وتتابعت بعد ذلك المعارك، فيوم لها وأيام لقيس ، وما زال بها عمير بن الحباب السلمى بطشاً وتنكيلا ،حتى هزمها فى يوم (الثرثار) الثانى ، ثم فى يوم (الفدين) ، ثم فى يوم (السكير) ، ثم فى يوم (الحضر) ، ثم فى يوم (البليخ) . وكانت هزائم متوالية لقيت منها تغلب عناء شديداً ، وبطش بها القيسية بطشاً ملأها بالضغن ، فجمعت ما استطاعت من قوة ، واقتتلت والقيسية فى يوم (الحشاك)، وأثخنت فيهم قتلا وتمثيلا ، حتى هرب من بطشها زعيمهم زفر بن الحارث ، وقتلت قائدهم عمير بن الحباب ، وبعثت برأسه إلى عبد الملك بن مروان فى دمشق ، توكيداً لولائها وإظهاراً لبلائها ، فأكرم عبد الملك رجالها ، وامتدح فيهم بلاءهم وأرفدهم وكساهم . وكان مقتل عمير شديد الوقع فى نفوس القيسية ، فتداعت قبائلهم ، وخطب فيهم زفر محرضاً ، فسارت جيوشهم إلى تغلب بـ (الكحيل) ، فكسروها وبقروا بطون من وجدوا من نسائها ، وأغرقوا كثيراً من رجالها فى دجلة ، وانتقموا بذلك لمقتل عمير [1].

وقد أسهم الشعر فى هذا النزاع القبلى السياسى بنصيب . وشغل الأخطل بقبليته فى الجزيرة عن تحقيق أطماعه فى الشام . فشارك بنفسه فى بعض هذه الأيام ، وأخذ يتغنى بانتصارات قومه ، ويتشفى من هزائم قيس ، فى زهو واعتداد .

بينهم وبينه ، وحماه ومنعه ، وحمله وكساه وأعطاه مائة ناقة ، فمدحه القطامى بعدة قصائد يعترف فيها بفضله ويذكر له يده . وحض فى بعضها قيساً وتغلب على السلم ودعاهم إلى الصلح حتى لا تشمت فيهم اليمنية :

ألم يحزنك أن حبال قيس ... وتغلب قد تباينت انقطاعا

يطيعون الغواة وكان شرا ... لمؤتمر الغواية أن يطاعا

ألم يحزنك أن ابنى نزار ... أسالا من دمائهما التلاعا

وصارا ماتغيهما أمور ... تزيد سناً حريقهما ارتفاعا

فلا تبعد دماء ابنى نزار ... ولا تقرر عيونك باقتضاعا

أمور لو تلافاها حليم ... إذاً لنهى وهيب ما استطاعا

ولكن دعوته ذهبت أدراج الرياح ، واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين حتى تدخل بينهما عبد الملك بن مروان . (ديوان القطامى ، ص ٣٧ – ٤٢ و ١٠ – ١٢ و ٣٠ ؛ أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٢٠ ص ١٨٨ – ١٣٢) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ص ٤ – ٨ .

يذكر فضل قبيلته فى إبعاد القيسية عن كلب ، ويشفى من قيس بإجلائها عن الجزيرة :

ألم تَشكرْ لنا كلبٌ بأنَّا ... جلَوْنا عن وجوههمُ الغبارا
كشفنا عنهمُ نزواتِ قيس ... ومثل جموعِنا مَنع الذمارا
وكانوا معشرًا قد جاورونا ... بمنزلة فأكرمْنا الجوارا
فلما أن تخلَّى اللهُ منهم ... أغاروا إذ رأوا منا انفتارا
فعاقبناهمُ لكمال عَشْر ... ولم نجعل عقابَهمُ ضِمارا
وأطفأْنا شِهابَهُم جميعاً ... وشُبَّ شِهابُ تغلبَ فاستنارا
فلا ترجوا العيونَ لتنزلوها ... ولا الرَّهَواتِ والتمسوا المغارا
وسيرى يا هَوازنُ نحو أرض ... بها العذراءُ تَتْبع القُتارا
فإنَّا حيث حَلَّ المجدُ يوماً ... حللْناه ، وسرنا حيث سارا [1]

ويقرر منع المضرية من اجتياز ديار ربيعة ، ويصور انتقام قومه من القيسية :

لا يجوزَنَّ أرضَنا مُضرىٌّ ... بخفير ولا بغير خفيرِ
واسألوا الناس يامعاشرَ قيسٍ ... لمنِ الدارُ بعد جَهْد النَّفير
يومَ أفضَى إليكمُ بزُمَيل ... فى خَميس من الزحوف جَرُور
فصبَحْناكم صوارمَ بِيضًا ... قبلَ صوتِ الإمام بالتكبير
فانتقمنا الذى أتِى صاحباكم ... ثَمَّ دَيْناً معَجَّلا فى الأُمور
وشهدتم من الأراقم وقعاً ... صادقَ البأْس ليس بالتعذير
بخَميسٍ ومِقنَبٍ ليس فيه ... غيرُ وقعِ السيوف فوق القَتير
كم ترى من مقاتل وقتيل ... بسِنانٍ بعامل مكسور

(١) الشذر الذهبى ، ص ٢٩ — ٣٢ .

ورءوسٍ من الرجال تَدَهْدَى وجــوادٍ بَسرجه مَعْقور
ثم فاءت سيوفُنا حين أُبْنا بجميل من البلاء فخور(١)

ويعتز بتغلبيته لا يريد بها بدالا ، ويعتد بقومه لا يعدل بهم إلا قريشاً ، ويفتخر بنفوذهم فى الشام والعراق ، ويتغنى بانتصارهم على أعدائهم من قيس :

ألم تَر أن عودِى تَغْلِبىٌّ نُضارٌ هزَّهُ كرمٌ فطـالا
فَسَلْنى بالكرام فإن قومى كـرامٌ لا أريد بها بدالا
وقومى تَغْلب والحىَّ بكر فمَنْ هـذا يوازننا فِضالا
تُصان حلومُنـا وتَرى علينا ثيابَ الخز تُبتذل ابتذالا
فكم من قائل قد قال فينا فـلم نتركْ لذى قِيل مقالا
فَسَلْ عنا فإن تنظر إلينـا ترى عَددًا وأحلاماً ثقالا
هما ابنا وائلٍ بحْرانِ فاضا جرى بالناس موجُهما فسالا
فمن يَعْدِلْ بنا إلا قريشٌ ألسنا خيرَ من وَطِئَ النعالا
ألسنا من دمشقَ إلى عُمانٍ ملأْنا البر أحيـاء حلالا
ودِجْلةَ والفراتَ وكلَّ وادٍ إلى أن خالط النَّعَمُ الجبالا
وشارفْنـا المدائِنَ فى جنود لنـا منهن أكثرُها رجالا
تناضلْنـا وحل الناسُ عنا فما قامت لنا قيس نضالا(٢)

وكان يصور فى أثناء هذا كله ما جرى فى هذه الحروب من سبى وقتل وتمثيل ، ويفخر بما كان لقبيلته من أمجاد فى الجاهلية ، وبما لها من بلاء فى الإسلام(٣) ، فارتفعت بذلك منزلته فى تغلب ، واحتل بين رجالها مكان الزعامة ، وأصبح لسانها الذى ينافح عنها ويرد على أعدائها ، وارتضت به بكر بن وائل حكماً ، فكان

---

(١) نفس المصدر ، ص ٦ و ٧ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٠ — ١٢ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٥ — ٧ و ١٠ — ١٢ و ٢٩ — ٣٢ .

يدخل المسجد ، فيقدمون إليه ، ويرضون بحكمه إذا تشاجروا فى شىء[1] .

وقد اصطبغت هذه الحروب التى قامت بين قيس وتغلب بصبغتين ، إحداهما سياسية تعمل لمصلحة الخلافة ، والأخرى قبلية تستهدف صالح القبيلة . وكانت مصلحة تغلب الاقتصادية تتفق ومصلحة الأمويين السياسية . فكان من صالح تغلب ألا تنتشر الدعوة لابن الزبير فى أرض الجزيرة لأن فى انتشارها تضييعاً لمكانتهم التجارية بين الهند والشام . وكان من سياسة الدولة الأموية أن تقضى على دعاة ابن الزبير وتستعيد نفوذها القديم على المناطق التى يسيطر عليها الزبيريون . وبذلك جمعت المصلحة الاقتصادية والسياسية بين تغلب وبنى أمية ، فأصبح القيسية أعداء لأولئك كما كانوا أعداء لهؤلاء . ولم يكن البيت المروانى قد استكمل عدته بعد فى السنوات الأولى من خلافة عبد الملك بن مروان ، حتى يستطيع تسيير الجيوش إلى دعاة ابن الزبير فى الجزيرة والعراق ، فلما وقفت تغلب فى وجه القيسية بالجزيرة ، شغلتهم عن الأمويين فى الشام ، وهيأت لعبد الملك أن يوطد فى الشام مركزه ،

---

(١) يرى الدكتور محمد حسين أن الأخطل فى خلافة يزيد بن معاوية لم يعد صديقاً ليزيد فحسب ، ولكنه أصبح ذا منزلة كبيرة عند البيت السفيانى ، وأن هذه المنزلة الكبيرة التى ظفر بها فى الدولة ، رفعت من شأنه فى قبيلته حتى احتل منها على عهد هذا البيت مكان الزعامة . ويستشهد على علو منزلة الأخطل فى الدولة بقصيدته الدالية « تكد » ، وعلى ارتفاع منزلته فى القبيلة بأبيات من شعره ومجموعة من الروايات ، يطالعنا منها الأخطل ساعياً فى حقن الدماء ، قائماً بحمل الديات ، مستعيناً على ذلك ببعض الأشراف والوجهاء . ويخلص من ذلك إلى أن هذه المنزلة الكبيرة التى ظفر بها الأخطل فى الدولة والقبيلة معاً ، كانت ذات أثر عظيم فى توجيه سياسة تغلب فى أيام الفتنة وتعليق مصالحها بقيام البيت المروانى (الهجاء والهجاءون فى صدر الإسلام ، ص ٦٣ — ٦٩) .

والقول بأن الأخطل احتل منزلة « كبيرة » فى الدولة على عهد يزيد بن معاوية سابق لأوانه ، فليس هناك مايؤيده من شعر الأخطل أو ما يسنده من الروايات التى بين أيدينا . وقد رجحنا فى الفصل السابق أن داليته « تكد » قد نظمت فى مدح عبد الله بن معاوية على عهد بنى مروان لا فى يزيد بن معاوية على عهد البيت السفيانى . وسنرى فى الفصل التالى أن الأخطل لم يظفر بهذه المنزلة « الكبيرة » إلا فى خلافة عبد الملك بن مروان . والاستشهاد على ارتفاع منزلة الأخطل فى القبيلة بهذه الحمالات التى كان يقوم بها عن قومه ، وبالأشعار التى كان ينظمها فى هذا الشأن ، سابق لأوانه أيضاً ، فلم تحمل هذه الحمالات ولم ينظم ما ورد فى شأنها من شعر إلا فى أيام الفتنة أو عقبها . وبخاصة فى الفترة التى تولى فيها بشر بن مروان إمرة العراق . وإذن ، فلا محل للقول بأن منزلة الأخطل فى الدولة والقبيلة على عهد البيت السفيانى كانت ذات أثر « عظيم » فى توجيه سياسة تغلب فى أيام الفتنة وتعليق مصالحها بقيام البيت المروانى .

وأن يعد العدة للقضاء على الثائرين فى الشرق .

وليس هناك من شك فى أن بنى تغلب قد لقوا فى هذه الحروب من الهزيمة أكثر مما ظفروا به من نصر[١] . وقد صبروا على بطش القيسية ، حتى أعد عبد الملك عدته ، وأزمع المسير بنفسه إلى العراق ، ليعيد إلى الأمويين ما كان لهم من نفوذ وسلطان . ولم يغب عن فطنة الخليفة المروانى أمر القوة التى يسيطر بها دعاة ابن الزبير فى الجزيرة ، فاتجه يريد القيسية قبل أن يلتقى بمصعب بن الزبير ، وحاصرهم بقرقيسياء ، وما زال بهم حتى أسلم زعيمهم زفر بن الحارث نفسه .

وجهد عبد الملك فى أن يصلح بين قيس وتغلب ، فجمع رؤساءهم ، وسعى بالصلح بينهم . فقبل التغلبيون على مضض ، وكفوا عن القتال مكرهين ، وعقد الصلح بينهم وبين قيس على دخن . وبعد أن أخذ عبد الملك لنفسه البيعة من أهل الجزيرة ، استأنف طريقه إلى العراق ، وقاتل مصعباً قتالا شديداً ، أسفر عن هزيمة الزبيرية ومقتل مصعب وابنه عيسى ، وبايع له أهل العراق ، ولم يبق غير عبد الله بن الزبير ، رأس الفتنة فى الحجاز ، فبعث إليه بالحجاج ، ليلقى على يده مصرعه ، ويسدل على فتنته الستار .

وقد احتبس الأخطل فى الجزيرة طوال هذا الصراع السياسى القبلى العنيف ، وشغل بحروب قومه ضد القيسية عن تحقيق مطامعه فى الشام ، وانهمك فى الدفاع عن قبيلته بشعره حتى أحلته بين رجالها أعلى مكان . ولم يستأنف صلته بالأمويين حتى أخمد عبد الملك فتنة ابن الزبير فى الجزيرة والعراق ، فشد ركابه إلى الشام ، وأقبل على هذا البيت الأموى الجديد ، يشد أزره هذا السجل الحافل بالكفاح والشعر ، فى مؤازرة بنى أمية ومناوأة دعاة ابن الزبير .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ص ٤ – ٩ .

الفصل الثانى

صلة الأخطل بالبيت المروانى

الأخطل يستأنف صلته بالأمويين – الأخطل وزعماء القيسية – يوم البشر – الأخطل يتهدد عبد الملك والأمويين – عبد الملك يحكم الصلح بين قيس وتغلب – صلة الأخطل بعبد الملك بن مروان – الأخطل شاعر بنى أمية – الأخطل وشخصية عبد الملك – شعر الأخطل فى عبد الملك – صلة الأخطل ببشر بن مروان – الأخطل وشخصية بشر – بشر ونقائض جرير والأخطل – شعر الأخطل فى بشر – الأخطل وخالد بن أسيد – الأخطل وعبد الله بن سعيد – الأخطل وأبو بكر وعمر ابنا عبد العزيز – الأخطل وهشام بن عبد الملك – صلة الأخطل بالوليد بن عبد الملك – شعر الأخطل فى الوليد – الأخطل وشخصية الوليد – الأخطل يفقد منزلته فى عهد الوليد – وفاة الأخطل فى عهد الوليد .

وفد الأخطل إلى دمشق بعد هذا الصراع الدموى العنيف رجلا قد حنكته التجارب وعجمت عوده الأحداث ، وطرق باب هذا البيت الأموى الجديد زعيماً قبلياً معلم المكانة فى قومه ، وشاعراً قد خبر ضروب الشعر وتمكن من فن القريض . واتصل بعبد الملك بن مروان طامعاً فى عطائه ورفده ، مؤيداً لسلطانه وملكه ، فلقى منه الصدر الرحيب ، وظفر عنده بالإعجاب والتقدير . وكان موتوراً لما أصاب قومه على يد القيسية من قتل وتمثيل ، فأبى فى مستهل صلته بالبيت المروانى إلا أن يتحداهم ويتحرش بكبار زعمائهم فى البلاط .

وكان زفر بن الحارث أول هدف للأخطل من زعماء قيس ؛ فقد اشتد عليه أن يعفو عبد الملك عن هذا الزعيم القيسى ، وأن يفسح له فى مجلسه مكاناً ، فلم يتوان عن تذكيره بما قاله من شعر يقطر بالعداء ، ودخل عليه ، فقال :

وكأسٍ مثلِ عين الدِّيك صِرْفٍ ... تُنَسِّى الشاربين لها العقولا
إذا شَرِب الفتى منها ثلاثاً ... بغير الماء حاول أن يطولا
مَشَى قُرشِيَّةً لا شكَّ فيها ... وأرخَى من مآزره الفُضولا

فقال عبد الملك : « ما أخرج هذا منك يا أبا مالك إلا خطة فى رأسك » ، فقال : « أجل والله يا أمير المؤمنين ، حين تجلس عدو الله هذا معك على السرير » وهو القائل بالأمس :

وقد يَنْبُتُ المَرْعَى على دِمَن الثَّرى وتَبْقَى حزازاتُ النفوس كماهِيا »

فقبض عبد الملك رجله ، ثم ضرب بها صدر زفر ، فقلبه عن السرير ، وقال : « أذهب الله حزازات تلك الصدور » ، فقال زفر : « أنشدك الله يا أمير المؤمنين والعهد الذى أعطيتنى » ، فأمسك عنه عبد الملك ، وكانت لحظة قاسية انتقم فيها الأخطل من عدوه وعدو قومه[1] .

وكان الجحاف بن حكيم هدف الأخطل الثانى من زعماء قيس . فقد كان قومه بنو سليم أشد قبائل قيس إيقاعاً بتغلب ، وعلى يد قائدهم عمير بن الحباب ذاق قوم الأخطل طعم الذل والهزيمة . فحدث أن أقبل الأخطل يوماً على عبد الملك وعنده وجوه قيس وفيهم الجحاف ، فقال عبد الملك : « أتعرف هذا ؟ » ، قال : « ومن هو ؟ » ، قال : « الجحاف بن حكيم » ، فاندفع الأخطل يتهدده ويتحداه :

ألا سائلِ الجَحَّافَ هل هو ثائر بقتلى أصيبت من سُلَيم وعامرِ
أجحافُ إن تصْطكَّ يوماً فتصطدمْ عليك أواذِىُّ البحورِ الزواخر
تَكنْ مثلَ أقذاء الحَباب الذى جرى به الماءُ أو جارِى الرياح الصَّراصر
لقد حان كلُّ الحَيْنِ من رام شاعرًا لدى السَّوْرة العُليا عَلا كلَّ شاعر
يصول بمَجْر ليس يُحصَى عديدُه ويَنْدَر منه ساجيا كلُّ ناظر

فتقبض وجه الجحاف فى وجه الأخطل ، وقال : « ظننت أنك يا بن النصرانية لم تكن تجترئ على ولو رأيتنى لك مأسوراً .

بَلَى سوف نبكيهم بكل مهنَّد ونبكى عُميرًا بالرماح الخواطر »

ثم وثب يجر مطرفه وما يعلم من الغضب . وأحس عبد الملك بخطورة الموقف

---

(١) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٢٩٦ و ٢٩٧ .

فقال للأخطل : « ما أحسبك إلا قد كسبت قومك شراً »[١] .

وصدق عبد الملك فيما توقعه من ثورة الجحاف ، فقد أثار هذا الزعيم القيسي قومه بالجزيرة ، وجمع من القيسية نحو ألف فارس ، بيت بهم بني تغلب وهم بـ (البشر) غربي الفرات ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ، وبقر أصحابه من النساء من كانت حاملا ، ومن كانت غير حامل قتلوها . ووقع الأخطل نفسه في أيدي القيسية وعليه عباءة دنسة ، فظنوه عبداً وأخلوا سبيله ، وقتل في هذا اليوم أحد أبنائه . وكانت مذبحة لم تشهد لها تغلب مثيلا ، وكان الأخطل سبب هذه النكبة التي حلت بقومه[٢] .

على أن الأخطل ، فيما يبدو ، لم يكن يتوقع من الجحاف أن تبلغ به الجرأة إلى أن ينقض الصلح الذي عقده عبد الملك بين قيس وتغلب . فلما غدر القيسية بتغلب يوم البشر ، بدا له أن الخليفة لابد منتصف لقومه . غير أن عبد الملك أخلف ظنه ، فلم يمس القيسية بسوء . فآلم بني تغلب أن يروا منه هذا التهاون ، وغاظ الأخطل أن يتباطأ عن الانتصاف لقومه ، فأعرض عن دمشق ، وشد ركابه إلى البصرة ، ومدح واليها خالد بن أسيد بقصيدة ، أخذ يهدد في آخرها البيت المرواني بانفصال تغلب عن حزب الأمويين ، ويعرض بتهاون عبد الملك في نصرة قومه ، ويتهمه بمساعدة الجحاف بن حكيم ، ويطلب في لهجة شديدة أن يثأر الأمويون لبني تغلب ، وإلا تحولوا عنهم وخرجوا عن طاعتهم وأصبحوا أحراراً في الدفاع عن أنفسهم :

لقد أوقع الجحّافُ بالبِشْر وقعةً ... إلى الله منها المُشتكى والمُعَوَّل

فسائِل بني مروانَ ما بالُ ذمّةٍ ... وحبلٍ ضعيفٍ لا يزال يُوَصَّل

بنزوة لصٍّ بعد ما مر مُصْعَبٌ ... بأشعثَ لا يُفْلَى ولا هو يُغْسَل

أتاك به الجحّــافُ ثم أمرتَه ... بجيرانكم عند البيوتِ تُقَتَّل

لقد كانَ للجيران مالو دعوتمُ ... به عاقِلَ الأرْوَى أتتكم تَنَزَّل

فإن لا تُغَيِّرْها قريشٌ بملكها ... يكنْ عن قريش مُسْتَماز ومَزْحَل

---

(١) شعر الأخطل ، ص ٢٨٦ و ٢٨٧ ؛ أبو الفرج : الأغاني ، جـ ١١ ص ٥٦ و ٥٨ .
(٢) أبو الفرج : الأغاني ، جـ ١١ ص ٥٦ و ٥٧ .

ونَغْرُزُ أناساً عَرَّةً يكرهونها ونحيا كراماً أو نموتُ فنُقتل
وإن تَحْمِلوا عنهم فما من حَمَالة وإن ثَقُلتْ إلا دمُ القومِ أثقل
وإن تَعرِضوا فيها لنا الحق لم نكن عن الحقِّ عُمْياناً بل الحقَّ نسأل
وقد تنزلُ الثَّغرَ المَخُوفَ ويُتَّقى بنا البأْسُ واليومُ الأغرُّ المحجَّل[1]

وهى أبيات شديدة اللهجة ، لم يتورع فيها الأخطل عن الاتهام الصريح ، أو يتحرج عن التهديد والوعيد . وكان لها أبعد الأثر فى نفس عبد الملك ، فأهدر دم الجحاف وصمم على قتله . وخاف الجحاف أن يبطش به عبد الملك ، فهرب إلى بلاد الروم . ولم يثن الخليفة عن عزمه سعى القيسية فى طلب العفو عنه ، ولم يتزحزح عن رأيه إلا بعد أن أتت الأخبار بأن الروم يتنصرون على الثغور بمساعدته . فرأى أن يؤمنه على أن يقوم بحمل دية قتلى البشر عقاباً له وتأديباً . وكان الحجاج قد ولى أثناء ذلك إمرة العراق ، فاستعان به الجحاف على ذلك . واهتم الخليفة بإحكام الصلح بين قيس وتغلب ، فأمر ابنه الوليد ، فحمل ما كان بينهما قبل ذلك من دماء[2] . وبذلك سكنت غضبة تغلب ، وهدأت ثورة الأخطل ، فأقبل إلى دمشق ليستأنف صلته بالبلاط .

منذ ذلك الوقت ، توثقت صلة الأخطل بعبد الملك بن مروان ، وأخذ يرقى سلم الشهرة والنبوغ ، وارتفعت منزلته بين الشعراء الوافدين على دمشق ، فكان يجالس الخليفة ، ويطارحه الشعر ، ويناقله أخبار الشعراء[3] . ولم يأل جهداً فى أن يقدم إليه خلاصة فنه ، ويعتصر عبقريته فى مدحه والتنويه بشأنه . ولم يتمالك عبد الملك ، حين أنشد بين يديه « خف القطين » ، أن قال : « هذه المزمرة . والله لو وضعت على زبر الحديد لأذابتها . ويحك يا أخطل ! أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟ » ، فقال الأخطل : « أكتفى بقول أمير المؤمنين » . واعترف به عبد الملك شاعراً لبنى أمية ، فقال : « إن لكل قوم شاعراً ، وإن

---

(١) شعر الأخطل ، ص ١٠ و ١١ .
(٢) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ١١ ص ٥٧ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٨٨ .

الأخطل شاعر بنى أمية » . وخرج به مولى له على الناس ، وهو يقول : « هذا شاعر أمير المؤمنين . هذا أشعر العرب »[1] . فأصبح الأخطل بذلك شاعر الخلافة ، واحتل من نفس عبد الملك مكاناً عظيماً ، حتى غدا يدخل عليه بغير إذن ، فيشق صفوف المنتظرين من كبار الدولة ورؤساء القبائل ، وعلى صدره صليبه الذهبي ولحيته تنفض خمراً[2] .

وكان عبد الملك يتبسط مع الأخطل ، فيسأله عن حاله ، وكيف نزل وبمن نزل ، وماذا أكل وماذا شرب . سأله يوماً ، وكان قد نزل على ابن سرجون كاتبه : « على من نزلت ؟ » ، قال : « على فلان » ، قال : « قاتلك الله ! ما أعلمك بصالح المنازل ! فما تريد أن ينزلك ؟ » ، قال : « درمك من درمككم هذا ، ولحم وخمر من بيت رأس » ، فضحك[3] . بل كان يعرف عن سلوكه خارج البلاط ما يستطيع معه أن يتصور حاله ومكانه حين ينزل بدمشق . أصبح يوماً فى غداة باردة ، فتمثل قوله :

إذا اصْطَبح الفتى منها ثلاثاً بغير الماء حاول أن يَطُولا
مَشَى قُرَشِيَّةً لا شك فيها وأرخَى من مآزره الفُضولا

ثم قال : « كأنى أنظر إليه الساعة مجلل الإزار ، مستقبل الشمس ، فى حانوت من حوانيت دمشق » ، ثم بعث رجلا يطلبه ، فوجده كما ذكره[4] . وبلغ من تسامح عبد الملك أنه كان كثيراً ما يتغاضى عن إسرافه فى شرب الخمر بحوانيت دمشق ، ولا يجد غضاضة فى تذوق خمرياته ، ويسمح له بالدخول عليه مخموراً ، فينشده شعره الخمرى[5] . وقد حاول يوماً أن يصرفه عن شرب الخمر ، ويقنعه باعتناق الإسلام ، فتخلص الأخطل من طلبه ، وأخذ حديثه مأخذ الدعابة ، فقال :

ولستُ بصائمٍ رمضانَ طَوْعا ولستُ بآكلٍ لحمَ الأَضاحى

---

(١) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٨٧ و ٢٨٨ و ٢٩٤ و ٣٠٧ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٩٩ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٩٥ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٨٩ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٩٦ ، ٣٠٦ و ٣١٧ .

ولستُ بزاجرٍ عنساً بَكورًا إلى بطحاء مكةَ للنجاح
ولستُ بقائم أبدًا أنادى قُبيلَ الصبح حيَّ على الفلاح
ولكنّى سأشربُها شَمولا وأسجُد عند مُنبَلَج الصباح[١]

وداعبه عبد الملك يوماً فى معرض الحديث عن الخمر ، فقال : « وما تصنع بها وإن أولها لمر وإن آخرها لسكر ؟ » ، فقال : « أما إذ قلت ذلك ، فإن فيما بين هاتين لمنزلة ما ملكك فيها إلا كعلقة ماء من الفرات بالإصبع » ، فضحك عبد الملك ، وطلب إليه أن يقول فى ذلك شعراً ، فقال :

إذا ما نَديمى عَلّنى ثم علّنى ثلاثَ زجاجاتٍ لهنَّ هَديرُ
خرجتُ أجرُّ الذيلَ زَهْوًا كأننى عليك أميرَ المؤمنينَ أميرُ[١]

وتمادى الأخطل يوماً فى حضرته ، فطلب إليه خمراً يستعين بها على الإنشاد ، فانتهره بشدة ، وقال : « أو عهدتنى أسقى الخمر لا أم لك ؟ لولا حرمتك بنا لفعلت بك وفعلت »[٢] . وقد حاول عبد الملك أن يقنعه باعتناق الإسلام ، وأغراه على ذلك بالعطاء ، فقال : « ألا تسلم ، فنفرض لك فى الفىء ، ونعطيك عشرة آلاف ؟ » ، فاشترط الأخطل أن يحل له الخمر ويضع عنه صوم رمضان ، فرفض عبد الملك ، وقال : « إن أنت أسلمت ثم قصرت فى شىء من الإسلام ، ضربت الذى فيه عنقك »[٣] . وهذه الغيرة الدينية من عبد الملك إنما كانت أثراً من آثار تربيته الأولى فى الحجاز . فقد طلب العلم هناك فى صدر شبابه ، فحفظ القرآن ، وروى الحديث ، ولقن الأشعار ، وتتبع الأخبار ، حتى قال عنه نافع : « لقد رأيت عبد الملك بن مروان وما بالمدينة شاب أشد تشميراً ولا أطلب للعلم منه »[٤] ، كما سمع من عثمان وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى وجابر بن عبد الله وغيرهم من الصحابة ، وجالس

---

(١) شعر الأخطل ، ص ١٥٤ .
(٢) أبو الفرج : الأغانى ، ج ٨ ص ٢٩٤ .
(٣) شعر الأخطل ، ص ١٥٣ .
(٤) ابن سعد : الطبقات الكبير ، ج ٥ ص ١٧٤ .

الفقهاء والعلماء وحفظ عنهم ، حتى عد أحد فقهاء المدينة ، وسمى حمامة المسجد لمداومته تلاوة القرآن[1] . فلما ولى الخلافة ، اضطرته السياسة وطلب الدنيا إلى ألوان من التسامح ، ربما أوخذ عليها من الوجهة الدينية ، وبخاصة حين تتعلق بموقفه كخليفة من نصرانى كالأخطل .

وقد اجتمعت للأخطل عدة عوامل هيأت له السبيل فى أن يحتل من نفس عبد الملك هذه المنزلة الكبيرة :

فقد اتصل بعبد الملك بعد القضاء على فتنة ابن الزبير بالجزيرة والعراق . وكان عبد الملك ساخطاً على القيسية أشد السخط لأنهم كانوا عوناً لابن الزبير على الأمويين . وليس أدل على شعوره نحوهم مما رواه الجاحظ ، قال : دخل رجل من قيس عيلان على عبد الملك بن مروان ، فقال : « زبيرى عميرى ! والله لا يحبك قلبى أبدا »[2] . وبعد أن قضى عبد الملك على عبد الله بن الزبير فى الحجاز ، وأسدل على فتنته الستار ، لم يدع فرصة تمر دون أن ينال منه ويندد بدعاته ، وكان يشجع على ذلك الوافدين عليه فى دمشق ويرتاح إليه . ولم يكن له من حديث يقطع به وقته غير هذه الفتنة التى ابتلعت من خلافته سنوات . وقد ضاق عروة بن الزبير يوماً فى أحد مجالسه حين رأى الحاضرين ينالون من أخيه عبد الله نيلا شديداً ، فانتهره عبد الملك بغلظة ، وقال : « إن أخاك لم يكن قتلنا إياه لعداوة ، ولكنه طلب أمراً وطلبناه ، فقتل دونه . وإن الشام قوم من أخلاقهم أن لا يقتلوا أحداً إلا شتموه . فإذا أذنا لأحد قبلك ، فقد جاء من يشتمه ، فلا تدخل ، وإذا أذنا لأحد وأنت جالس ، فانصرف »[3] .

وبلغ من غضب عبد الملك على دعاة ابن الزبير أنه كان لا يسمع من شعراء مضر ولا يأذن لهم لأنهم كانوا زبيرية . ولم يأذن لجرير بالدخول عليه إلا بعد أن أكد له الحجاج أنه لم يكن ممن والى ابن الزبير ولا نصره بيده ولا لسانه[4] ؛

---

(١) نفس المصدر ، جـ ٥ ص ١٦٧ – ١٧٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٩ ص ٦٢ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ ١ ص ٢٨٩ .

(٣) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ١٦ ص ٤٤ و ٤٥ .

(٤) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٦٦ .

وكان إسماعيل بن يسار النسائى منقطعاً إلى آل الزبير وإلى عروة خاصة ، فكان بذلك زبيرياً لم ير معه عبد الملك غير الإهمال ، فلما استأذن فى الإنشاد ، قال عبد الملك : « الآن يابن يسار ! إنما أنت امرؤ زبيرى . فبأى لسان تنشد ؟ » ، فاعتذر إسماعيل عن ذلك ، وقال : « يا أمير المؤمنين ، أنا أصغر شأناً من ذلك . وقد صفحت عن أعظم جرماً وأكثر غناء لأعدائك منى . وإنما أنا شاعر مضحك » ، ثم شفع له الوليد بن عبد الملك ، ولم يظفر بالإنشاد إلا بعد إلحاح [١] . ولم ينس عبد الملك ، عام حج ، بعد القضاء على الفتنة ، أن يكافئ أبا العباس الأعمى لهجائه عبد الله بن الزبير . فقد جلس للناس بمكة ، فدخلوا على مراتبهم ، وقامت الشعراء والخطباء فتكلموا . ودخل أبو العباس الأعمى ، فلما رآه عبد الملك ، قال : « مرحباً ! مرحباً بك يا أبا العباس ! أخبرنى بخبر الملحد المحل حيث كسا أشياعه ولم يكسك ، وأنشدنى ما قلت فى ذلك » ، فأخبره بخبر ابن الزبير وأنه كسا بنى أسد وأحلافها ولم يكسه ، وأنشده الأبيات . فقال عبد الملك : « أقسم على كل من حضر من بنى أمية وأحلافهم ومواليهم ثم على كل من حضر من أوليائى وشيعتى على دعوتهم إلا كسا أبا العباس » ، وأمر له عبد الملك بمائة ألف درهم [٢] .

فلا عجب ، وهذا شعور عبد الملك نحو دعاة ابن الزبير ، أن يقدر كل من آزره فى القضاء على دعوتهم ، وأن يقدر بنوع خاص قبيلة تغلب التى أبلت فى مناوأة القيسية أصدق البلاء ، وأن يرحب بشاعرها الأخطل ، فيغدق عليه من بره وعطفه ، ويشجعه على ارتياد البلاط . ولا غرابة ، وقد وفقت السياسة بين القبيلة والدولة فى المصالح ، أن توفق بين الشاعر والخليفة فى المشاعر ، فيحس أحدهما نحو القيسية إحساس الآخر ، وأن يكون لذلك أثره فى توثيق ما بينهما من روابط .

وزاد هذه الصلة توثقاً أن الفرزدق وجريراً ، وهما أخطر منافسين للأخطل فى مضمار الشعر السياسى ، كانا موضع إهمال من عبد الملك . فالفرزدق مغرور شديد الاعتداد بنفسه تياه بنسبه ، وعهد الأمويين بتطاوله على معاوية بن أبى سفيان

---

(١) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٢١ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١٥ ص ٦٠ .

ليس ببعيد[١] ، وقد شغل إلى ذلك بمدح ولاة العراق وهجائهم ، واستنفدت مفاخر قومه مجهوده الشعرى ، واستغرقت مصالح تميم نشاطه السياسى ، فلم يفد على عبد الملك طوال خلافته ، واكتفى بمدحه فى بعض شعره الذى يمثل صلته ببعض العمال[٢] . فلا جرم ، وقد ابتعد هذا الشاعر الكبير عن مقر الخلافة ، أن يزداد نجم الأخطل تألقاً وبزوغاً .

أما جرير ، فكان عبد الملك غاضباً عليه ، لأن قومه بنى يربوع كانوا من دعاة ابن الزبير[٣] ، ولأنه كان يدافع عن القيسية فى شعره ويتغنى بانتصاراتهم ويؤيدهم فيما قاموا به من حروب[٤] . وزاد عبد الملك نفوراً منه أنه بالغ فى مدح الحجاج مبالغة ضؤلت معها شخصية عبد الملك ، حتى تبدى الحجاج وكأنه ملك متوج على العراق ، لا وال من قبل الخليفة بالشام[٥] . وليس أدل على شعور عبد الملك نحوه من أنه لم يسمح له بالدخول عليه إلا بعد عناء شديد . فلما أذن له ، واستأذنه جرير فى الإنشاد ، قال : « وما عساك أن تقول فينا بعد قولك فى الحجاج ؟ ألست القائل :

مَن سَدَّ مُطَّلَعَ النفاقِ عليكمُ ... أم من يَصُول كصَوْلةِ الحجّاج ؟

إن الله لم ينصرنى بالحجاج ، وإنما نصر دينه وخليفته . أو لست القائل :

أم مَن يَغار على النساء حَفيظةً ... إذ لا يَثِقْنَ بغَيْرةِ الأزواج ؟

يا عاض كذا وكذا من أمه ! والله لهممت أن أطير بك طيرة بطيئاً سقوطها . اخرج عنى » ، فأخرج بشر . ثم شفع له بعد ذلك ، فأبى عبد الملك إلا أن ينشده شعره فى الحجاج ، وقال : « لا تنشدنى إلا فى الحجاج ، فإنما أنت للحجاج

---

(١) ديوان الفرزدق ، جـ ١ ص ٤٩ و ٥٦ و ٥٧ .

(٢) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٤ — ٢٧ .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ص ٣٩٠ .

(٤) أبو تمام : نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٧ — ٦٩ و ٨٩ — ٩٦ و ١١٣ و ١٢٤ — ١٢٦ و ١٣٢ و ١٣٣ و ١٤٣ — ١٤٧ و ١٧١ — ١٧٥ و ١٨٤ و ١٨٨ — ١٩٥ و ١٩٧ — ٢٠٨ و ٢١٣ — ٢١٣ .

(٥) ديوان جرير ، ص ١٦ — ١٨ و ٨٩ — ٩١ و ١٢٠ و ١٢١ و ٣٩٧ — ٣٩٩ و ٤٣٩ — ٤٤٢ .

خاصة » ، فسأله جرير أن ينشده مديحه ، فأبى وأقسم ألا ينشده إلا من قوله فى الحجاج ، فأنشده وخرج بغير جائزة . وأخيراً ، وبعد إلحاح من محمد بن الحجاج ، وتمنع من الخليفة ، أذن عبد الملك لجرير فى أن ينشده مديحه[١] .

فلا عجب ، وهذا شعور عبد الملك نحو جرير والفرزدق ، أن يجد فى الأخطل ضالته . فهذا الشاعر النصرانى كان شديد الولاء للأمويين ، وقومه بنو تغلب كانوا من أنشط القبائل بلاء فى خدمة البيت المروانى . وقد أوتى إلى ذلك من الخبرة فى مضمار الشعر السياسى ما يجعله جديراً بأن يضاهى زميليه ، إن لم يفقهما ، تنويهاً بفضل بنى أمية . ولم يكن بعد أقل من الخليفة ضيقاً بجرير ، لما كان يرميه به من هجاء ، فاتفق الاثنان فى الشعور نحوه ، وحرص الأخطل من جانبه ، إرضاء لعبد الملك وتوثيقاً لصلته به ، على أن يضمن مديحه هجاء خصمه .

وكان الحجاج قيسيًّا من ثقيف ، وقد رأيناه منذ قليل يتحمل ديات قتلى البشر عن الجحاف بن حكيم . ولعل عصبيته فى قيس هى التى دفعت بالأخطل إلى أن يمتنع عن زيارته بالعراق . وقد بقى ممتنعاً عن مدحه حتى نبهه إلى ذلك عبد الملك ، فقال : « ألا تزور الحجاج ، فإنه كتب يستزيرك ؟ » ، فقال : « أطائع أم كاره ؟ » ، قال : « بل طائع » ، قال : « ما كنت لأختار نواله على نوالك ، ولا قربه على قربك . إنى إذاً لكما قال الشاعر :

كمُبتاعٍ ، ليركبَه ، حمارًا تَخيَّره من الفَرَسِ الكبيرِ

فأمر له عبد الملك بعشرة آلاف درهم ، وأمره بمدح الحجاج[٢] ، فامتثل لأمره ومدحه برائيته :

صَرَمتْ حِبالَكَ زينبٌ وقَذُورُ وحِبالهن إذا عَقَدْنَ غُرورُ[٣]

---

(١) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٦٦ و ٦٧ .

(٢) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٩٠ و ٢٩١ .

(٣) وردت قصيدة الأخطل فى الحجاج كاملة فى الديوان . ولم يورد صاحب الأغانى منها غير مطلعها . والمطلع فى الديوان (ص ٧٣) كما أثبتناه . ومطلعها فى الأغانى (جـ ٨ ص ٢٩١) :

صرمت حبالك زينب ورعوم وبدا المجمجم منهما المكتوم

والمأثور أن الأخطل لم يمدح هذا الوالى بغير قصيدة واحدة . فلعل الأمر التبس على من روى عنه أبو الفرج ، فأورد مطلعاً آخر لقصيدة أخرى ، أو أنه لم يحسن حفظ المطلع ، فغير فى عجزه وبدل .

وهى قصيدة قليلة الأبيات ، حرص الأخطل فيها على أن يرضى الخليفة قبل أن يرضى والى العراق ، فبدأ مدحه مشيداً بعبد الملك قبل أن يشيد بالحجاج :

أَخَيِّ الإلهُ لنا الإمامَ فإنه خيرُ البريَّةِ للذنوب غفورُ
نورٌ أضاء لنا البلادَ وقد دَجَتْ ظُلَمٌ تكاد بها الهُداةُ تَجور
الفاخرون بكل يوم صالحٍ وأخو المكارم بالفَعَال فَخور

(ص ٧٤ ب ٧ - ٩)

ثم توجه إليه بالخطاب ، فقال :

فعليكَ بالحجّاجِ لا تَعْدِلْ به أحدًا إذا نزلَتْ عليك أمورُ
ولقد عَلِمْتَ وأنت أعلمُنا به أنَّ ابنَ يُوسُفَ حازمٌ منصور

(ص ٧٤ ب ١٠ و ١١)

ولم يبالغ فى مدح الحجاج مبالغة جرير ، بل صوره والياً يقوم بما فرض عليه من أعمال ، فيحارب الأعاجم ، وينكل بالخوارج ، ويبلو فى ذلك بلاء يحمد عليه[1]. فلا غرو أن يزداد عبد الملك احتفاء بالأخطل ، وأن يكون لحرص الأخطل على إرضائه أثر كبير فى ارتفاع منزلته .

وزاد الأخطل حظوة عند عبد الملك أنه كان معجباً بشعره مقدراً لفنه . فقد كان الأخطل يحتفل بشعره أشد الاحتفال ، ويعنى بتجويده أبعد العناية . وبلغ من تنقيحه لأشعاره أنه كان ينظم التسعين بيتاً ثم لا يزال بها تنقيحاً حتى يقتصر منها على الثلاثين فيذيعها بين الناس[2] . وليس أدل على كلفه بتهذيب فنه من أنه نظم قصيدته « خف القطين » فى سنة كاملة ولم يبلغ منها ، فيما يزعم ، إلى ما أراد من مدح الخليفة[3]. وما كان عبد الملك ليغفل عن هذه الشاعرية الفذة ، وهو البصير برواية الشعر ونقده ، فقد كان فذًّا فى عالم الشعر والأدب ، كما كان فذًّا فى شئون الدين والسياسة . وتأدى شغفه الشديد بالشعر ، وقوة ذاكرته فى الحفظ إلى أن يكثر من الاستشهاد بالأبيات ، فكان يستشهد بالشعر وهو يخطب على المنبر ، أو إذا

---

(١) شعر الأخطل ، ص ٧٣ - ٧٦ .
(٢) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٢٨٤ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٨٧ و ٢٨٨ .

جلس للقضاء بين الناس ، وكان يستشهد به فى مجالسه الخاصة ، فيطارح به الشعراء والعلماء والرواة ، وكان يستشهد به فى كتبه التى يبعث بها إلى الأمراء والقواد[١] ، وكان شديد الإعجاب بالشعر الجاهلى ، وبشعر النابغة الذبيانى بوجه خاص ، حتى عده أشعر العرب ، كما كان متتبعاً للشعر الجيد حيثما كان[٢] .

وكان يروى لخصومه وأنصاره على السواء . يعجب بشعر كثير ، على تشيعه ، ويقول فيه : « أراه يسبق السحر ويغلب الشعر » ، ويخرجه إلى مؤدب ولده مختوماً يرويهم إياه ويرده[٣] . ويتمثل بأبيات لمحمد بن بشير الخارجى ، رثى بها سليمان ابن الحصين ، ويرددها وهو يبكى[٤] . ويروى شعر إسماعيل بن يسار وعبد الله ابن قيس الرقيات ، وإن كانا من دعاة ابن الزبير[٥] ، ويتتبع شعر جرير وإن كان عليه ساخطاً[٦] . وتبلغه شهرة الشعبى فى الرواية ، فيبعث إلى الحجاج يستقدمه من العراق . ولم يستطع الشعبى أن يبذه فى كثرة محفوظه ، فبرز عليه عبد الملك فى الرواية ، واعترف بذلك الشعبى ، فقال : « ما ذاكرت أحداً إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان ، فإنى ما ذاكرته حديثاً إلا زادنى فيه ، ولا شعراً إلا زادنى فيه »[٧] . واكتسب عبد الملك من هذه الرواية الواسعة دقة بصر بالشعر وقدرة على نقده ، فكان ينتقد الشعراء ، ويفاضل بينهم ، ويوازن بين أشعارهم ، ويعرف أقدارهم معرفة خبير .

فلما اتصل به الأخطل ، وجد منه عبد الملك احتفالا بشعره ، وتجويداً لفنه ، وعناية بعرض صوره ، وميلا شديداً إلى محاكاة من يعجب بهم من فحول الجاهليين ، وأحس أن هذا الشاعر النصرانى يشاركه الإعجاب بالنابغة ، فيترسم خطاه

---

(١) نفس المصدر ، (ط . د) ج ٤ ص ٢٥٤ ؛ ج ٩ ص ١٦٩ – ١٧١ ؛ ج ١١ ص ٧ و ٢٠ – ٢٦ و ٢٥٧ و ٢٥٨ ؛ (ط . س) ج ١٠ ص ١٥٨ و ١٥٩ ؛ ج ١١ ص ٩٣ و ٩٤ و ١٥٢ و ١٥٣ ؛ ج ١٣ ص ٥٦ و ٦٦ ؛ ج ١٤ ص ٨٧ ؛ ج ١٧ ص ١١٩ ؛ ج ١٩ ص ١٤ و ١٠١ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١١ ص ٧ و ٢٠ – ٢٣ ؛ ج ١٤ ص ٩٦ و ٩٧ ؛ ج ١٩ ص ١٠١ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٣ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١٤ ص ١٤٧ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٠٨ – ٤٢٩ ؛ ج ١٧ ص ١٦٧ .

(٦) نفس المصدر ، ج ٨ ص ٦٦

(٧) نفس المصدر ، ج ١١ ص ٢١ – ٢٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٩ ص ٦٣ .

ويبدع إبداعه ، فأقبل عليه واحتفى به ، وازداد له تقديراً وبه إعجاباً حين أنشده « خف القطين » ، فرفع من مكانه واعترف به شاعراً للخلافة ، وكان لعناية الأخطل بفنه أثر كبير فيما ظفر به عند عبد الملك من تقدير وإعجاب .

هذه فيما نرى أبرز العوامل التى هيأت السبيل للأخطل فى أن يحتل من نفس عبد الملك هذا المكان الرفيع ، وفى أن تمتد صلته بهذا الخليفة عدداً من السنين غير قليل ، وفى أن تصبح هذه الصلة أبرز صلاته برجال البيت المروانى .

وكان من فضل هذه الصلة على الأخطل أن رحب به أمراء الأمويين وولاتهم ، وفتحوا له أبواب قصورهم ، فوفد إليهم مادحاً مستثيباً ، وأنتج فى صلته بهم إنتاجاً غزيراً ، فاتصل ببشر بن مروان ، وكاتبه عكرمة بن ربعى الفياض ، واتصل بخالد ابن أسيد ، وعبد الله بن سعيد بن العاص ، واتصل بهشام بن عبد الملك ، والوليد ابن عبد الملك ، وأبى بكر وعمر ابنى عبد العزيز بن مروان . هذا عدا اتصاله برجلين من رجال البيت السفيانى هما عبد الله بن معاوية ، وخالد بن يزيد . فكان فى عهد عبد الملك كثير النشاط غزير الإنتاج .

وكان ينتظر من الأخطل ، وهذا نشاطه وإنتاجه ، أن ينشئ فى مدح عبد الملك من القصائد ما يتفق ووفرة هذا الإنتاج وكثرة نشاطه ذاك . وكان يرجى منه ، وقد دامت صلته به نحو خمسة عشر عاماً ، أن يكون عدد قصائده فيه أكثر من عدد قصائده فى غيره من الأمويين . على أننا لا نظفر من شعره فى عبد الملك بغير قصائد ثلاث[1] ، وبغير تلك الأبيات المتفرقة التى كان يلقيها بين يديه فى معرض الدعابة والمزاح[2] . ولا نستطيع أن نفسر قلة هذا المحصول بأنه كان مضيقاً عليه فى عهده ، كما كان مضيقاً عليه فى عهد معاوية ويزيد ، فقد أعطاه عبد الملك من الحرية وأغدق عليه من التقدير والتشجيع ، ما يدفع به إلى وفرة الإنتاج . ويكفى أن نراه يمدح بشر بن مروان بقصائد خمس فى نحو ثلاث سنوات ، ويمدح الوليد ابن عبد الملك بقصائد خمس أيضاً فى نحو سبعة أعوام ، لنتوقع منه فى صلته بعبد الملك ، وقد دامت نحو خمسة عشر عاماً ، أن يمدحه بأكثر مما مدح به

---

(١) شعر الأخطل ، ص ١٢٨ و ٩٨ و ١٧ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٥٤ و ١٥٥ ؛ أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٢٩٦ و ٣٠٦ و ٣١٧ .

بشراً والوليد . ويغلب على الظن أن الأخطل مدح عبد الملك بأكثر مما وصلنا فيه من أشعار ، وأن جزءاً كبيراً منها أتى عليه الضياع ، فلم يبق لنا غير هذه القصائد الثلاث ، وتلك الأبيات المتفرقات .

وأولى هذه القصائد الثلاث ، فيما نرجح ، هى قصيدته الرائية :

أَلاَ يا اسْلَمِى يا هندُ هندَ بنى بَدْرِ وإن كان حَيَّانا عِدًى آخرَ الدهرِ[1]

ويذكر فيها الصلح بين قيس وتغلب ، ومبايعة القيسية لعبد الملك :

وأنتَ أميرَ المؤمنين وما بنا إلى صلح قيسٍ يا بنَ مروانَ من فقر
فإن تكُ قيسٌ يا بنَ مروانَ بايعتْ فقد وَهِلَت قيس إليك من العُذر

(ص ١٣٣ ب ٣٧ و ٣٨)

مما يدل على أنه قالها بعد أن قضى عبد الملك على الدعوة لابن الزبير فى الجزيرة .

ويعتد فيها بسيطرة قومه على ما بين البشر ومنبج والعراق :

سَمَوْنا بِعِرْنِينٍ أَشَمَّ وعارِضٍ لِنمنعَ ما بين العراقِ إلى البِشْر
فأصبح ما بين العراقِ ومَنْبِجٍ لِتغلبَ تَرْدِى بالرُّدَيْنِيَّةِ السُّمر

(ص ١٤٢ ب ٤٢ و ٤٣)

وقد نكل القيسية ببنى تغلب يوم البشر تنكيلا شديداً ، مما يرجح أنه قالها قبل هذا اليوم ، حين كان قومه يسيطرون على البشر ، أى بين سنة ٧١ و ٧٣ هـ ، وفى الفترة الواقعة بين تسليم زفر وثورة الجحاف .

والأخطل فى هذه القصيدة قريب العهد جداً مما كان بين قومه وقبائل قيس عيلان ، فهو يحتفل بهجاء القيسية ، ويتتبع قبائلهم فى هجائه ، ويفتخر بما كان لتغلب فى حربهم من بلاء :

لقد حَملتْ قيسَ بنَ عَيْلانَ حربُنا على يابسِ السِّيساءِ محدَوْدِبِ الظهر

---

(١) شعر الأخطل ، ص ١٢٨

وقد سرَّنى من قيسِ عيلانَ أننى — رأيتُ بنى العَجْلانِ سادوا بنى بَدْر
وكنتم . بنى العجلانِ ألأمَ عندنا — وأحقرَ من أن تَشهدوا عالِىَ الأمر
وشاركتِ العجلانُ كعباً ولم تكن — تُشارك كعباً فى وفاء ولا غدر
فطاروا شِقَاقاً لاثنتين ، فعامرٌ — تبيع بنيها بالخِصَافِ وبالتمر
وأمّا سُلَيمٌ فاستعاذوا حِذارَنا — بِحَرَّتِها السوداء والجبلِ الوعر
تنِقُّ بلا شىء شيوخُ مُحارِبٍ — وما خِلْتُها كانت تَرِيش ولا تَبْرى
ونحن رفَعْنا عن سَلُولٍ رماحَنا — وعَمْدًا رَغِبنا عن دماء بنى نَصْر
ولو ببنى ذُبْيانَ بُلَّتْ رماحُنا — لقرَّتْ بهم عينى وباء بهم وِتْرى
شفَى النفسَ قتلى من سُليم وعامر — ولم تَشْفِها قتلى غَنِىَّ ولا جَسْر
ولا جُشَم شرُّ القبائلِ ، إنها — كبَيْض القَطا ليسوا بسُودولاحُمر
وما تركتْ أسيافُنا حين جُرِّدتْ — لأعدائنا قيسِ بنِ عيلانَ من عذر
وقد عَركتْ بابْنَىْ دُخانٍ فأصبحا — إذا ما احْزَألاَّ مثلَ باقيةِ البَظْر
وأدرَكَ علمى فى سُوَاءَةَ أنها — تقيم على الأوتار والمشربِ الكدْر
لعَمْرى لقد لا قت سُليم وعامر — على جانب الثَّرْثارِ راغِيةَ البَكر

(ص ١٢٩ – ١٣٢ ب ٥ و ٦ و ٩ و ١٣ و ٢١ – ٢٣ و ٢٥ – ٣١ و ٣٥)

ويحرض عليهم عبد الملك ، مذكراً إياه بما يكنون له من بغض ، ويدعوه إلى نقض ما بينه وبينهم من صلح ، بعد أن أقر له بنو تغلب الأمر بالجزيرة وبعد أن قضى على دعاة ابن الزبير فى العراق :

وأنتَ أميرَ المؤمنــينَ وما بِنا — إلى صُلْحِ قيس يابنَ مروانَ من فَقْر
فإنْ تَكُ قيسٌ يا بنَ مروانَ بايعتْ — فقد وَهِلَتْ قيسٌ إليك من العُذر
على غَيْرِ إسلامٍ ولا عن بصيرةٍ — ولكنهم سِيقُوا إليك على صُغْر
ولـمّا تَبيَّنّــا ضلالةَ مُصْعَب — فتَحنا لأهلِ الشام باباً من النصر

فقد أصبحتْ منا هوَازنُ كلُّها كوَاهِي السُّلامَى زِيدَ وَقْرًا على وقر
سَمَوْنا بعِرْنِينٍ أشمَّ وعارضٍ لنمنعَ ما بين العراق إلى البشر
فأصبح ما بين العراقِ ومَنْبِجٍ لِتَغْلِبَ تَرْدِى بالرُّدَيْنِيَّةِ السُّمر
إليك أميرَ المؤمنينَ نَسيرُها تَخُبُّ المطايا بالعَرانينِ من بكر
برأس امرئٍ دَلَّى سُلَيما وعامرًا وأورد قيساً لُجَّ ذى حَدَبٍ غَمر
فأَسْرَيْنَ خَمساً ثم أصبحن غُدْوَةً يخبِّرْنَ أخبارًا أَلَذَّ من الخمر

(ص ١٢٣ – ١٢٥ ب ٢٧ – ٤٦)

والأخطل فى أثناء هذا كله يعتد بنفسه اعتداداً ، ويشيد بقومه إشادة ، وينشغل عن مدح الخليفة بتصوير هذا الصراع القبلى العنيف ، ويبدو شاعراً قبلياً يعنى بالدفاع عن القبيلة والتغنى ببلائها ، أكثر منه شاعراً سياسياً يعنى بالدفاع عن الدولة والتغنى بفضل الأمويين[١] . وهذا يرجح أنه قالها فى مستهل صلته بعبد الملك ، حين كان شعوره نحو القيسية أقوى ما يكون حدة وعنفاً .

ثم يلى ذلك ، فيما نرجح ، قصيدته الرائية :

خفَّ القَطينُ فراحوا منك أو بكروا وأزعجتْهم نَوًى فى صَرْفِها غِيَرُ[٢]

يروى أبو الفرج أنه قالها فى الفترة التى وفد فيها جرير على عبد الملك من قبل الحجاج[٣] . وقد ولى الحجاج إمرة العراق سنة ٧٥ للهجرة[٤] . مما يدل على أنه قالها بعد هذا التاريخ .

وفى هذه القصيدة تبلغ عبقرية الأخطل قمتها ، فهو يجود فنه فيها تجويداً ، ويتأنى

---

(١) ختم الأخطل قصيدته بهجاء شاعر قيس نفيع بن صفار المحاربى ، فأجابه ابن صفار ، بعد هزيمة تغلب يوم البشر ، برائيته :

ألا حى هنداً بالذبى إلى البشر وكيف تحييها على النأى والهجر

وهاجيه فيها مهاجمة شديدة (أبو تمام : نقائض جرير والأخطل ، ص ٣٨) .

(٢) شعر الأخطل ، ص ٩٨ .

(٣) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٣٠٦ و ٣٠٧ .

(٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ص ٤٠ .

فى عرض صوره تأنياً ، ويقسم أغراضه تقسيما ، ويفصل فى هذه الأغراض تفصيلا ، ويحسن التخلص من غرض إلى غرض إحساناً يشهد له بالأستاذية . ويحتفل بشخصية عبد الملك ، ويطيل فى مدحه ، ويقف وقفات فنية ، يصور فيها كرمه ، ويصور فيها جيشه ، ويصور فيها قومه بنى أمية .

ويبدأ هذا المدح بتقرير حق عبد الملك فى الخلافة ، فهو مؤيد من الله فى الظفر بها ، وهو خليفة الله فى أرضه ، يقوم بأمر الرعية حازماً عازماً ، لا يختله أحد أو يغترّه شيء :

إلى امرئٍ لا تُعرِّينا نوافلُه ... أظفـــره الله فلْيَهْنَى له الظَّفَرُ

الخائضُ الغَمْرَ والميمونُ طائرُه ... خليفةُ الله يُستسقَى به المطر

والهمُّ بعد نَجِيِّ النفس يبعثُه ... بالحزم والأَصْمعانِ القلب والحذر

والمستمرُّ به أمرُ الجميع فما ... يغتَرُّه بعد توكيدٍ له غَرَر

(ص ١٠١ ب ١٨ – ٢١)

وبذلك يستهل مدحه استهلالا سياسيًّا يؤكد به جدارة ممدوحه بالملك وأحقيته بالخلافة .

ثم يلتفت إلى كرم عبد الملك ، فإذا هو يفوق الفرات كرماً وجوداً :

وما الفراتُ إذا جاشتْ حوالِبه ... فى حافتيه وفى أوساطه العُشر

وذَعْذَعتْه رياحُ الصيف واضطربت ... فوق الجآجِئِ من آذِيِّه غُدُر

مسْحَنْفِرٌ من جبال الرُّوم يَستُره ... منها أكافيفُ فيها دونَه زَوَر

يوماً بأجودَ منه حين تَسأله ... ولا بأجْهرَ منه حين يُجْتهر

(ص ١٠١ و ١٠٢ ب ٢٢ – ٢٥)

وهى استدارة فنية جميلة تذكرنا باستدارات النابغة والأعشى .

ويمتدح نصحه له وحبه لقومه ، فإذا هو مبق على الشاعر ، مقدر لبنى تغلب ، غير مهتم لمن يشى به عنده :

ولم يزَلْ بك واشيهم ومكرُهمُ ... حتى أشاطوا بغيبٍ لحمَ من يَسروا

فلم يكن طاوياً عنا نصيحتَه ولى يلبيه بدُنيا دونَنا حَصر

(ص ١٠٢ ب ٢٦ و ٢٧)

فينبه بذلك عبد الملك فى لباقة إلى أن يضع سعى الوشاة دبر أذنه ، حتى يأمن على نفسه ويحتفظ بمكانه .

ثم يصور عبد الملك مجاهداً أعداءه مثبتاً أركان ملكه ، فإذا هو قوى باطش ، يغشى القناطر يبنيها ويهدمها ، وإذا هو شجاع فارس ، يتقدم جيوشه ويوقع بأعدائه ، وإذا هو قوى الشكيمة والبأس ، قد رد المارقين إلى الصواب ، وهدى الضالين إلى الحق ، وإذا العراق قد استقام له أمره واستكان له أهله :

نَفْسى فداءُ أميرِ المؤمنينَ إذا أبْدَى النواجِذَ يومٌ باسلٌ ذَكَر

مفترشٌ كافتراش اللَّيث كلكله لِوقعةٍ كائنٍ فيها له جَزَر

مقدِّمٌ مائتى ألفٍ لمنزلهِ ما إن رأى مثلَهم جنٌّ ولا بشر

يغشَى القناطرَ يبنيها ويَهْدِمُها مسوَّمٌ فوقه الراياتُ والقتَر

حتى يكونَ لهم بالطَّفِّ مَلْحمةٌ وبالثويَّةِ لم يُنْبَض بها وَتر

وتستبينَ لأقـوام ضلالتُهم ويستقيمَ الذى فى خدِّهِ صَعر

ثم استقلَّ بأثقال العراق وقد كانت له نِقْمةٌ فيهم ومُدَّخر

(ص ١٠٣ و ١٠٤ ب ٢٨ — ٣٤)

ثم يفرع من هذا المدح الخاص مدحاً عامًّا يشيد فيه بالأمويين ، فيصورهم وقد حفوا بعبد الملك ، رجالا أفذاذاً هم من قريش فى ذروتها ، ورجالا أطهاراً عيافى الخنا أنفاً ، ويصف غيرتهم على الحق وشدتهم فى مقارعة الخطوب ، ويذكر تأييد الله إياهم فى الملك ، ويمدح شكرهم للنعمة وعدم بطرهم بالخير ، ويصف ما أثر عنهم من بطش فى الغضب ، وما عرف عنهم من حلم فى القدرة ، ويشيد بما أثر عنهم من بلاء فى الحروب ، ويتغنى بما تحلوا به من صفات الكرم والجود ، ويعترف بما لهم عليه من أفضال :

في نَبْعةٍ من قريش يَعْصِبون بها ... ما إن يُوازَى بأعلى نبتها الشجر
تعلو الهضابَ وحلُّوا في أرومتها ... أهلُ الرِّياء وأهل الفخر إن فخروا
حُشْدٌ على الحق عيّافو الخنا أُنُفٌ ... إذا ألمتْ بهم مكروهةٌ صبروا
وإن تَدَجَّتْ على الآفاقِ مُظْلمةٌ ... كان لهم مَخْرج منها ومُعْتَصر
أعطاهمُ الله جدًّا يُنْصَرون به ... لاجَدٌّ إلا صغيرٌ بَعْدُ محتقر
لم يَأْشَروا فيه إذ كانوا مواليَه ... ولو يكونُ لقوم غيرِهم أَشِروا
شمْسُ العداوة حتى يُسْتقادَ لهم ... وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قَدروا
لا يستقِلُّ ذوو الأضغان حربَهُمُ ... ولا يُبَيِّنُ في عيدانهم خَوَر
همُ الذين يُبارون الرياح إذا ... قلَّ الطعامُ على العافِين أو قَتروا
بنى أميَّةَ نُعْماكم مجلِّلَةٌ ... تمَّتْ فلا مِنَّةٌ فيها ولا كدر

(ص ١٠٤ و ١٠٥ ب ٣٥ – ٤٤)

وبذلك استطاع أن يخرج في هذا الحشد من الأبيات صورة لبيت المرواني، أقل مايقال فيها أنها صورة ممتازة، فيها دقة الفن ووحي العبقرية وجلال التصوير. وهي صورة يحتل منها عبد الملك مكانا بارزا . يحف به قومه في جلال يوقع في النفس الهيبة ويملأ القلب بالإعجاب. ولعله أراد بهذا الاحتفال إلى أن ينافس خصمه جريراً ، وأن يلقى عليه درساً فنيًّا في كيفية مدح الخلفاء . كما أراد أن يشعر عبد الملك بالفرق الكبير بين فنيهما في معرض الروعة والجلال .

وأبى للأخطل فنه إلا أن يمزج مدحه للأمويين وعبد الملك بهجاء أعدائهم وأعداء تغلب من قيس . وأبى له شعوره بنفسه وتقديره لقومه إلا أن يمزج الفخر بالمدح والهجاء ، فافتخر بنفسه باعتباره شاعر الأمويين الذى دافع عنهم وأسكت أعداءهم بشعره، وأشاد بقومه باعتبارهم نصراءهم الذين أخلصوا لهم وأيدوا دعوتهم.

إذن ، فليذكر الأمويون فضله حين ناضل دونهم الأنصار ، فأفحمهم بشعره وأذلهم بهجائه :

بني أميَّةَ قد ناضلْتُ دونَكمُ ... أبناء قومٍ همُ آوَوْا وهمْ نَصروا

أفحمتُ عنكم بنى النّجار قد علِمتْ عُلْيا مَعدٍّ وكانوا طالما هَدَروا
حتى استكانوا وهمْ مِنّى على مَضَض والقولُ يَنفُذ مالا تَنفُذ الإبر
(ص ١٠٥ ب ٤٥ – ٤٠)

وليذكر الأمويون أن عدوهم زفر بن الحارث يعيش بينهم آمناً مطمئناً ، فأولى بهم أن يتخلصوا من شره ، ويأمنوا على أنفسهم من كيده :

بنى أميةَ إنّى ناصح لكمُ فلا يَبِيتَنّ فيكم آمناً زُفر
واتخِذوه عدوّاً إن شاهدَه وما تَغيَّب من أخلاقه دَعِر
إن الضغينةَ تلقاها وإن قَدُمتْ كالعَرِّ يكمُن حيناً ثم ينتشر
(ص ١٠٥ ب ٤٨ – ٥٠)

وليذكر عبد الملك أن تغلب قد نصرته وأبلت فى ولائها للأمويين بلاء عظيماً ، فقد حاربت القيسية وقتلت قائدهم عمير بن الحباب ، وما زالت بهم حتى أذلتهم وأقبلوا إلى الخليفة يبايعونه وهم صاغرون :

وقد نُصِرْتَ أميرَ المؤمنينَ بنا لما أتاك ببطن الغوطَةِ الخبر
يعرّفونك رأسَ ابنِ الحُباب وقد أضحَى وللسيفِ فى خَيْشومه أثر
لا يَسْمع الصوتَ مُسْتكّاً مسامعُه وليس ينطقُ حتى ينطقَ الحجر
أمست إلى جانب الحَشّاك جيفتُه ورأسُه دونَه اليَحْمومُ والصُّوَر
يَسْأله الصُّبْرُ من حسّانَ إذ حضروا والحَزْنُ كيف قَراكَ الغِلمةُ الجشر
والحارثُ بنُ أبى عَوْفٍ لعِبْنَ به حتى تَعاوَره العِقْبانُ والسُّبر
وقيسُ عيلانَ حتى أقبلوا رقَصا فبايعوك جِهاراً بعد ما كفروا
(ص ١٠٥ - ١٠٧ ب ٥١ – ٥٧)

وليذكر هؤلاء القيسية ، أعداء تغلب وبنى أمية ، أنهم كانوا على ضلال فى فتنتهم ، وأن بنى تغلب أقاموا منهم ما اعوج ، وأذاقوهم طعم الذل والهزيمة ، حتى ضجوا من حربهم وفروا من جوارهم مرغمين :

فلا هَدَى الله قيساً من ضلالتهم ولا لعاً لبنى ذَكوَانَ إذ عثروا

ضجّوا من الحرب إذ عضّتْ غواربهَم وقيسُ عيلانَ من أخلاقها الضجر

كانوا ذوى إمّةٍ حتى إذا عَلِقَتْ بهم حبائلُ للشيطان وابتُهِروا

صُكّوا على شارفٍ صَعْبٍ مرا كبُها حَصّاء ليس لها هُلْبٌ ولا وبر

ولم يزل بُسليم أمرُ جاهلِها حتى تَعايَي بها الإيرادُ والصدر

إذ ينظرون وهم يَجْنون حنظَلَهم إلى الزَّوَابي فقلنا بُعْدما نظروا

كرُّوا إلى حرّتَيْهم يَعْمُرونهما كما تَكرُّ إلى أوطـانها البقر

وأصبحت منهمُ سِنْجارُ خاليةً والمَحْلَبِيّاتُ فالخابورُ فالسُّرر

وما يُلاقون فَرّاصاً إلى نَسَب حتى يلاقَى جَدىَ الفَرْقَد القمر

ولا الضّبابَ إذا اخضرتْ عيونهمُ ولا عُصَيّةَ إلا أنهم بشر

وما سعى فيهمُ ساعٍ ليُدْرِكَنا إلا تَقاصَر عنا وهو مُنْبهِر

وقد أصابت كلاباً من عداوتنا إحدى الدواهي التي تُخْشَى وتُنْتظر

وقد تفاقم أمرٌ غيرُ مُلتئمٍ ما بيننا رَحِمٌ فيه ولا عِذَر

(ص ١٠٧ — ١٠٩ ب ٥٨ — ٧٠)

ولم يكتف الأخطل بهذا كله ، فأبى إلا أن يختم القصيدة بهجاء جرير وقومه . هجاه لأنه كان يدافع عن القيسية ، وهجاه لأن هجاءه مكمل لهجاء أعداء قبيلته ، وهجاه لأن الخليفة كان غاضباً عليه كما كان راضياً عن هجائه :

أمّا كليبُ بنُ يَرْبُوع فليس لهم عند التَّفارُطِ إيرادٌ ولا صَدر

مخلَّفُون ويقضى الناسُ أمرَهمُ وهم بغيب وفى عمياء ما شعروا

ملطّمون بأعقار الحياضِ فما يَنْفكُّ من دارمىّ فيهمُ أثر

بئس الصحاةُ وبئس الشَّرْبُ شَرْبُهمُ إذا جرى فيهم المُزّاءُ والسُّكر

قومٌ أنابتْ إليهم كلُّ مُخْزِية وكلُّ فاحشةٍ سُبّت بها مُضر

على العِيَارات هدَّاجون قد بلغتْ نَجْرانَ أو حُدِّثَتْ سَوْءاتِهم هَجر
الآكلون خبيثَ الزاد وحدَهمُ والسائلون بظهر الغيب ما الخبر
واذكر غُدَانةَ عِدَّاناً مُزَنَّمةً من الحَبَلَّق تُبْنَى حولَها الصِّير
تُمْذِى إذا سخنتْ فى قُبْل أذرُعها وتَزْرَئِمُّ إذا ما بلَّها المطر
وما غُدانةُ فى شىء مكانَهُمُ الحابسو الشاء حتى يَفْضُلَ السُّؤُر
يتّصلون بيَرْبوع ورَفْدُهمُ عند الترافُد مغمورٌ ومحتقر
صُفْرُ اللِّحَى من وَقودالأَدخِنات إذا رَدَّ الرِّفادَ وكفَّ الحالِبِ القرَرُ
ثم الإيابُ إلى سُودٍ مدنَّسةٍ ما يَسْتَحِين إذا ما احتكت النُّقر
وأَقْسَمَ المجدُ حقّاً لا يحالفُهمْ حتى يحالفَ بطنَ الرَّاحة الشَّعَر

(ص ١٠٩ - ١١٢ب ٧١ - ٨٤)

ومن ثم نرى إلى أى حد بلغت براعة الأخطل فى التوفيق بين « مصلحة الدولة » و « مصلحة القبيلة » و « مصلحة الشاعر » ، وإلى أى حد استطاع أن يشيد هذا البناء السامق المحكم من المدح والفخر والهجاء . فلا غرو أن يحس بعد هذا المجهود الفنى الضخم أنه أنشأ أثراً فنيًّا يستحق التنويه والفخر . ولا غرو أن يقول لعبد الملك مستأذناً فى إنشاد القصيدة : « يا أمير المؤمنين » زعم ابن المراغة أنه يبلغ مدحتك فى ثلاثة أيام ، وقد أقمت فى مدحتك « خف القطين فرحوا منك أو بكروا » سنة ، فما بلغت كل ما أردت» . ولا غرو بعد ذلك أن يتطاول الخليفة للقصيدة ، وأن يعجب بها أشد الإعجاب ، وأن يحتل الأخطل بفضلها مكان الصدارة بين الشعراء[1] .

ثم يلى ذلك ، فيما نرجح ، قصيدته البائية :

لعَمرى لقد أَسْريتُ لا ليلَ عاجزٍ بساهِمةِ الخَدّين طاويةِ القُرْبِ[2]

يذكر فيها اهتمام عبد الملك بغزو الروم :

(١) أبو الفرج : الأغانى ، ج ٨ ص ٢٨٧ و ٢٨٨
(٢) شعر الأخطل ، ص ١٧ .

وفى كلّ عامٍ منكَ للرُّوم غزوةٌ   بعيدةُ آثارِ السَّنابكِ والسَّرْب
يُطرِّحْنَ بالثغر السِّخالَ كأنَّما   يشقّقْن بالأسْلاء أرديةَ العَصْب
بناتُ غُرابٍ لم تكمَّلْ شهورُها   تَقَلْقَلْنَ من طول المفاوز والجذب
وإنَّ لها يومين يومَ إقامةٍ   ويوماً تَشكّى القَضَّ من حَذَر الدَّرب
غَموسُ الدُّجى تنشقُّ عن متضرِّمٍ   طَلوبِ الأعادى لا سَئوم ٍ ولا وَجْب

(ص ٢٠ و ٢١ ب ٢٥ - ٢٩)

ولم يتفرغ عبد الملك لهذا الغزو إلا فى السنوات الأخيرة من خلافته[1] ، مما يرجح أنه قالها بعد « خف القطين » بزمن ملحوظ .

والأخطل فيها يمزج بين مصلحة الدولة ومصلحة القبيلة . فيقرر حق البيت المروانى فى الملك ، ويجعل هذا الحق إلهياً أراد الله أن يستقر فى هذا البيت ، وأن يكون لعبد الملك خاصة لأنه جدير بهذا الحق :

على ابنِ أبِي العاصِى قريشٌ تعطَّفتْ   له صُلْبُها ليس الوَشائظُ كالصُّلْب
وقد جَعل اللهُ الخلافةَ فيكمُ   بأبيضَ لا عارِى الخوان ولا جَدْب
ولم تَرَ عينى مثلَ مُلْكٍ رأيتُه   أتاكَ بلا طعْنِ الرماحِ ولا الضَّربِ
ولكن رآكَ اللهُ مَوْضعَ حقّه   على رَغْمِ أعداءٍ وصَدّادةٍ كُذْب

(ص ٢١ ب ٣٠ و ٣١ و ٤٦ و ٤٧)

ويندد بهزيمة القيسية فى مرج راهط ، ويعرض بفشلهم فى الدعوة لابن الزبير ، ويعتد بما أنزلته بهم تغلب من هزائم ، ويتغنى بما للأمويين من خلال أهلتهم للملك :

عتبتْم علينا قيسَ عيلانَ كلُّكم   وأىُّ عدوٍّ لم نُبِتْه على عَتْب
لقد عَلمت تلك القبائلُ أننا   مَصاليتُ جذّامون آخِيَةَ الشَّغْب
فإن تَكُ حربُ ابنَىْ نِزار تواضعت   فقد عذَرَتْنا من كِلاب ومن كعب

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ص ١٨٥ .

وفى الحُقْب من أفناء قيس كأنهم ... بمنعرَج الثَّرْثار خُشْبٌ على خُشْب
وهنَّ أذقنَ الموتَ جَزْءَ بنَ ظالم ... بعاصيَةٍ بين الشَّراسِيف والقُصْب
وظلَّتْ بنو الصَّمْعاء تأوى فلولُهم ... إلى كل دشْماء الدراعين والعَقْب
وقد كان يوما راهطٍ من ضلالكم ... فَناءٌ لأقوام وخَطْباً من الخَطْب
تُسامُون أهلَ الحقِّ يا بنَىْ مُحارب ... وركبِ بنى العَجْلان حَسْبُكَ من ركب
قُرومُ أبى العاصى غداةَ تخمَّطتْ ... دمشقُ بأشباه المهنَّأة الجُرْب
يقودون مَوْجاً من أُميَّةَ لم يَرِث ... ديارَ سُلَيم بالحجاز ولا الهَضْب
ملوكٌ وأحكامٌ وأصحابُ نجدةٍ ... إذا شوغبوا كانوا عليها إلى شَغْب
أهلّوا من الشهر الحرام فأصبحوا ... موالىَ مُلْكٍ لا طريفٍ ولا غصب

(ص ٢١ – ٢٤ ب ٣٣ – ٤٤)

فيجمع بذلك بين مصلحة الدولة والقبيلة ، ويتجلى شاعراً سياسيًّا يدافع عن وجهة نظر الحزب الأموى ، كما يتجلى شاعراً قبليًّا يعتد بجهود قبيلته فى الدفاع عن هذا الحزب .

وأبى الأخطل إلا أن يختم القصيدة بهجاء جرير كما صنع فى « خف القطين » . ولكن هجاءه فيها لا يبلغ مبلغ مديحه فى الطول ، والغالب عليها مدح عبد الملك والبيت المروانى .

هذه هى القصائد الثلاث التى ظفرنا بها من قصائد الأخطل فى عبد الملك بن مروان . وهى تصور ، مع الأبيات المتفرقة التى كان يرتجلها فى معرض الدعابة والمزاح ، صلة حافلة بضروب الفن والإبداع . يتبدى فيها الأخطل شاعراً سياسيًّا من أعلى طراز ، وفناناً عبقريًّا يسحر بفنه الألباب ، وزعيما قبليًّا يدافع عن قبيلته أروع دفاع . ويتجلى فيها عبد الملك خليفة ألمعيًّا يقدر الفن ويهتز لروائع الأشعار ، وصديقاً حفيًّا يتغاضى أحياناً عن الهفوات ، ونموذجاً أمويًّا فى الحلم والكرم والدهاء .

* * *

ومن المفيد حقاً أن نقابل بين صلة الأخطل بعبد الملك وصلته بأخيه بشر بن مروان ، كما قابلنا بين صلته بيزيد بن معاوية وصلته بأخيه عبد الله .

كان بشر بن مروان صورة مصغرة من أخيه عبد الملك حزماً وعزماً وكلفاً بالشعر ونقداً للشعراء . وقد ولاه عبد الملك إمرة الكوفة بعد أن قضى على دعاة ابن الزبير فى العراق[١] ، ثم جمع له المصرين بعد أن عزل عن البصرة خالد بن أسيد ، فاجتمعت له إمرة العراق وهو فى ريعان الشباب[٢] . وكان صاحب لهو وطرب ، يكلف بالموسيقى والغناء ، ويشرب الخمر حتى يفقد الوعى أحياناً ويخرج عن الصواب[٣] ، فكان فى ذلك أقرب إلى يزيد منه إلى عبد الملك ، وإن لم يجاهر بذلك كيزيد ، فكان يعبث ويشرب بعيداً عن أعين الرقباء . كان إذا صلى العصر خلا فى ناحية من داره ليس معه أحد إلا أعين ،ولاه صاحب حمام أعين بالكوفة وأخذ فى شأنه[٤] . وقد حضر الشعبى مجلساً له فى الغناء ، فإذا عليه غلالة رقيقة صفراء وملاءة تقوم قياماً من شدة الصقال ، وعلى رأسه إكليل من ريحان ، وعلى يمينه عكرمة بن ربعى ، وعلى يساره خالد بن عتاب بن ورقاء ، وبين يديه حنين بن بلوع ومعه عوده . فسلم الشعبى ، فرد عليه السلام ، ورحب وقرب ، ثم قال : « يا أبا عمرو ، لو كان غيرك لم آذن له على هذه الحال »[٥] . وكان أديباً عالماً بالشعر خبيراً بفنونه ، يجيز عليه بالألوف ، ولا يغلق دونه الأبواب ، ويقول : « إنما يحتجب النساء »[٦] ، فتوافد إليه الشعراء ، واستمع إليهم ، وفاضل بينهم ، وانتقد أشعارهم ، وأغدق عليهم الأموال . وفد إليه أيمن بن خريم من مصر ، فأعطاه مائة ألف درهم[٧] . وأتاه نصيب بن رباح ، فأمر له بعشرة آلاف درهم[٨] . ودخل

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ص ١٢ و ١٣ .
(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ ٣ ص ٩٨ ؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ص ٣٤ .
(٣) أبوالفرج : الأغانى ، جـ ١٨ ص ٧٠ و ٧١ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ١٨ ص ١٢٩ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٣٤٩ و ٣٥٠ .
(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٩ ص ٧ .
(٧) أبوالفرج : الأغانى ، جـ ١ ص ٣٣٠ .
(٨) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٣٣٤ .

عليه عبد الله بن الزبير الأسدى . فأمر له بخمسة آلاف درهم[١] . ومدحه الأقيشر ، فأمر له بألف درهم[٢] . وترامت إلى الشعراء أخبار جوده ، فأتوا إليه من الأمصار . وكان ممن وفد إليه الأخطل وجرير والفرزدق . فمدحوه ونالوا جوائزه ، وحضروا مجالسه ، ولقوا منه الحفاوة والترحاب .

وكان من أظهر ما يمتاز به هذا الأمير المروانى إثارته بين الشعراء[٣] . فإذا اجتمعوا عنده فى قصره ، أوقع هذا فى ذاك ليستمتع بما يتراشقون به من هجاء . وكانت النقائض بين جرير والفرزدق وقتئذ على أشدها ، فكانا يجتمعان عنده وبينهما ما بينهما . اجتمعا مرة بين يديه ، فقال : « إنكما قد تقارضتما الأشعار ، وتطالبتما الآثار ، وتقاولتما الفخر ، وتهاجيتما . فأما الهجاء ، فليست بى إليه حاجة . فجددا بين يدى فخراً ، ودعانى مما مضى » ، فافتخر الشاعران بين يديه ، وحكم بينهما ، وأحسن الجائزة لهما[٤] . وسئل جرير عن سبب هجائه سراقة البارقى ، فقال : « لا شىء . حمله بشر بن مروان وأكرهه على هجائى ، ثم بعث إلى رسولا وأمرنى أن أجيبه »[٥] . ودخل الأخطل على الأمير ، وعنده الراعى ، فقال له بشر : « أنت أشعر أم هذا ؟ » ، فقال : « أنا أشعر منه وأكرم » ، فقال للراعى : « ماتقول ؟ » ، فقال : « أما أشعر منى ، فعسى . وأما أكرم ، فإن كان فى أمهاته من ولدت مثل الأمير ، فنعم »[٦] . فلم يسلم بذلك الأخطل من تحريض بشر بينه وبين الشعراء .

على أن تحريض بشر بين الأخطل والراعى يعد تافهاً يسيراً إذا قيس بتحريضه بين الأخطل وجرير . فقد ألح يوماً على الأخطل فى أن يحكم بين جرير والفرزدق ، وكانا حاضرين ، فقال : « احكم بين الفرزدق وجرير » ، فقال : « اعفنى أيها

---

(١) نفس المصدر ، ج ١٣ ص ٤٢ و ٤٣ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١١ ص ٢٧٠ .

(٣) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٧٢ و ١٧٩ و ١٨٠ ؛ أبو الفرج : الأغانى ، ج ٨ ص ١٨ و ١٩ و ٣١٥ و ٣١٦ .

(٤) أبو الفرج : الأغانى ، ج ٨ ص ٣٧ و ٣٨ .

(٥) نفس المصدر ، ج .. ص ١٨ .

(٦) نفس المصدر ، ج ص ٢٩٤ .

الأمير » ، فقال : « احكم بينهما » ، فاستعفى بجهده ، فأبى إلا أن يقول ، فقال : « هذا حكم مشئوم » ، ثم قال : « الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر » ، فلم يرض بذلك جرير ، وكان سبب الهجاء بينهما[١] . وكان الأخطل على حق حين أحس خطورة التدخل بين شاعرى تميم ، وكان له ما يبرر امتناعه عن الحكم ، إذ كان الهجاء نصيب من يحكم لأحد الشاعرين على الآخر . وقد امتنع المهلب بن أبى صفرة ، على خطورة مركزه وعلو مكانته ، عن الحكم بينهما . فقال : « كأنكم أردتم أن تعرضونى لهذين الكلبين ، فيمزقا جلدتى . لا أحكم بينهما »[٢] . وكان يكفى أن يروى الرجل شعر أحدهما ولا يروى شعر الآخر ليكون هدفاً لهجاء من أهمل شعره. فجرير هجا هبيرة بن الصلت والطهوى لأنهما كانا من رواة شعر الفرزدق[٣] . وأرغم الفرزدق راوية من رواة شعر جرير أن يحفظ نقائضه التى رد بها على نقائض خصمه ، وهدده بهجاء قومه إن لم يحفظها[٤] . ولم يكن جرير يطيق تفضيل شاعر عليه ، فكان يهجو كل من يعين الفرزدق أو يروى شعره . فكان طبيعيًّا ، وقد اشتم جرير رائحة التحيز لخصمه فى حكم الأخطل ، أن يغضب عليه ويهجوه . وكان لا بد للأخطل ، وقد نال منه جرير ، من أن يرد عليه هجاءه حفظاً على مكانته . فكان لنا من ذلك هذه النقائض التى جمعها أبو تمام ، وتلك الأهاجى التى لم يعرض لها أبو تمام[٥] . وهى جميعا تمثل إنتاجاً خصباً فى الهجاء يرجع الفضل فى إثارته إلى بشر بن مروان .

على أن صلة الأخطل ببشر لم تكن منتجة فحسب من حيث ما أثارت ما بينه وبين جرير من هجاء ، بل كانت إلى ذلك منتجة من حيث ماتركت لنا من قصائد مدح بها الأخطل أمير العراق . فقد مدح الأخطل بشراً بخمس قصائد فى نحو ثلاثة

---

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٧٩ و ١٨٠ ؛ أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٣١٥ و ٣١٦ ؛ انظر أيضاً : نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٢ و ١٩٧ و ٢٠٧ و ٢٠٨ .

(٢) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٤٢ و ٤٣ .

(٣) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٥ و ٢٦ .

(٤) نفس المصدر ، جـ ١٩ ص ١١ و ١٢ .

(٥) عن القصائد والمقطوعات التى هجا بها الأخطل جريراً ، ولم ترد فى النقائض التى جمعها أبو تمام ، انظر : شعر الأخطل ، ص ٦٥ و ٥٦ و ٢٧٨ و ٢٧٥ و ٢٨٤ و ١٦٣ و ٢٧٢ و ٣٢٠ و ٢٩٩ و ٣٠٧ و ٣٧٢ ؛ الشذر الذهبى ، ص ١٣ .

أعوام ، وهو عدد من القصائد غير قليل إذا قيس بالزمن المحدود الذى اتصل فيه الشاعر بالأمير . ولسنا فى حاجة إلى ترتيب هذه القصائد الخمس ترتيباً تاريخياً ، ذلك لأنها قيلت فى فترة قصيرة لا تعدو الأعوام القلائل التى ولى فيها بشر إمرة العراق . وإذا كنا قد احتجنا فى دراستنا لصلة الأخطل بيزيد إلى ترتيب شعره الذى يمثلها ، فذلك لأنها كانت صلة طويلة من ناحية ، ولأن أخبارها قد انعدمت أو كادت من ناحية أخرى . وإذا كنا قد اهتممنا فى دراستنا لصلة الأخطل بعبد الملك بترتيب القصائد التى وصلت إلينا فى مدحه ، فذلك لأنها كانت صلة طويلة هى الأخرى ، ولأن فى هذا الترتيب ما يلقى ضوءاً كبيراً على تطورها . وقد ولى بشر إمرة الكوفة سنة ٧١ هـ ، ومات بعد أن ضمت إليه إمرة البصرة سنة ٧٤ هـ[١] . فيكفى أن نقول إن قصائد الأخطل فى بشر قد نظمت فى الفترة الواقعة بين هذين التاريخين ، مادمنا لن نفيد كثيراً من ترتيبها .

وهى بحسب ورودها فى الديوان :

أقفرت البُلْخُ من عَيْلانَ فالرُّحَبُ ... فالمَحْلَبِيَّاتُ فالخابورُ فالشُّعَبُ[٢]

و صحا القلبُ عن أرْوَى وأقصر باطلُهْ ... وعاد له من حبِّ أرْوَى أخابلُهْ[٣]

و قد كشَّف الحِلْمُ عنِّى الجهلَ فانقشعتْ ... عنِّى الصَّبابةُ لا نِكْسٌ ولا وَرِعُ[٤]

و عفا الجوُّ من سَلْمى فبادت رُسومُها ... فذاتُ الصَّفا صحراؤها فقَصيمُها[٥]

و عفا من آلِ فاطمةَ الدُّخولُ ... فَحِزّانُ الصَّريمةِ فالهُجولُ[٦]

والأخطل فى هذه القصائد يعنى بتصوير الجو السياسى المضطرب فى العراق ، ويشيد ببلاء الأمويين فى إقرار الأمور وإخماد الفتن والثورات ، ولا ينسى أن يستغل ما كان بينهم وبين الزبيريين من نزاع ، فيندد بآل الزبير ودعاتهم من

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ص ١٢ و ١٣ و ٣٤ و ٣٧ .
(٢) شعر الأخطل ، ص ٣٨ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٥٨ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٦٨ .
(٥) نفس المصدر ، ص ١٢٠ .
(٦) نفس المصدر ، ص ١٢٤ .

قبائل قيس عيلان ، ويشمت فى القيسية بعد انكسار شوكتهم ، ويرى أن الله أنزل بهم الهزيمة جزاء ما أنزلوا بالبلاد من خراب . ويقرر حق الأمويين فى الخلافة بعد مقتل عثمان ، ويبين كيف سعوا ليأخذوا بحقه حتى ظفروا بالملك ، ثم كيف عادوا للدفاع عن هذا الحق حين نازعهم عليه آل الزبير ، فهزموا أعداءهم ، وقتلوا أميرهم مصعباً ، وبعث عبد الملك برأسه إلى أخيه عبد العزيز بمصر :

أقفرتْ البُلْخُ من عَيْلانَ فالرُّحَبُ ... فالمَحْلبيَّاتُ فالخابورُ فالشُّعَبُ
فأصبحوا لا تُرَى إلاَّ مساكنُهم ... كأنهم من بقايا أُمَّةٍ ذهبوا
فالله لم يَرْضَ عن آلِ الزُّبير ولا ... عن قيسِ عَيْلانَ حيًّا طالما خَرَبوا
يُعاظمون أبا العاصِى وهم نَفَرٌ ... فى هامةٍ من قريشٍ دونها شَذَبُ
بيضٌ مَصاليتُ أبناءُ الملوكِ فلن ... يُدْرِكَ ما قدَّموا عُجْمٌ ولا عرب
إن يَحْلُموا عنك فالأحلامُ شيمتُهم ... والموتُ ساعةَ يَحْمَى منهمُ الغضب
كأنهم عند ذاكمْ ليس بينهمُ ... وبين من حاربوا قُرْبَى ولا نسب
كانوا موالىَ حقٍّ يَطلبون به ... فأدركوهُ وما مَلُّوا ولا لَغَبوا
إنْ يكُ للحقِّ أسبابٌ يُمَدُّ بها ... ففى أكفِّهم الأرسانُ والسَّبب
همُ سَعَوْا بابنِ عفَّانَ الإمامِ وهم ... بعد الشِّماسِ مَرَوْها ثُمَّتَ احتلبوا
حرباً أصاب بنى العوَّامِ جانبُها ... بُعْدًا لمن أكلتْه النارُ والحطب
حتى تناهت إلى مصرٍ جماجمُهم ... تعدو بها البُرْدُ منصوباً بها الخشب

(ص ٣٨ و٣٩ ب ١ — ١٢)

ويشيد بما يتحلى به الأمويون من خلال ، وينوه بمكانهم فى قريش ، ويقرر حقهم الإلهى فى الخلافة ، ويذكر فضلهم فى إخماد فتنة ابن الزبير :

أبوكَ أبو العاصِى عليكم تعطَّفتْ ... قريش لكم حِزْنيقُها وصَميمُها
أبَى أنْ يكونَ التَّاجُ إلا عليكمُ ... لِصِيد أبى العاصِى الشديدِ شكيمُها

بكم أدركَ اللهُ البَرِيَّةَ بعلمــا سعى لِصُّهَا فيها وهَبَّ غَشومها

(ص ١٢٢و١٢٣ ب ٢٢ – ٢٤)

أنتم خيارُ قريشٍ عند نسبتهم وأهلُ بَطْحائها الأَثْرَوْنَ والفَرَعُ

أعطاكمُ اللهُ ما أنتم أحقُّ به إذا الملوكُ على أمثاله اقْتَرعوا

ليسوا إذا طَرَدوا يَنْمِي طريدُهمُ ولا تَنالُ أكفُّ الناسِ ما مَنعوا

(ص٧٣ ب ٣٦ – ٣٨)

ويصور فى أثناء ذلك بلاء بشر فى مناضلة الخوارج ، ويشيد بشجاعته فى حرب الأعاجم، وينوه بحزمه فى ضبط أمور العراق[1] . ولم ينس لقبيلته بلاءها، فأشاد بمجهودها فى محاربة الزبيريين ، وذكر بشراً بولائها للبيت الأموى[2] ، فجمع بذلك بين مصلحة الدولة والقبيلة . ولم يغفل مع ذلك عن مصلحته الشخصية ، فصرح بأطماعه فى عطاء ممدوحه .

على أن الأخطل لم يظفر من الحرية فى صلته ببشر بمثل ما ظفر به فى صلته بأخيه عبد الملك . كان يفصل بينهما هوة لم يكن إلى تغافلها من سبيل . فبشر يمت بصلة القرابة إلى القيسية لأن أمه قطية من بنى كلاب[3] ، والأخطل يكره القيسية أشد الكره لأنهم أعداء قومه ، وبشر يعطف على أخواله من قيس ويتعصب لهم ويرحب بهم فى قصره ويشفع لهم عند أخيه عبد الملك . فتحرج بذلك موقف الأخطل ، ورأى أن الأمير لا بد غاضب عليه إذا استند فى هجاء القيسية على عصبيته فى تغلب ، وأنه لا بد مغلق فى وجهه أبواب قصره إذا عرض بأخواله بنى كلاب . وما كان زاهداً فى جوائزه حتى يعرض بقومه تعريضاً يثير عليه حفيظته ، فاحتاط فى التعبير عن مشاعره ، ولم يكثر من هجاء القيسية ، ولم يهجهم أعداء لتغلب بل هجاهم أعداء للبيت المروانى ، ولم يعرض لهجاء أخواله بنى كلاب ، وحاول جهده أن يبطل إيقاع القيسية به عنده ، وأخذ ينبهه إلى دسائسهم ويؤكد له إخلاصه .

---

(١) شعر الاخطل ، ص ٦٣ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٢٧ و ١٢٨ .

(٣) أبوالفرج : الأغانى ، جـ ١ ص ٣٣٤ و ٣٣٥ .

يصور قلقه من وشايتهم ويحذره من كيدهم :

فلا تُطْعِمَنْ لحمى الأعادِىَ إنّهُ سريعٌ إليكم مكرُها ونَميمُها

(ص١٢٣ ب ٢٧)

ويعرض بزبيريتهم ويلفت نظره إلى ولائه :

فلا تجعلَنِّى يا بنَ مروانَ كامرئٍ غَلَتْ فى هَوى آلِ الزبير مَراجلُهْ

يُبايِع بالكفِّ التى قد عرفْتَها وفى قلبِه ناموسُه وغوائله

(ص٦٤و٦٥ب ٤٩ و٥٠)

ويؤكد إخلاصه للأمويين وإيثارهم بشعره :

اليومَ أُجْهِد نفسى ما وَسِعْتُ لكم وهل تُكلِّفُ نفسٌ فوق ما تَسَعُ

(ص ٧٣ ب ٣٩)

ويصور بغض القيسية له إذا ما التقوا عنده (من قصيدة يمدح بها كاتبه عكرمة) :

إذا ما التقَيْنا عند بشرٍ رأيتَهم يَغُضُّون دونى الطَّرْفَ بالحدَق الخضْر

وأوجهِ مَوْتورينَ فيها كآبةٌ فرغماً على رغمٍ ووَقْرًا على وَقْر

(ص ٢١٥ ب ٢٣ و ٢٤)

فالقيسية يحرضون عليه ابن أختهم ، وهو يدافع عن نفسه وينبه الأمير إلى إخلاصه ، وبشر يتسامح معه حيناً ، ويصدق أقوالهم أحياناً ، وهو فى أثناء ذلك قلق على نفسه غير مطمئن إلى مكانه .

ومن ثم نرى أن صلة الأخطل ببشر لم تخل مما يكدرها. وهى بذلك تختلف عن صلته بعبد الملك التى كان مطمئناً فى ظلها على مكانته ، مستمتعاً فى هجاء القيسية بحريته . وقد مزج فى شعره الذى يمثلها بين المصلحة الشخصية والنعرة القبلية والدعوة السياسية ، فصرح بأطماعه ، وأشاد بقومه ، وتغنى بمدح الأمويين . ولكنه أقل من ذكر قومه ولم يطل فى هجاء القيسية ، مراعاة لشعور ممدوحه وإبقاء على مكانته عنده ، فغلبت بذلك فى قصائده الخمس مصلحة الشاعر والدولة على مصلحة القبيلة ، وتجلى فيها شاعراً سياسيًّا يتكسب بشعره أكثر منه شاعراً

قبليًّا يعنى بالدفاع عن قبيلته . وإذا كان من فضل عبد الملك عليه أنه اتخذ منه شاعراً للخلافة ، فقد كان من فضل بشر عليه أنه أدخله فى الهجاء بين جرير والفرزدق ، فأخصب بذلك شعره ، وأبعد فى الآفاق ذكره، وقرن اسمه باسميهما حين تذكر النقائض .

* * *

واتصل الأخطل بأمير آخر يمت بصلة القرابة للبيت المروانى ، هو خالد بن عبد الله بن أسيد . وقد لعب خالد هذا دوراً كبيراً قبيل هجوم عبد الملك على العراق ، فبذر بذور الانشقاق على مصعب بن الزبير فى البصرة ، وأبلى بعد ذلك بلاء صادقاً فى محاربة دعاة ابن الزبير ، فكافأه عبد الملك على ذلك وولاه إمرة البصرة بعد أن أخمد الفتنة بالعراق[١] . وكان خالد ، إلى ما أثر عنه من شجاعة وبلاء ، سخي اليد، ذواقة للشعر ، يهتز للرائع منه ويغدق عليه الأموال[٢] . وكان يحتفل بالشراب ، ويكلف بالموسيقى والغناء ، ولا يتستر فى الأخذ بأسباب اللهو والمتاع . ولم تطل ولايته على البصرة ، فعزله عبد الملك سنة ٧٣ هـ ، وجمع لأخيه بشر إمرة المصرين بالعراق[٣] .

وقد وفد الأخطل إلى خالد ومدحه بقصيدته اللامية :

عَفَا واسِطٌ من آلِ رِضْوَى فَنَبْتَلُ   فمجتَمَعُ الحُرَّين فالصَّبرُ أَجْمَلُ[٤]

وفيها يعبر تعبيراً حرًّا طليقاً عن نوازع نفسه ، ويحتفل بفنه ، ويتأنى فى عرض صوره ، وينوع فى موضوعاته ، ويعنى بوصف الخمر عناية ملحوظة ، فيصور مجلسها وحال الشرب حين يتعاطونها ، وأثرها حين يسرى فى الجسم مفعولها. ويطيل فى هذا التصوير إطالة جميلة بارعة حتى ليبدو كأنه يخاطب موطناً حساساً فى نفس ممدوحه . ويبلغ من تحرره فى التعبير عن مشاعره ، أنه ختم القصيدة بتهديد البيت المروانى ، إذا لم ينتقم لتغلب مما صنعه الجحاف بن حكيم يوم البشر.

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ص ٤ – ١٣ .
(٢) شعر الأخطل ، ص ١ .
(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٥ ص ٣٤ .
(٤) شعر الأخطل ، ص ٢ .

وقد جرت حوادث هذا اليوم سنة ٧٣ هـ[١]، وهى نفس السنة التى عزل فيها خالد عن ولاية البصرة ، مما يرجح أنه قالها فى الفترة الواقعة بين يوم البشر واليوم الذى عزل فيه خالد[٢] .

* * *

واتصل الأخطل كذلك بقريب آخر من أقارب البيت المروانى ، هو عبد الله ابن سعيد بن العاص . ولم يكن البيت المروانى يرتاح كثيراً إلى أبناء سعيد منذ والى معاوية بين مروان وسعيد فى إمرة المدينة . فقد بذر فى البيتين بهذه الموالاة بذور الحسد والبغضاء[٣] ، وظهر أثر ذلك قوياً واضحاً حين ثار عمرو بن سعيد على عبد الملك ، وحين اضطر عبد الملك إلى قتله[٤] ، فاتسعت بذلك بين العائلتين شقة الخلاف .

وكان أبناء سعيد ومروان يتنافسون فى الكرم والعطاء ، فطمع الأخطل فى عطاء عبد الله بن سعيد ، واتصل به مادحاً مستثيباً فى قصيدته البائية :

أَلَمْ تَعْرِضْ فتَسألَ آلَ لَهْوٍ وَأَرْوَى والمُدِلَّةَ والرَّبابا[٥]

ولكنه احتاط ، فلم يمدحه بغير هذه القصيدة ، إبقاء على صلته برجال البيت المروانى ، وأخلى منها كل ماله علاقة بالسياسة ، واقتصر فى مدحه على الإشادة بكرمه ، والتنويه بأصله وعراقة منبته .

* * *

واتصل الأخطل أيضاً من رجال البيت المروانى بأبى بكر وعمر ابنى عبد العزيز ابن مروان ، وبهشام بن عبد الملك بن مروان .

مدح الأولين معاً فى مقطوعته الرائية :

---

(١) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ١١ ص ٥٦ .

(٢) فى الديوان ، غير هذه القصيدة ، بيتان يمدح فيهما الأخطل خالداً (ص ٣٠٢) ، وفى التكملة قصيدة أخرى يبدو أنها فى مدح خالد (ص ٤٤) . وليس فى القصيدة أو البيتين ما يضيف جديداً على صلة الأخطل بهذا الوالى .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ ص ٢١٨ و ٢١٩ .

(٤) نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٥٩٦ — ٦٠٢ .

(٥) شعر الأخطل ، ص ٥٢ .

إنّى أَبِيتُ وهَمُّ المرءِ يَعْهَدُه   من أولِ الليلِ حتى يَبْرَحَ السَّفَرُ[1]

ومدح هشاماً بقصيدة لم نعثر لها فى الديوان على أثر .

وغرض الأخطل من هذه الصلات الثلاث واضح ظاهر . فنى المقطوعة ، يرجو من أبى بكر وعمر البذل والإسماح ويصرح بأطماعه فى العطاء . وفى صلته بهشام ، نراه غاضباً ساخطاً لأنه قتر عليه وخيب منه الرجاء . فقد امتدحه ، فأعطاه خمسمائة درهم ، فلم يرضها وخرج فاشترى بها تفاحا وفرقه على الصبيان . فبلغ ذلك هشاماً ، فقال : « قبحه الله ! ماضر إلا نفسه »[2] . وليس هناك من شك فى أنه لم يبلغ خلافة هشام ، ويغلب على الظن أنه اتصل به فى خلافة أبيه عبد الملك أو فى خلافة أخيه الوليد .

• • •

ثم اتصل الأخطل أخيراً بالوليد بن عبد الملك ، فكانت صلته به آخر ما عقده بالبيت المروانى من صلات . اتصل به فى السنوات الأخيرة من خلافة أبيه ، وقد تقدمت به السن ونال منه الدهر وتقلبت به الأحوال ، وأقبل عليه بعد أن زاد عبد الملك فى الجزية المفروضة على نصارى الجزيرة . فقد كانوا ، منذ فتح المسلمون أرضهم ، يدفعون عن كل جمجمة ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً وقسطين خلاً . فاستقل عبد الملك ما يؤخذ منهم ، فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالاً بأيديهم ، وحسب مايكسب العامل سنته كلها ، ثم طرح من ذلك نفقته فى طعامه وأدمه وكسوته وحذائه ، وطرح أيام الأعياد فى السنة كلها ، فوجد الذى يحصل بعد ذلك فى السنة لكل واحد أربعة دنانير ، فألزمهم ذلك جميعاً وجعلها طبقة واحدة[3] . وأخذ الجباة يجبرونهم على التصريح بعدد أملاكهم وبعدد أبنائهم ، واشتد الولاة عليهم فى جمع الجزية . وعرب عبد الملك دواوين الدولة ، فعزل كل من كان فيها من كتاب النصارى[3] ، وأخذ نفوذ النصارى عموماً يتضائل .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٧٧ .

(٢) أبوالفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٣٠٣ .

(٣) أبويوسف : الخراج ، ص ٤١ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٠١ .

وأحس الأخطل عبء هذه الضرائب ، فسعى إلى الوليد شاكياً وطأتها ، ومدحه بمقطوعته الدالية :

وحاجلَةِ العُيونِ طَوَى قُواها شِهابُ الصَّيفِ والسفَرُ الشديدُ[١]

وفيها يدعوه (ابن الإمام) :

طَلَبْنَ ابنَ الإمامِ فتى قريشٍ بحِمْصَ وحمصُ غائرةٌ بَعيد
(ص ٢٣٢ ب ٢)

مما يدل على أنه قالها فى خلافة عبد الملك .

ويشكو إليه الغرامات التى نابت على قومه :

وإنَّا مَعْشَرٌ نابتْ علينا غراماتٌ ومُضْلِعَةٌ كؤُودُ
وعضَّ الدهرُ والأيامُ حتى تَغيَّر بَعْدَكَ الشَّعَرُ الجديد
(ص ٢٣٢ ب ٥ و ٦)

مما يدل على أنه قالها فى أواخر خلافة عبد الملك ، بعد أن زاد فى الجزية المفروضة على النصارى .

ثم اتصل الأخطل بالوليد بعد أن ولى الخلافة ، ومدحه بأربع قصائد تعد من جيد شعره . ومن السهل تأريخها بين السنة التى ولى فيها الوليد أمر الخلافة والسنة التى مات فيها الأخطل ، أى بين سنة ٨٦ و ٩٢ هـ . ولا حاجة بنا إلى ترتيبها ترتيباً تاريخيًّا ، مادامت الفترة التى قيلت فيها قصيرة محدودة ، وما دمنا لن نفيد كثيراً من ترتيبها .

وهى بحسب ورودها فى الديوان :

حَيِّ المنازلَ بين السَّفْحِ والرُّحَبِ لم يَبْقَ غيرُ وشُومِ النارِ والحَطَبِ[٢]
و عَفا مِمَّنْ عَهِدْتَ به حَفِيرُ فأجبالُ السَّيالَى فالعَوِيرُ[٣]

---

(١) شعر الأخطل ، ص ٢٣٢ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٨٢ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٢ .

و عَفا واسِطٌ من أهلِه فمَذَانِبُهْ فرَوْضُ القَطا صحْراؤُه فنَصائِبُهْ [١]

و أتَعْرِفُ الدّارَ أمْ عِرْفانَ مَنْزلةٍ لم يَبْقَ غيرُ مُناخِ القِدْرِ والحُمَمِ [٢]

والأخطل فى هذه القصائد شديد الولاء للبيت الأموى ، يشيد بالأمويين ، وينوه بمواقفهم ، ويعدد أمجادهم ، ويؤيد حقهم فى الخلافة ، ويتغنى بما يتحلون به من خصال .

فهم أصحاب سلطان وجاه ، لم عز الملوك ، وأعلى سورة الحسب ، وليس من يدانيهم فى سادة العرب ، شجعان فى الحرب ، كرماء فى الجدب ، أهل حلم إن قدروا ، باسطون إذا غضبوا ، منبتهم كريم ، وأصلهم عريق ، مؤيدون من الله فى الحكم ، قد قسم لهم الملك وراثة عن أب فأب :

لم يُبْقِ سَيْرِى إليهم من ذخائرها غيرَ الصَّميمِ من الألواحِ والعَصَبِ

حتى تَناهَى إلى القوم الذين لهم عز الملوكِ وأعلى سَوْرةِ الحسب

بِيضٌ مَصالِيتٌ لم يُعْدَل بهم أحدٌ بكل مُعْظَمة من سادة العرب

الأكثرينَ حَصًى والأطيبينَ ثَرًى والأحمدِينَ قِرًى فى شِدَّة اللَّزَب

ما إن كأحلامِهم حِلْمٌ إذا قدروا ولا كبسطتهم بَسْطٌ لدى الغضبِ

وهم ذُرَى عبدِ شمسٍ فى أرومتها وهم صَميمهمُ ليسوا من الشَّذَب

وكان ذلك مقسوماً لأوّلهم وِراثةً ورِثوها عن أبٍ فأب

(ص ١٨٨ و١٨٩ ب ٤٥ – ٥١)

وهم أحمى الناس على الكرم ، وخيرهم عند البلاء . فى الشدائد يبسطون أكفهم بالعطاء ، ولا يبخلون على المعتفين بالمال . فإذا كانت الفتنة ، هبوا إلى الحرب شجعاناً أقوياء البأس ، وقوموا من أعدائهم ما اعوج ، وكشفوا عن الناس الخطب :

فهُم هُنالِكَ خيرُ الناسِ كلِّهِمِ عند البلاء وأحْماهم على الكرمِ

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢١٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٦٤ .

الباسطون بدنياهم أكفَّهمُ والضاربون غداةَ العارض الشَّبِم
والمطعِمون إذا ما أزْمةٌ أَزَمتْ والمقدِمون على الغارات بالجِذَم
عوابسُ الخيلِ إذْ غَصَّتْ شكائمَها وأصْحَرتْ عن أديم الفِتْنةِ الحَلِم
همُ الأُولى كشفوا عنَّا ضبابتَها وقوَّموها بأَيديهم عن الضَّجَم
فإذا أتتْكم وأعطتْكم بدرَّتِها فاحتلِبوها هنيئاً يا بنِى الحكم

(ص ٢٦٦ ب ١٧ – ٢٢)

وأنتم حين حاربَ كلُّ أفقٍ وحين غَلَتْ بما فيها القُدورُ
غَشمتم بالسيوف الصِّيدَ حتى خبا منها القَباقِبُ والهَدير
إذا ما حيّةٌ منكم توارَى تَنمَّر حيّةٌ منكم ذَكِير
وأُعْطِيتم على الأَعداء نصرًا فأبصرتم به والناسُ عُور
وكانت ظلمةً فكشفتموها وكان لها بأَيديكم سُفور

(ص ٢٠٥ و ٢٠٦ ب ٣٢ – ٣٦)

ولم يفت الأخطل أن ينوه بأخوال الوليد ، فتغنى بأمجاد عبس فى الجاهلية ، وأشاد بكرمهم عند الجدب ، وبشدة بأسهم فى الحرب :

ونِعْمَ الحىُّ فى اللَّزَباتِ عَبْسٌ إذا ما الطَّلْحُ أرجَفَه الدَّبُورُ
مَساميحُ الشتاء إذا اجْرَهَدَّتْ وعزَّتْ عند مَقْسَمِها الجَزُور
بنو عبسٍ فوارسُ كلِّ يومٍ يكاد الهمُّ خَشْيتَه يطير
وُفاةٌ تنزل الأَضيافُ منهم منازلَ ما يَحُلُّ بها الضرير
وهم عطفوا على النُّعْمان لما أتاه بتاج ذى مُلْكٍ بشير
فجازَوْه بنُعْماه عليهم غداةَ له الخَوَرْنَقُ والسَّدِير
كلا أبويك من كعْبٍ وعبسٍ بُحورٌ ما توازنُها بحور
فمن / يَكُ فى أوائله مُخِتًّا فإنك يا وَلِيدُ بهم فخور

وتَـأْوِى لابن زِنْباعٍ إذا ما تَراخَى الرِّيفُ كاسَ له عَقِيرُ

(ص ٢٠٦ و ٢٠٧ ب ٣٨ – ٤٦)

ولم تغب عنه همة الوليد فى الفتوح والغزو ، فأبرز فيه شخصية المحارب ، وصور جهاده فى حرب الروم والأعاجم ، فإذا هو صلد جلد فى القتال ، قد أرهق بالجهاد أعداءه ، وأنضى فى الغزو خيله ، حتى بلغ بجيوشه إلى مالم تبلغه جيوش أحد من قبل :

له يومانِ يومٌ قراعِ كبْشٍ ويومٌ يُسْتَظَلُّ به مَطيرُ

بكفَّيه الأَعِنَّـــةُ لا مَشُومٌ قتالَ الأعجمِينَ ولا ضَجور

قتلْتَ الرُّومَ حتى شذَّ منها عصـــائبُ ما تُحرِّزُها القصور

فلو كان الحروبُ حروبَ عادٍ لـــقام على مَواطنها صَبور

(ص ٢٠٤ ب ١٨ – ٢١)

وما بَلَغتْ خيلُ امرئٍ كان قبلَه بحيث انتهتْ آثارُه ومَحاربُهْ

وتُضْحى جبالُ الرُّوم غُبْرًا فِجاجُها بما أشعلتْ غاراتُه ومَقانِبه

من الغزْو حتى انضمَّ كلُّ ثَميلة وحتى انطوتْ من طول قَوْد جنائبه

يَمُدُّ المدى للقوم حتى تقطعتْ حبالُ القُوَى وانشقَّ منه سَبائبه

(ص ٢١٩ ب ٢٩ – ٣٢)

فهل نفهم من ذلك أن الأخطل فى صلته بالوليد كان لايزال محتفظاً بمكانته السابقة التى ظفر بها فى صلته بعبد الملك ؟

يبدو لنا أن الأخطل فقد نفوذه ومنزلته فى دمشق بعد وفاة عبد الملك بن مروان . وليس أدل على ذلك من أن الوليد اتخذ من عدى بن الرقاع العاملى شاعره الخاص ، وشمله بعطفه ورعايته ، ورفع من مكانه ، وكاد يبطش بجرير من أجله[1] . وليس أدل على ذلك أيضاً من أن الأخطل وجريراً تناشدا عند الوليد ، فأنشد الأخطل معلقة عمرو بن كلثوم : « ألا هبى بصحنك فاصبحينا » ، فتحرك الوليد ، وأغرى

---

(١) أبوالفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٧٩ و ٨٠ ؛ جـ ٩ ص ٣٠٧ – ٣٠٩ .

جريراً بإنشاد قصيدة أوس بن مغراء : « ماذا يهيجك من ربع بفيجانا» ، فقال الأخطل : « أعلى تعصب يا أمير المؤمنين ، وعلى تعين ، وأنا صاحب عبد الرحمن ابن حسان ، وصاحب قيس ، وصاحب كذا ؟ »[1] . بل ليس أدل على تأخر منزلة الأخطل فى صلته بالوليد من هذا التواضع الوضيع فيا نظمه فى مدحه من قصائد . فهو لا يكاد يبدأ مدحه حتى يحلف بالأيمان المعظمة والأقسام المغلظة أنه مخلص للدولة قائم على هذا الإخلاص معترف بما لها عليه من أفضال .

فيحلف أن الوليد أنقذه وآمن خوفه حين أتاه حذراً مهموماً طريد القتل والهرب ، وأنه لولا سعيه وفضله لأصابه التلف وتعرض للمعاطب :

وقَد حلفتُ يميناً غيرَ كاذبة ... بالله ربِّ ستورِ البيت ذى الحُجبِ
وكلِّ مُوفٍ بنَذْرٍ كان يحمله ... مضرَّجٍ بدماءِ البُدْن مختضِب
إن الوليدَ أمينَ الله أنقـــذنى ... وكان حصناً إلى مَنْجاته هربى
أتيتُه وهمومى غيرُ نائمـــةٍ ... أخا الحِذار طريدَ القتل والهرب
فآمَنَ النفْسَ ما تَخشى ومولَها ... قَدْمَ المواهبِ من أنوائه الرُّغُب
وثبَّتَ الوَطْءَ منّى عند مُضْلِعةٍ ... حتى تخطيتُها مسترْخياً لَبَبى

(ص ١٨٤ و١٨٥ب ١٩ – ٢٤)

لقد حلفتُ بما أَسْرَى الحَجِيجُ له ... والناذِرِينَ دماءَ البُدْنِ فى الحرمِ
لولا الوليدُ وأسبابٌ تَناولنى ... بهنَّ يومَ اجتماعِ الناسِ بالثُّلَمِ
إذًا لكنتُ كمن أَوْدَى ووَدَّاه ... أهلُ القرابةِ بين اللَّحْدِ والرَّجَم

(ص ٢٦٤ و٢٦٥ ب ٧ – ٩)

ويؤكد لبنى أمية إخلاصه وولاءه ، ويعترف بإنقاذهم إياه من المآزق :

وقد علمتْ أميّةُ أنَّ ضِغْنِى ... إليها والعُداةُ لها هَريرُ
وأنّى ما حَيِيتُ على هواها ... وأنّى بالمغيب لها نَصور

---

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٨٠ و ١٨١ .

فمن يكُ قاطعاً قَرْنا فإنِّى لفضل بنى أبى العاصى شَكور
عَلِقْتُ بحَبْلِكم فَشَدَدْتُموه فلا واهٍ قُواهُ ولا قصير
(ص ٢٠٤ و٢٠٥ ب٢٢ و٢٣ و٢٥ و٢٦)

ومُظْلِمةٍ تَضِيق بها ذراعى ويتركنى بها الحَدِبُ النَّصورُ
كفَوْنيها ولم يتواكلوهـــا بخُلْقٍ لا أَلَفٌّ ولا عَثور
ولولا أنتمُ كرِهتْ مَعَدٌّ عِضاضى حين لاح بىَ القَتير
ولكنِّى أَهابُ وأَرتجيكم ويأْتينى عن الأُسد الزئير
(ص ٢٠٥ ب ٢٨ – ٣١)

لولا بلاؤكم فى غيرِ واحدةٍ إذًا لقمتُ مَقامَ الخائفِ الزَّرِمِ
أسمعتُكم يوم أدعو فى مُوَدَّأَةٍ لولا كمُ شاع لحمى عندها ودمى
لولا تناولُكم إيّاىَ ما عَلِقَتْ كفّى بأَرجائها القُصْوى ولا قدمى
(ص ٢٦٦ و ٢٦٧ ب ٢٦ – ٢٨)

ويشكر لهم أفضالهم عليه ، ويحلف مؤكداً فى الشكر إخلاصه :

بَنى أُميّةَ قد أَخَذَتْ فواضلُكم منكم جيادى ومنكم قبلَها نَعَمِى
فهْىَ إذا ذُكِرتْ عندى وإنْ قَدُمتْ يوماً كخطِّ كتابِ الكفِّ بالقلم
فإنْ حلفتُ لقد أَصبحتُ شاكرَها لا أَحلفُ اليومَ من هاتا على أَثِم
(ص ٢٦٦ ب ٢٣ – ٢٥)

فيتواضع بذلك فى ظل الوليد تواضعاً عجيباً ، وتنتهى به الحال إلى أن يشكر الأمويين والخليفة شكر الخائف الذليل ، بعد أن كان يعدد أفضاله وأفضال قومه عليهم فى ظل عبد الملك .

فلماذا فقد الأخطل منزلته ؟ ولم لم يحتفل به الوليد احتفال أبيه ؟

هناك فيما نرى عدة عوامل انتهت بالأخطل إلى هذه الحال . فقد تغيرت الأحوال فى عهد الوليد عنها فى عهد الملك ، ولم تعد هناك حاجة إلى استرضاء

النصارى وتمييزهم ، بعد أن استقرت أمور الدولة داخلياً ، وكان الوليد أشد من أبيه تقيداً بمظاهر الدين وأكثر منه غيرة على مصالح المسلمين . فلما ولى الخلافة ، اشتد على ولاته فى جمع الجزية من النصارى ، ونزع من نصارى الشام كنيستهم فى دمشق ، وحولها إلى الجامع الأموى[١] . وصعد المنبر يوماً ، فسمع صوت ناقوس فقال : « ماهذا ؟ » ، قيل « البيعة » ، فأمر بهدمها ، وتولى بعض ذلك بيده فتتابع الناس يهدمون[٢] . وأنفق على بناء المساجد الأموال الجليلة[٣] ، واهتم بالجهاد فى سبيل الله ، وبعث بجيوشه مشرقة ومغربة تنشر الإسلام[٤] فكان بحق خير خلفاء بنى أمية بلاء وجهاداً فى نصرة الدين الإسلامى . فلا يبعد أن يكون لهذه الغيرة الدينية أثر كبير فى إضعاف منزلة الأخطل عند الوليد ، وفى أن يفضل عليه الخليفة شاعراً من شعراء المسلمين .

ولم يكن الوليد على شاكلة أبيه بصراً بالشعر وفهماً لفنونه وقدرة على تمييز غثه من سمينه . ولم يؤثر عنه ما أثر عن عبد الملك من حفظ الأشعار ونقد الشعراء ، بل أثر عنه الانهماك فى الفتوح والاهتمام بالعمارة والبناء[٥] . والرواة متفقون على أن أباه أفسده بحبه له ، فلم يعن بتهذيب لسانه وإقامة بيانه . واعترف عبد الملك بذلك ، فقال : « أضر بالوليد حبنا له ، فلم نوجهه إلى البادية »[٦]. وقال المدائنى : « كان الوليد أحسن ولد عبد الملك ، وكان يحبه ، فتراخى فى تأديبه لشدة حبه إياه ، فكان لحاناً »[٧] . وقال ابن كثير : « وكان أبواه يترفانه ، فشب بلا أدب ، وكان لايحسن العربية »[٨] . وروى أن عبد الملك أراد أن يعهد إليه ، ثم توقف لأنه لايحسن العربية ، فجمع الوليد جماعة من أهل النحو عنده ، فأقاموا سنة ، وقيل

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٥ ص ٢٦٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٩ ص ١٤٢ – ١٦١ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٥٧ .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج٥ ص ٢٦٥ ؛ المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٥٢ .

(٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٥ ص ٢٦٥ و ٢٦٦ .

(٥) نفس المصدر ، ج٥ ص ٢٦٦ .

(٦) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج ٢ ص ١٦٥ .

(٧) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٣ ص ١٦٨ .

(٨) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٩ ص ١٦١ .

ستة أشهر ، فخرج يوم خرج أحهل مما كان[1] . فليس ببعيد أن يكون لهذا الضعف أثره فى قلة اهتزاز الوليد للشعر وفى قلة احتفاله بالشعراء ، وأن يكون لذلك أثره فى قلة تقديره للأخطل على مافى قصائده من جودة .

ولم يكن لتغلب قوم الأخطل فى فتوح الوليد أثر أو بلاء ، إذ كانوا وغيرهم من أهل الذمة مبعدين عن جيوش المسلمين ، ففقد الأخطل بذلك سنداً كان من الممكن أن يزيده قرباً من الخليفة ، وأمسك عن ذكر قومه ، فلم يفخر ولم يهج ، واكتفى بتسجيل بلاء المسلمين .

وقد يكون لعامل السن أثره فى تكييف صلة الأخطل بالوليد . فقد كان الأخطل شيخاً هِمًّا قد سقطت أسنانه وابيضّ شعره وتقوس ظهره وأصبح قاب قوسين من الموت أو أدنى . وكان الوليد شاباً قوياً ممتلئاً نشاطاً وحيوية تتنزى بين جنبيه فورة الشباب . ولا نحسب أنه يطيب لشاب متوثب مثله أن يتخذ من هذا الشيخ الفانى شاعراً يستأثر به فى مجالسه ويتفرغ لحديثه . ويبدو لنا أن الوليد حين أفسح له من صدره واستمع لشعره وأناله من عطائه ، قد فعل ذلك رعاية لذكرى أبيه الذى كان يعجب به ويهتز لروائع فنه ، وشفقة به وهو يرى ذبوله ودنو أجله .

ولم ينس الأخطل فى آخر حياته أن يبعث إلى الوليد بقصيدته الميمية يؤكد له فيها إخلاصه وولاءه ، ويشكر فضله وفضل بنى أمية ، ويذكر سبب امتناعه عن القدوم إلى الشام . فإذا هو مضطر إلى أن يبتعد عن دمشق متوجساً من من دسائس الوشاة :

وقد عَلمتم وإن أصبحتُ نائيَكم ... نُصْحِى قديماً وفعْلى غيرُ متَّهَمِ
لقد خَشِيتُ وُشاةَ الناس عندكمُ ... ولا صحيحَ على الأعداء والكلِمِ

(ص ٢٦٧ ب ٢٩ و ٣٠)

وبذلك يختم الأخطل صلته بالأمويين ختاماً مؤسيا شاكياً، فيه التقدير والولاء والإخلاص من جانبه ، وفيه الإهمال والنسيان من جانبهم . ومات عام ٩٢ هـ ، فى السنة السادسة من خلافة الوليد[2] ، بعد أن خلف لنا سجلا حافلا بالشعر ، يمثل نشاطه الفنى والسياسى فى ظل الدولة الأموية .

---

(١) نفس المصدر ، جـ ٩ ص ١٦١ .

(٢) نفس المصدر ، جـ ٩ ص ٨٤ .

الباب الرابع

شعر الأخطل في ظل الأمويين

إحصاء

إذا كانت صلة الأخطل بالأمويين قد احتلت أبرز مكان فى حياته ، فإن شعره الذى يمثلها قد احتل أبرز مكان فى ديوانه . وقد بينا فى الأبواب السابقة مكان هذه الصلة من حياته . ونريد فى هذا الباب أن نبين مكان الشعر الذى يمثلها من ديوانه ، وخصائص الشاعر الفنية بين أقرانه ، والتيارات المختلفة التى تأثر بها شعره فى ظل الدولة الأموية . وطريقنا فى دراسة هذا الشعر أن نضم بعضه إلى بعض ، وندل على مكانه من الديوان ، ونعين من قيل فيه ، ونحدد ، قدر ما نستطيع ، الفترة التى نظم فيها ، ونحصيه بعد ذلك إحصاء يدلنا على النسبة التى ظفر بها من شعر الشاعر كله .

استهل الأخطل صلته بالأمويين بمقطوعة هجا بها الأنصار (وصرار ٣١٤) ، وأخرى هجا بها النعمان بن بشير (بشير ٣١٢)[1] .

واتصل من رجال البيت السفيانى بيزيد بن معاوية ، وعبد الله بن معاوية ، وخالد بن يزيد . فمدح يزيد بأربع قصائد ومقطوعة وبيتين مفردين (الطللان ٢٣٢ ، فأصعدا ٩٠ ، الدار ١١٢ ، معمود ١٤٦ ، يزيدا ٣١١ ، بالعنقز « رغ » ٢٦٦) . ورثاه بمقطوعة (غمر ٢٨٩) . ومدح عبد الله بقصيدتين (ومزار ٧٦ ، نكد ١٦٧) . ومدح خالداً بقصيدة (أمور ٣٤) .

وهيأت له صلته بيزيد أن يعقد أسبابه بثلاثة من عماله . فاتصل بعبيد الله بن زياد والى العراق ، وسلم بن زياد والى خراسان ، وعباد بن زياد والى سجستان . فمدح عباداً الله بمقطوعة (ووسيل ٢٩٣) ، ومدح سلماً بقصيدة (غلق ٢٥٨) ، ومدح عباداً بقصيدة (قريب ١٧٨) .

واتصل من رجال البيت المروانى بعبد الملك بن مروان ، وبشر بن مروان ،

---

(١) رأينا أن نكتفى بذكر الصفحة مادام النقل عن شعر « الأخطل » فإذا كان من مصدر آخر أشرنا إليه برمزه . وقد رمزنا بالتاء لـ « التكملة لشعر الأخطل » ، وبالشين لـ « الشذر الذهبى » ، وبالنون لـ « نقائض جرير والأخطل » ، وبالراء والغين لـ « رسالة الغفران » .

والوليد بن عبد الملك ، وبخالد بن أسيد ، وعبد الله بن سعيد ، وأبي بكر وعمر ابني عبد العزيز ، وهشام بن عبد الملك . فمدح عبد الملك بثلاث قصائد (آخر الدهر ١٢٨ ، غير ٩٨ ، القرب ١٧) ، وهجا بين يديه الجحاف بن حكيم بمقطوعة (وعامر ٢٨٦) ، وأنشده فى مناسبات مختلفة عدة أبيات ، بعضها فى الخمر (العقولا ٣٧١ ، الأضاحى ١٥٤ ، هدير ١٥٤) ، وبعضها فى هجاء جرير (العجيبا ١٥٥) . ومدح بشراً بخمس قصائد (فالشعب ٣٨ ، أخا بله ٥٨ ، ورع ٦٨ ، فقصيمها ١٢٠ ، فالمجول ١٢٤) . ومدح الوليد بأربع قصائد ومقطوعة (والحطب ١٨٢ . فالعوير ٢٠٢ فنصائبه ٢١٦ ، والحمم ٢٦٤ ، الشديد ٢٣٢) . ومدح خالداً بقصيدتين وبيتين مفردين (أجمل ٢ ، بسلام « ت » ٤٤ ، أسيد ٣٠٢) . ومدح عبد الله بقصيدة (والربابا ٥٢) . ومدح أبا بكر وعمر بمقطوعة (السفر ٢٧٧) . أما هشام فلم يصل إلينا من مدحه شيء .

وهيأت له صلته ببشر أن يعقد أسبابه بكاتبه عكرمة بن ربعى الفياض . فمدحه بقصيدتين (خوال ١٥٦ ، قدم الدهر ٢١١) . ومدح بأمر من عبد الملك الحجاج بن يوسف والى العراق بقصيدة (غرور ٧٣) .

وجمعت السياسة بين قبيلته والبيت المروانى فى المصالح ، فإذا أعداء تغلب من القيسية هم فى الوقت عينه خصوم للدولة الأموية . فهجا القيسية فى بعض مدائحه السابقة ، وأفرد فى هجائهم مجموعة أخرى من الأشعار ، بعضها قصائد ، وبعضها مقطوعات ، وبعضها أبيات . أما القصائد فعشر (الأصهب ٢٧ ، البراق ٣٠ ، المناخر ١٨٩ ، وان ١٩٢ ، سفر ١٩٦ ، بالعمر ٢٢٠ ، الزبور « ش » ٤ ، التراتر ٣١٥ ، سؤالا « ش » ٧ ، الغبارا « ش » ٢٩) . وأما المقطوعات فخمس (بنى معاز ١٥١ ، علا ٢٨١ ، البعيد ٢٨٢ ، مجاشعا ٣٠٧ ، ذكروا « ش » ٢٥) . وأما الأبيات ، فمجموعة متفرقة فى ثنايا الديوان (سعيد ٢٩٩ ، الصبر ٣٠١ ، أخبارها ٣٠١ ، الأراقم ٣٠٣ ، فصالع ٣٠٥ ، ولزولا ٣١٢ ، مضيض ٣١٢ ، الغبار ٣٦٥ ، العرب « ت » ٥٦ ، بأسيار ٣٨٢ ، الغدر ٣٨٤) .

واشترك بتحريض بشر فى الحركة الهجائية التى كانت قائمة بين جرير والفرزدق فهجا جريراً فى بعض مدائحه السابقة ، وأفرد فى هجائه مجموعة أخرى من الأشعار ،

بعضها قصائد وبعضها مقطوعات . وبعضها أبيات . أما القصائد ، فثمان (خيالا « ت » ٧٠ ، خدورا « ن » ١١٤ ، الكبار « ن » ١٢٧ ، والعار « ن » ١٣٤ ، يلحانى « ن » ٢١٩ ، دعانيا ٦٥ ، ساغب ٥٦ و ٢٧٨ ، الحوارك ٢٧٥ و ٢٨٤) . وأما المقطوعات ، فخمس (وسلول « ن » ١٧٧ ، المطالا ١٦٣ ، كنود ٢٧٢ ، زيالها ٣٢٠ ، الحلق « ش » ١٣) . وأما الأبيات ، فمجموعة متفرقة فى ثنايا الديوان (الرفق ٢٩٩ ، يسبح ٣٠٧ ، وأعيارها ٣٧٢) .

هذا ما وصل إلينا من شعره فى ظل الأمويين . وهو يكاد ينحصر فى مجموعتين بارزتين ، إحداهما تتمثل فى مدائحه التى نظمها فى الأمويين وعمالهم ، والأخرى تتمثل فى أهاجيه التى نظمها فى الأنصار والقيسية وجرير . وتعداده جميعاً خمس وأربعون قصيدة ، وثمانى عشرة مقطوعة ، ومجموعة متفرقة من الأبيات ، وعدد أبياته مجتمعة نيف وثمانمائة وألف بيت .

أما سائر ما وصل إلينا من شعره ، فيمثل نشاطه الفنى بعيداً عن ظل الأمويين وهو يكاد ينحصر فى مجموعات ثلاث ، إحداها فى مدح أشراف بعض القبائل ، والثانية فى هجاء شخصى أو قبلى ، والثالثة فى أغراض فنية صرفة كالغزل والوصف والفخر والخمريات ، وتعداد هذا الشعر كله عشرون قصيدة ، وثلاث وثلاثون مقطوعة ، ومجموعة متفرقة من الأبيات . وعدد أبياته مجتمعة نيف وتسعمائة بيت .

وعلى ذلك ، فإن ماوصل إلينا من شعره متصلا بالأمويين يمثل ثلثى ماوصل إلينا من مجموع أشعاره ويحتل أبرز مكان وأوسعه فى ديوانه .

ولما كان الأخطل قد نظم من المدائح فى ظل الأمويين أغلب مانظمه فى ظلهم من شعر ، ولما كان أشد احتفالا بفنه فى هذه المدائح ، وأكثر تصويراً لموقفه من الأمويين وموقف الأمويين منه ، فقد رأينا أن ندرس هذا الشعر ممثلا أول الأمر فى هذه المدائح ، على أن ندرسه بعد ذلك ممثلا فيا نظمه فى ظلهم من أهاج ، ثم نختم الباب بوضع الأخطل فى مكانه بين السابقين عليه من شعراء الجاهلية والمعاصرين له من شعراء الإسلام .

الفصل الأول

المدائح

فن الأخطل فى المدائح – العناية بالمقدمات – تقسيم القصيدة – أساليب التصوير – الاستطراد فى معرض التشبيه – الاستدارة فى معرض المفاضلة – الاستدارة فى معرض التوكيد – الوصف القصصى – الحركة فى التصوير – الصور الجزئية – اللفتات النفسية – موسيقى الألفاظ – استيحاء البيئة البدوية – الجرى على سنن الشعر الجاهلى – تصوير الجو السياسى فى ظل الأمويين – عنصر القبيلة والمزج بين المدح والفخر والهجاء – العنصر الدينى والمزج بين السياسة والدين – مدائح الأخطل فى ظل الأمويين تمثل أروع ما تفتحت عنه عبقريته من مدائح .

منذ عقد الأخطل بالأمويين أسبابه لم يأل جهداً فى أن يقدم إليهم خير ماتفتحت عنه عبقريته الشعرية من مدائح ، فنظم فى مدحهم ومدح عمالهم مجموعة قيمة من الأشعار ، كانت ، ولا تزال ، موضع إعجاب كل من يقدر الشعر القوى الممتاز .

ولا يسع من يتأمل هذه المدائح غير أن يعترف بروية الأخطل فى نظمها ، وتأنيه فى تناول أغراضها . فهو يعنى أشد العناية بنظام بنائها ، ولا يسرع فيها إلى غرضه الرئيسى ، بل يتأنى فى التمهيد لهذا الغرض بـ « مقدمات فنية » يجود فيها عامدا ، حتى ليبلغ من اهتمامه بأمرها وإلحاحه فى الوقوف عندها أن يفرد لها من المدحة أحياناً أكثر من نصفها ، أو يبلغ بها أحياناً ثلاثة أرباعها .

فنونيته « الطللان » ٤٠ بيتاً تحتل منها المقدمات الفنية ٢٦ بيتاً ، وداليته « معمود » ٥٠ بيتاً تظفر المقدمات منها بـ ٤٣ بيتاً ، ورائيته « الدار » ٤٩ بيتاً تبلغ المقدمات فيها ٣١ بيتاً ، وقافيته « غلق » ٤١ بيتاً منها فى المقدمات وحدها ٣٥ بيتاً ، وعينيته « ورع » ٣٩ بيتاً تبلغ المقدمات فيها ٢٤ بيتاً ، ولاميته « أجمل » ٦٨ بيتاً تظفر المقدمات منها بـ ٥٠ بيتاً ، وبائيته « والربابا » ٣٧ بيتاً تحتل المقدمات منها ٣٠ بيتاً ، وبائيته « فنصبائبه » ٣٣ بيتاً تبلغ المقدمات فيها ١٩ بيتاً ، وبائيته « والحطب » ٥١ بيتاً منها فى المقدمات وحدها ٣٦ بيتاً ، وبائيته « قريب » ٢٦ بيتاً تحتل منها المقدمات نصفها .

وبالرغم من اضطراره في بعض مدائحه إلى أن يطيل القول فى المديح ، وبالرغم مما كان يبذله فى هذا المديح من جهد ، فما كان ذلك ليحول بينه وبين العناية بهذه المقدمات . فهو يقدم لداليته « شجاك » بـ ٢٠ بيتاً ، ولداليته « فأصبحن » بـ ١٢ بيتاً ، ولرائيته « ومزار » بـ ١١ بيتاً ، ولرائيته « فالعوير » بـ ٢٠ بيتاً ، ولرائيته « قدم الدهر » بـ ١٣ بيتاً .

بل إنه ليعنى بهذه المقدمات الفنية فى مدائحه التى شغل فيها بالهجاء السياسى إلى جانب المديح . فيفرد لرائيته « غير » من المقدمات ١٧ بيتاً ، ولبائيته « القرب » ١٤ بيتاً ، ولميميته « فقصيمها » ١٥ بيتاً .

* * * *

والأخطل يبدأ المدحة غالباً بمقطع فى الغزل ، يمهد له أحياناً بمقطع فى وصف الطلل ، ويفرع منه أحياناً مقطعاً آخر فى وصف الخمر . فإذا فرغ من ذلك ، انتقل إلى مقطع جديد فى وصف الناقة ، يفرع منه غالباً مقطعاً فى وصف الثور وحلائله أو فى وصف الحمار وأتنه ، أو يجمع بين الوصفين فى مقطعين . . وقد يتبع هذا الوصف أو ذاك بمقطع فى وصف الصيد ، أو ينتقل منه إلى مقطع طويل فى وصف الخمر ، أو يفرد قبله مقطعاً فى وصف الصحراء . وقد يأتى مكان الناقة بمقطع فى وصف السفينة أو يفرد قبله مقطعاً فى وصف الغراب والذئب . وأحياناً يضمن مقدماته مقطعاً فى الاعتزاز بشعره والتهديد لخصومه ، أو فى تصوير نظرته إلى الحياة وما مر به من تجارب .

فإذا انتقل إلى غرضه الرئيسى حرص على تقسيم عناصره وتنسيقها حرصه على ذلك فيما مهد به من مقدمات ، وأخذ يتنقل بين هذه العناصر مستأنيا متمهلا ، وفى غير ما عجلة أو اندفاع . فنراه ينشئ مقطعاً يبرز فيه شخصية الممدوح ، وآخر يشيد فيه بمآثر قوم الممدوح . وقد يمهد للمقطعين بمقطع يتناول فيه أطماعه التى يرجيها عند الممدوح ، أو يفرع منهما مقطعاً يصور فيه وقعة كان للممدوح فيها بلاء ، أو يتشرف فى مقطع آخر بدءاً بالممدوح تستحق الإشادة والذكر . فإذا كان غرضه الرئيسى مزيجاً من المدح والهجاء ، فقد اتسع مجال القول أمامه ، وتعددت مناحى الكلام ، فهناك مقطع للممدوح ، وآخر لقوم الممدوح ، وثالث للمهجو ، ورابع

لقوم المهجو. وقد يكون هناك مقطع أو مقطعان فى المفاضلة . وقد يضمن ذلك كله مقطعاً يفخر فيه بنفسه أو يندد فيه بأعدائه أو يشيد فيه بمآثر قومه [1] .

* * *

وأبى الأخطل إلا أن يضاعف جهده الفنى فى تنمية هذه الأغراض ، فعنى عناية كبيرة بأن يقف بين الحين والحين « وقفات فنية » يبدع فيها و يطيل ، واتخذ إلى ذلك أساليب من الفن والبيان عرفها الشعر الجاهلى، وبخاصة عند عبيد الشعر وأصحاب الحوليات .

من هذه الأساليب « الاستطراد » فى معرض التشبيه . فقد يعرض له معنى من المعانى أو صورة من الصور ، ويحس بالحاجة إلى التمثيل، فيشبه المعنى بآخر يماثله، والصورة بأخرى تحاذيها ، ويستهويه الموقف ، فيفصل القول فى المشبه به ، حتى إذا استوفى حظه مما أراد، عاد إلى ما كان آخذاً فيه من حديث ، أو انتقل إلى غرض آخر من أغراضه الشعرية .

فنى رائيته « ومزار » أراد أن يشبه حالته النفسية عند فراق الأحبة ، فإذا هو :

وكأنّما أنا شاربٌ جادتْ له بُصْرَى بصافية الأَديم عُقارِ

وهيأ له ذكر الخمر مادة للحديث، فوقف عندها ليتحدث عن كرمها وعتقها وقوة تأثيرها ، ثم عاد إلى ما كان آخذاً فيه من ذكر الأحبة .

(ص ٧٦ و ٧٧ ب ١ — ٨)

وفى لاميته « أجمل » شبه حاله عين هذا التشبيه :

كأنّى غداةَ انصَعْنَ للبين مُسْلَمٌ بضربةِ عُنْقٍ أو غَوِىٌّ معذَّلُ
صريعُ مُدامٍ يرفع الشَّرْبُ رأسَه ليحيا وقد ماتت عظام ومَفْصِل

وساقه التشبيه إلى أن يفصل القول فى الخمر ، فصور أثرها فى النفس والجسم ، وصور شاربها وقد عقدوا مجلسهم عليها وأداروها بينهم ، وصور ما كان يتخلل شربها من طعام وغناء وقصف ، ثم عاد إلى ما كان آخذاً فيه من ذكر النساء .

(ص ٢ — ٥ ب ٤ — ٢١)

---

(١) خلف الله : محاضرات عن الأخطل .

وفى رائيته «الدار» أراد أن يصور الناقة فى قوة احتمالها وسرعة جريها، فتراءت له :

كأنهـا برجُ رومىٌّ يُشَيِّدُه لُزَّ بجصّ وآجُرٌ وأحجارِ

أو مُقْفِرٌ خاضبُ الأظلاف جادَ له غيثٌ تَظاهر فى مَيْثاء مِبْكار

وهيأ له التشبيه الأخير مادة للتصوير . فصور الثور مستفرداً وحداً فى ليلة ماطرة عاصفة ، وصوره مفزعاً مطارداً يدفع عن نفسه بطش الصيادين وكلابهم ، وصوره آمناً مطمئناً بعد أن صمد للطبيعة فى قسوتها ورد عن نفسه كيد أعدائه . واستطاع بهذا الاستطراد أن يجسم حركة الناقة فى عدوها وقوة احتمالها فى أسلوب قصصى ، تتسلسل فيه الصور وتتلاحم الأجزاء ، حتى لنكاد نلهث ونحن نتابع الثور فى عدوه ، ونرثى لهذه الناقة التى تشبه حالها حاله .

(ص ١١٣ – ١١٦ ب ٩ – ٢٧)

ومن ذلك ما استطرد إليه فى لاميته «أخابله» . فقد شبه الناقة بحمار الوحش :

كأنى أغُول الأرضَ عنِّى بقارح أخى قفرة قد طار عنه نَسائلُهْ

ثم استطرد من هذا التشبيه إلى تصوير الحمار . فصوره وأتنه بعد أن أجدب المرعى وعز القوت ، وصوره وأتنه مرتحلين فى طلب الكلأ ، وصوره وأتنه وقد ظفروا آخر الأمر بالخصب ، وأطال فى هذا التصوير حتى جعل من مقطع الناقة صورة قوية تنبض بالحركة والجهد .

(ص ٦٠ – ٦٢ ب ١١ – ٣١)

وفى داليته «نكد» ، أراد أن يصور كرم عبد الله بن معاوية ، فشبهه بالنهر جوداً وسخاء :

كأنه مُزْبِدٌ ريّانُ منتجَعٌ يعلو الجزائرَ فى حافاته الزَّبَدُ

وهيأ له هذا التشبيه مادة يبدع فيها ويطيل، فصور النهر ريان مزبداً تضرب أواذيه الشطئان، وصوره هائجاً مائجاً يكتسح فى طريقه الأشجار ، وصوره قوياً عارماً تظل فيه أنجية بنات الماء ، وصوره مع ذلك كله بشير يمن وبركة ، يحيى

الموات ، وريّ العطاش ، فكان استطراداً فنياً جميلا جسم به كرم الممدوح ، ونمى به جرائمه المديح .

.... (ص ١٧٢ و ١٧٣ ب ٣٤ - ٣٧)

وفى نونيته « الطللية » ، أراد أن يشبه حاله بعد حادثة الأنصار ، فإذا هو كالقطا حين لا يجذى أفراخه الماء :

لياليَ لا يُجْذِى القَطا لفراخه بذى أَبْهَرَ ماءٌ ولا بحَفَانِ

واستطرد من هذا التشبيه إلى تصوير الفراخ . فصورها فى عشها ، لم يشتد بعد عودها ، تدرج تحت الظلال كالأفانى ، وصورها وقد انتثرت تحتها بقايا طعام تبدو كنثار الورس فى مخادع القيان .

(ص ٢٣٦ ب ٣٠ - ٣٣)

وفى نفس النونية يستطرد من الناقة إلى الحمار :

كأنّى وأجلادى على ظهر مِسْحَلٍ أَضَرَّ بملساء السَّراة حَصانِ

.... (ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ب ٢١ - ٢٦)

وفى داليته « معمود » يستطرد نفس الاستطراد :

كأنّهاَ قاربُ أقْرَى حلائلَه ذاتَ السلاسل حتى أَيْبَس العُودُ

.... (ص ١٤٨ - ١٥١ ب ٢٦ - ٤٢)

وفى قافيته « خلق » يستطرد من الناقة إلى الثور :

كأنّها بعد ضَمِّ السَّير جِبْلَتَها من وَحْش عَزّةَ مَوْشِيٌّ الشَّوَى لَهِقُ

.... (ص ٢٦٠ - ٢٦٢ ب ١٨ - ٢٩)

وفى داليته « نكد » يستطرد من الناقة إلى الثور والحمار :

كأنها واضحُ الأقرابِ أفزعَه غُضْفٌ نواحلُ فى أعناقها القِدَدُ

(ص ١٦٩ - ١٧١ ب ٩ - ٢٠)

وفى عينيته « ورع » يستطرد من الناقة إلى الثور والنعام :

كأنّها أسحمُ الرَّوْقَين منتجعٌ تتلوه رجْلان فى كعبيهما صمَعُ

.... (ص ٧٠ و ٧١ ب ١٩ - ٢٤)

وفى رائيته « خير » يستطرد من الغزل إلى الخمر :

كأنّنى شاربٌ يومَ استُبِدَّ بهم   من قَرْقَفٍ ضَمنتْها حمْصُ أو جَدَرُ

. . . . .   (ص ٩٨ و ٩٩ ب ٢ – ٦)

وفى لاميته « أجل » يستطرد من المدح إلى السحاب :

سقى الله أرضاً خالدٌ خيرُ أهلها   بمستفرِغٍ باتت عَزَالِيهِ تَسْحَلُ

. . . . .   (ص ٩ و ١٠ ب ٥١ – ٥٨)

* * *

ومن الأساليب الفنية التى اتخذها الأخطل فى تنمية مدائحه وتجويد مديحه « الاستدارة » . وهى « جملة متوسطة الطول تشتمل على فاتحة وخاتمة ، وتتألف من فواصل ترتبط بإحكام ، وتتساوق فى نظام ، وتحمل كل فاصلة من فواصل الفاتحة جزءاً من المعنى ، بحيث لا يتم إلا بذكر الجملة الأخيرة وهى الخاتمة »[1] .

وقد سلك الأخطل لهذا الأسلوب طريقين مختلفين ، قوام أحدهما « المفاضلة » وقوام الآخر « التوكيد » .

أما الاستدارة فى معرض «المفاضلة» ، فمؤداها أن يرى الشاعر وجه شبه بين صورتين مختلفتين ، فيقابل بينهما ، ويفضل إحداهما على الأخرى ، فى شكل دائرى ، يبدأ دائماً بالمفضول منفيًّا ، لينتهى دائماً بالمفضل مثبتاً .

من ذلك فى مدح يزيد :

وما مُزْبِدٌ يعلو جزائرَ حامرٍ   يشقُّ إليها خَيْزُرانا وغَرْقدا

تَحرَّزَ منه أهلُ عانةَ بعد ما   كسا سورَها الأعلى غُثاءٌ منضَّدا

يقمِّص باللاَّح حتى يَشُقَّه   م الحِذارُ وإن كان المُشيحَ المعوَّدا

بمطَّرِدِ الآذىِّ جَوْنٍ كأنّما   زفا بالقراقير النعـامَ المطرَّدا

كأنَّ بناتِ الماء فى حَجَراته   أباريقُ أهدتْها دِيافُ لصَرْخدا

---

(١) الزيات : دفاع عن البلاغة ، ص ١١٢ .

بأجودَ سيبًا من يزيدَ إذا غدتْ ‏ ‏ به بُخْتُه يَحْمِلْنَ مُلْكاً وسؤددا

(ص ٩٦ و٩٧ ب ٣٣ – ٣٨)

فقد رأى فى النهر إذا فاض ، وفى الممدوح إذا أعطى وأثاب ، وجه شبه يتمثل فى هذا الخير الذى يصيب الناس بعد فيضان هذا وعطاء ذاك . ووجد فى هذا الشبه مجالا للمفاضلة بين فيضان النهر وعطاء الممدوح . وما إلى تفضيل النهر أراد ، بل قصد إلى تمجيد ممدوحه كرماً وسخاء ، فبدأ بصيغة النفى ، مصوراً هذا النهر ، وهو فى أشد أوقاته جوداً بالماء ، وفصل القول فى تصوير هذا الفيضان ، حتى إذا ما انتهى من هذا التصوير ، تم له آخر الأمر ما أراد إليه من تفضيل الممدوح على النهر حين يسخو على الناس بالمال .

ومن ذلك فى مدح عبد الملك :

وما الفراتُ إذا جاشت حوالبُه ‏ ‏ فى حافتيه وفى أوساطه العُشَر

وذعذعتْه رياحُ الصيف واضطربتْ ‏ ‏ فوق الجآجئِ من آذيّه غُدُر

مُسْحنفِرٌ من جبال الروم يَسْتره ‏ ‏ منها أكافيفُ فيها دونَه زَوَر

يوماً بأجودَ منه حين تسألُه ‏ ‏ ولا بأجهرَ منه حين يجتهر

(ص ١٠١ و١٠٢ ب ٢٢ – ٢٥)

وفى مدح عكرمة :

وما مُزْبِدُ الأطوادِ من دون عانةٍ ‏ ‏ يشقُّ جبالَ الغَوْرِ ذو حَدَبٍ غَمر

تظل بناتُ الماء تبدو متونُها ‏ ‏ وطوراً تَوارَى فى غواربه الكدر

متى يَطَّرِدْ يَسْقِ السوادَ فُضولُه ‏ ‏ وفى كل مُسْتَنٍّ جداولُه تجرى

بأجودَ من مأوى اليتامى وملجإ ‏ ‏ المضافِ ووهّابِ القيانِ أبى عَمرو

(ص ٢١٤ و٢١٥ ب ٢٦ – ٢٩)

فقد استعان بالاستدارة فى تنمية موضوعه وتجويد مديحه ، واتخذ من فيضان النهر مادة غنية بالصور ، ينتقى منها ما هو أليق بغرضه وأوفق لمراده. فصور الشطئان وقد غمرها الماء ، والأمواج وقد اكتسحت فى طريقها الأشجار . وصور السفن

مضطربة أشد الاضطراب ، والملاحين فوقها وقد دب فى نفوسهم الذعر. وصور الروافد وهى تصب بمائها فى النهر ، فتزيده ثورة وإزبادا وفيضاناً . وصور الرياح تهب قوية عنيفة ، فتعصف الأمواج بالسفن وتعلوها .

وأعجب بهذا الأسلوب فى الغزل ، فأنشأ فى معرض « المفاضلة » استدارة يتغنى فيها بجمال المحبوبة :

ما روضةٌ خضراءُ أزهر نَوْرُها بالقَهْر بين شقائقٍ ورمالِ
بَهِجَ الربيعُ لها فجاد نباتُها ونَمَتْ بأسحمَ وابلٍ هطّال
حتى إذا التفَّ النباتُ كأنه لونُ الزخارف زُيِّنتْ بصقال
نفت الصَّبا عنها الجَهامَ وأشرقتْ للشمس غِبَّ دُجنَّةٍ وطِلال
يوماً بأملَح منك بهجةَ منطقٍ بين العشيِّ وساعةِ الآصال
حسْناً ولا بألذَّ منك وقد صَغتْ بعض النجوم وبعضُهن تَوالى

(ص ٣٢٣ ب ١١ — ١٦)

فقد رأى فى الروضة مزهرة فى الربيع ، وفى المحبوبة متبدية للناظرين ، وجه شبه يتمثل فى هذا الجمال الذى يأسر بمفاتنه الألباب . ووجد فى هذا الشبه مجالا للمفاضلة بين الجمال هنا والجمال هناك . وما إلى تفضيل الروضة قصد ، بل أراد إلى تمجيد المحبوبة حسناً ونضرة وبهاء ، فبدأ بصيغة النفى ، مصوراً هذه الروضة وهى فى أروع مفاتنها ، وفصل القول فى هذه المفاتن ، حتى إذا ما انتهى من هذا التصوير ، تم له ما أراد إليه من تفضيل المحبوبة عليها حين تتكشف له بمفاتنها[1] .

وأما الاستدارة فى معرض « التوكيد » ، فمؤداها أن يحس الشاعر بالحاجة

---

(١) لم ينشئ الأخطل فى معرض المفاضلة ، فيما وصل إلينا من شعره ، غير ست استدارات ، واحدة منها فى إحدى أهاجيه (« ش » ص ٨ ب ١٤ و ١٥) ، وسنعرض لها فى حديثنا عن الأهاجى ، وخمس فى بعض ما نظمه فى ظل الأمويين من مدائح ، أربع منها تمتاز بطول فى النفس نسبى ، وهى التى عرضنا لها فى هذا الفصل ، وواحدة محدودة الرقعة أنشأها فى رائيته « قدم الدهر » ، وهى :

وليسوا إلى أحواضهم إذ تألفوا ولا يوم عرض عودا سدة القصر
بأسرع ورداً منهم نحو داره ولا ناهل وافى الجوابى عن عشر

(ص ٢١٤ ب ٢١ و ٢٢)

إلى تقرير معنى من المعانى ، أو موقف من المواقف ، فيلجأ إلى الأقسام مقرراً بها ما يريد ، فى مجموعة من الأبيات متلاحمة الأجزاء ، يسلم أولها إلى آخرها ، فى شكل دائرى ، يبدأ دائماً بالقسم ، لينتهى دائماً بتقرير المعنى أو الموقف.

وقد استعان الأخطل بهذا الأسلوب فى تنمية مدائحه وإظهار براعته الفنية فى المديح ، واتخذ من الحلف وسيلة يؤكد بها للممدوح إخلاصه وولاءه ، أو شكره وثناءه . ولم يكتف بالقسم الواحد فى حلفه ، فأكثر من الأقسام ماشاء له الإبداع الفنى ، وما أحس بالحاجة إلى تقرير المعنى وتوكيده، واتكأ على هذا الأسلوب فى توليد بعض الصور الشعرية .

فى مدح يزيد :

إنّى حلفتُ بربِّ الراقصات وما   أَضحى بمكةَ من حُجْب وأستارِ
وبالهَدِىِّ إذا احمرَّتْ مذارعُها   فى يوم نُسكٍ وتشريقٍ وتَنحار
وما بزمزمَ من شُمْطٍ محلِّقةٍ   وما بيثربَ من عُونٍ وأبكار
لألجأتْنى قريش خائفاً وجِلا   وموّلتْنى قريش بعد إقتار
(ص ١١٩ ب ٤٣ — ٤٦)

وفى مدح عبد الله :

ولقد حلفتُ بربِّ موسى جاهدًا   والبيتِ ذى الحُرمات والأستارِ
وبكلِّ مُهْتَبِلٍ عليه مُسوحُه   دونَ السماء مسبِّحٍ جـــآر
لأُحَبِّرَنْ لابن الخليفة مِدْحةً   ولأقذفنَّ بهـــا إلى الأمصار
(ص ٧٨ ب ١٢ — ١٤) .

وفى مدح بشر :

إنّى وربِّ النصارى عند عيدهِم   والمسلمين إذا ما ضمَّها الجُمَعُ
وربِّ كلِّ حبيسٍ فوق صَومعةٍ   يُمْسِى ولا همُّه الدنيا ولا الطمع
والمُلْبِدين على خُوصٍ مُخدَّمة   قد بان فيهن من طول السُّرَى خَضَع

حثّوا الرواحلَ مشدودًا حقائبُها ... مِنْ شأنِ رُكبانها الحاجاتُ والوَلع
لقد مدحتُ قريشاً واستغثتُ بهم ... إذْ ما أنام إذا ما صُحْبى هجعوا

(ص ٧١ و ٧٢ ب ١٩ – ٢١)

وفى مدح الوليد :

وقد حلفتُ يميناً غيرَ كاذبةٍ ... بالله ربِّ ستور البيت ذى الحُجبِ
وكلِّ مُوفٍ بنَذْرٍ كان يحمله ... مضرَّجٍ بدماءِ البُدْن مختضِب
إنَّ الوليدَ أمينَ الله أنقذنى ... وكان حصناً إلى مَنْجاته هربى

(ص ١٨٤ و ١٨٥ ب ١٩ – ٢١)

فالأخطل ، كما نرى ، يتخذ من الأجواء الدينية مادة ينمى بها مديحه ، ومن الاستدارة فى معرض التوكيد أسلوباً فنيًّا يعرض به مجموعة من هذه الأجواء . فإذا تتابعت الأقسام ، تتابعت معها المشاهد والصور ، لتسلم آخر الأمر إلى ما أراد إليه من توكيد شكره وثنائه أو إخلاصه وولائه . فمن صور مختلفة للحجيج ، وهم فى الطريق إلى مكة . وهم يطوفون بالبيت ، وهم فى زمزم ، وهم فى يثرب ، إلى صور مختلفة لمراسم الحج ، من نسك وتشريق ، وتنحار وتحليق ، إلى صورة للكعبة وما علق بها من أستار ، إلى صورة للراهب المتبتل فى صومعته ، إلى صورة للنصارى محتفلين بعيدهم ، إلى صورة للمسلمين مجتمعين فى مساجدهم . وهكذا نرى مجموعة من الصور الفنية تعرض علينا متتابعة فى مهابة وجلال[1] .

* * *

واستعان الأخطل إلى ذلك بـ « الوصف القصصى » ، فضمن مدائحه لوحات فنية تروق وتعجب بما فيها من ملامح قصصية تدنيها إلى النفوس ، وتجسم صورها فى القلوب ، وتكسب المدحة قوة فى البناء وفخامة فى العرض .

استعان بهذا الأسلوب فى وصف الخمر :

(١) لم ينشئ الأخطل فى معرض التوكيد ، فيما وصل إلينا من شعره ، غير ست استدارات ، وردت جميعاً فيما نظمه فى الأمويين من مدائح . وقد عرضنا هنا الأربع منها ، وسنعرض بعد قليل للأخريين فى حديثنا عن الأثر الدينى فى المدائح .

كأنى غداةَ انصعْنَ للبين مُسْلَمٌ ... بضربة عُنْق أو غوىٌّ معذَّلُ
صريعُ مُدام يرفع الشَّرْبُ رأسَه ... ليحيا وقد ماتت عظام ومَفْصِل
تُهاديه أحياناً ، وحيناً تجرُّه ... وما كاد إلا بالحُشاشة يَعْقِل
إذا رفعوا عَظْماً تحامل صدرُه ... وآخَرُ مما نال منها مخبَّل
شربتُ ولاقانى لحِلٍّ أليَّتى ... قِطارٌ تَروَّى من فِلَسْطينَ مُثْقَل
عليه من المِعْزَى مُسوكٌ رَوِيَّةٌ ... مملَّأةٌ يُعْلَى بها وتُعدَّل
فقلت اصبَحونى لا أبا لأبيكمُ ... وما وضعوا الأثقال إلا ليفعلوا
أناخوا فجرّوا شاصِياتٍ كأنها ... رجالٌ من السودان لم يتسربلوا
وجاءوا بِبَيْسانيةٍ هى بعدما ... يَعُلُّ بها الساقى ألذُّ وأسهل
تمرّ بها الأيدى سَنِيحاً وبارِحاً ... وتوضَع باللَّهمَّ حَىٍّ وتُحْمَل
وتوقَفُ أحياناً فيَفصِلُ بيننا ... غناءُ مغنٍّ أو شِواءٌ مُرَعْبَل
فلذَّتْ لمُرتاح وطابت لشارب ... وراجعنى منها مِراحٌ وأخْيَل
فما لبِثَتْنا نشوةٌ لِحقتْ بنا ... توابعُها مما نُعَلُّ ونُنْهَل
تَدِبُّ دبيبـاً فى العظام كأنه ... دبيبُ نِمالٍ فى نَقاً يَتهيَّل
فقلتُ اقتلوها عنكمُ بمِزاجها ... فأَطْيِبْ بها مقتولةً حين تُقتل

(ص ٢ – ٤ ب ٤ –١٨)

واستعان به فى وصف النور :

كأنها برجُ رومىٌّ يشيِّده ... لُزَّ بجِصٍّ وآجُرٍّ وأحجارِ
أو مُقفِرٌ خاضبُ الأظلاف جاد له ... غيثٌ تَظاهر فى مَيْثاء مِبْكار
فبات فى جنب أَرْطاةٍ تُكفِّئُه ... ريحٌ شآمية هبّتْ بأمطار
يجول ليلتَه والعَينُ تضربه ... منها بغيثٍ أجشِّ الرعد نيّار
إذا أراد بها التغميضَ أرّقه ... سيلٌ يدِبُّ بهَدْم التُّرْب موّار

كأنه إذ أضاء البرقُ بهجتَه ... فى أَصْفَهانيّةٍ أو مُصْطلِى نار
أمّا السَّراةُ فمن ديباجة لَهَقٍ ... وبالقوائم مثلُ الوشم بالقار
حتى إذا انجاب عنه الليل وانكشفت ... سماوُه عن أديم مُصْحِرٍ عار
آنسْنَ صوتَ قَنيصٍ إذ أحسَّ بهم ... كالجنُّ يَهْفُون من جَرْمٍ وأنمار
فانصاع كالكوكب الدُّرّىِّ مَيْعتُه ... غضبانَ يَخْلط من مَعْجٍ وإحضار
فأرسلوهنَّ يُذْرِينَ الترابَ كما ... يُذْرِى سبائخَ قطن نَدْفُ أوتار
حتى إذا قلتُ نالتْه سوابقُها ... وأرهقتْــه بأنياب وأظفار
أنحَى إليهنَّ عَيْناً غيرَ غافلةٍ ... وطعْنَ محتقِرِ الأقران كرّار
فعفَّر الضارياتِ اللاحقاتِ به ... عَفْرَ الغريب قِداحاً بين أيسار
يَعُذْنَ منه بحِزّانِ المِتانِ وقد ... فُرِقْنَ عنه بذى وَقْعٍ وآثار.
حتى شتا وهْو مَغْبوطٌ بغائطه ... يرعَى ذكورًا أطاعت بعد أحرار
فرْدٌ تُغنّيهِ ذِبّانُ الرياض كما ... غنّى الغُواةُ بصَنْجٍ عند إسْوار
كأنه من نَدَى القُرّاصِ مغتسِلٌ ... بالوَرْس أو خارجٌ من بيت عطّار

(ص ١١٣ – ١١٦ ب ١٠ – ٢٧)

واستعان به فى وصف الغراب والذئب :

وأرّقنى من بعد ما نمتُ نَومةً ... وعَضْبٌ جَلَتْ عنه القُيونُ يمانى
تَصاحُبُ ضيفَىْ قفرةٍ يعرفانها ... غرابٍ وذئبٍ دائمِ العَسَلان
إذا غَشِيانى هِيلَت النفسُ منهما ... قُشَعْريرةً وازددتُ خوفَ جَنان
إذا حضرانى عند زادِىَ لم أكن ... بخيلا ولا صبًّا إذا تركانى
إذا ابتَدرا ما تَطْرح الكفُّ فاته ... به حبشىٌّ كيّسُ اللحَظان
يُباعِدُه منه الجناحُ وتارةً ... يُراوح بين الخَطْوِ والحجَلان

(ص ٢٢٤ ب ١٠ – ١٥)

واستعان به فى المدح : (شفاعة يزيد)

وإنّى غداةَ استعبرتْ أمُّ مالكٍ لَراضٍ من السلطان أن يتهدّدا
ولولا يزيدُ بنُ الملوكِ وسعْيُه تجلّلْتُ حِدْبارا من الشر أنكدا
وكم أنقذتْنى من جَرُورٍ حبالُكُم وخرساءَ لو يُرْمَى بها الفيلُ بلّدا
ودافع عنى يومَ جِلّق غمرةً وهمًّا ينسّينى السُّلافَ المهوّدا
وبات نجيًّا فى دمشقَ لحيّةٍ إذا عض لم يَنْم السَّليمُ وأقصدا
يُخفّته طورًا ، وطورًا إذا رأى من الوجه إقبالا ، ألحّ وأجهدا
أبا خالدٍ دافعتَ عنّى عظيمةً وأدركتَ لحمى قبل أن يتبدّدا
وأطفأتَ عنّى نارَ نُعْمانَ بعدما أغـذّ لأمرٍ عاجزٍ وتجرّدا
ولما رأى النعمانُ دونى ابنَ حُرّةٍ طوى الكشحَ إذ لم يستطعنى وعرّدا
ولاقى امرءًا لا ينقُض القومُ عهدَه أمرَّ القُوَى دون الوُشاة وأحصدا
(ص ٩٢ — ٩٤ ب ١٣ — ٢٢)

واستعان به فى الهجاء : (فرار ابن بدر)

ونجّى ابنَ بَدْر ركضُه من رماحِنا بنضّاحةِ الأعطاف مُلْهَبــةِ الحُضْرِ
إذا قلتُ نالتْه العوالى تقاذفتْ به سَوْحَقُ الرجلين سابحةُ الصدر
كأنهمــا والآلُ ينجاب عنهما إذا هبطا وغْثًا يعومان فى غَمر
فظل يفدّيها وظلّتْ كأنهــا عُقابٌ دعاها جُنْحُ ليل إلى وَكر
كأن بطُبْييها ومَجْرَى حزامِها أداوَى تَسُحّ الماءَ من حَوَرٍ وُفْر
وظلّ يجيش الماءُ من متفصّد على كل حال من هزائمــه يجرى
يُسِرُّ إليها والرماحُ تنوشه فِدًى لك أُمّى إن دأبْتِ إلى العصر
وبالله لو أدركنَه لا ضطرَرْنه إلى صعبة الأرجاء مظلمةِ القَعر
فوسّد فيها كفّه أو لحجّلتْ ضِباعُ الصحارى حوله غيرَ ذى قبر
(ص ١٣٠ و ١٣١ و ١٣٢ ب ١٤ — ١٩ و ٣٢ — ٣٤/ن ٥ ، ٣٦ — ٣٨ ب ٤٥ — ٥٣)

واستعان به فى الفخر : (مصرع عمير)

وقد نُصِرْتَ أميرَ المؤمنينَ بنا ... لما أتاك ببطن الغُوطةِ الخبرُ

يعرِّفونك رأسَ ابنِ الحُبابِ وقد ... أضحى وللسيف فى خَيْشُومه أثر

لا يَسمع الصوتَ مُسْتَكًّا مسامعُه ... وليس ينطق حتى ينطقَ الحجر

أمست إلى جانب الحَشَّاكِ جِيفتُه ... ورأسه دونه اليَحْمُوم والصُّوَر

يسأله الصُّبْرُ من حَسَّانَ إذ حضروا ... والحَزْنُ كيف قَرَاكَ الغِلْمةُ الجَشَر

(ص ١٠٥ و١٠٦ ب ٥١ – ٥٥)

فالأخطل ، كما نرى ، لا يكتفى بالبيت أو البيتين ليصور موقفاً من المواقف أو حدثاً من الأحداث ، بل يصطنع الإطالة فى تصويره ، ويجعل من الموقف أو الحدث لوحة فنية فيها القصص فى الوصف ، والحركة فى التصوير ، والبراعة فى التجسيم ، والدقة فى التشبيه . وبلغ من إعجابه بهذا الأسلوب أنه استخدمه فى أغلب ماتناول من أغراض ، استخدمه فى الغزل والخمر والوصف ، كما استخدمه فى المدح والهجاء والفخر ، فاكتسبت بذلك مدائحه قوة فى البناء ، وطولا فى النفس ، وفخامة فى العرض .

• • •

ويتصل بهذا ما يصطنعه الأخطل من « الحركة » فى تصويره ، فيجعل من مقاطعه صوراً متتابعة يتلو بعضها بعضها فى حركة مستمرة ، تتمثل فى هذه الأفعال المتوالية التى ينتقل بها من صورة إلى أخرى . فحين يتغزل بمحبوبته لا يلزم نفسه الوقوف عند كل عضو من أعضائها ، وحين يصف الناقة قلما يجمد عند كل جزء من أجزاء جسمها ، وحين يصف الخمر لا يكتفى بإيراد مجموعة من الأوصاف يتغنى بها ، وحين يشيد بالممدوح لا يقتصر على تعداد مافيه من خصال ، بل كثيراً ما يصف المحبوبة مرتحلة ، والناقة متنقلة ، والثور مقاتلا ، والحمار جارياً ، والخمر متداولة ، والممدوح محارباً ، والخيل متدافعة ، والنهر فائضاً ، والسحاب متحلباً ، والعدو هارباً ؛ وهكذا .

فى رائيته « غير » نرى الأحبة قد « حثوا » المطى ، « فولت » الشاعر

مناكبها ، و « شرقن » « منقضبين » انقضاب الحبل ، « يتبعهم » البصر ، حتى « هبطن » من الوادى ، فنما « وركن » القضيم و « أشرفن » ، « وقعن » أصلا و « عاج » الشاعر من نجائبه .

(ص ٩٩ – ١٠١ ب ٧ – ١٧)

وفى نفس الرائية نرى الفرات الذى يفوقه الممدوح جوداً قد « جاشت » حوالبه ، « وذعذعته » رياح الصيف ، و « اضطربت » من آذيه غدر ، « مسحنفرا » من جبال الروم ، « يستره » منها أكافيف فيها دونه زور .

(ص ١٠١ و ١٠٢ ب ٢٢ – ٢٥)

وفيها أيضاً نرى الممدوح « مفترشاً » كافتراش الليث كلكله ، « مقدماً » مائتى ألف لمنزله ، « يغشى » القناطر ، « يبنيها » و « يهدمها » ، حتى يكون لهم بالطف ملحمة ، و « تستبين » لأقوام ضلالتهم ، « ويستقيم » الذى فى خده صعر ، ثم « استقل » بأثقال العراق ، فكانت له نقمة فيهم ومدخر .

(ص ١٠٣ و ١٠٤ ب ٢٨ – ٣٤)

وفى رائيته « الدار » نرى الثور ، وقد « بات » فى جنب أرطاة ، « تكفئه » ريح شآمية « هبت » بأمطار ، « يجول » ليلته ، والعين « تضربه » بغيث أجش الرعد « نيار » ، فإذا أراد بها « التغميض » ، « أرقه » سيل « يدب » بهدم التراب « موار » ، حتى إذا « انجاب » عنه الليل ، وأحس بالقناص كالجن « يهفون » من جرم وأنمار ، « انصاع » كالكوكب الدرى ، « يخلط » من « معج » « وإحضار » ، والكلاب بيد الصيادين ، قد « أرسلوهن » خلفه « يذرين » التراب ، حتى إذا قلت « نالته » سوابقها و « أرهقته » بأنياب وأظفار ، « أنحى » إليهن عيناً غير غافلة ، و « طعن » محتقر الأقران « كرار » ، و « عفرها » عفر القداح ، « ففرقن » عنه ، « وعلن » منه بخزان المتان ، و « شتا » يرعى « ذكوراً » أطاعت « بعد أمحار » .

(ص ١١٤ و ١١٥ ب ١٠ – ٢٧)

وفى داليته « معمود » نرى الحمار قد « تربع » وأتنه أبليا ، « فظل مرتبئا » ، ثم « استمر يجاريهن » ، وهن « ينضحنه » بصلاب « ماتؤيسه » ، و « ينبون » عنه كما « تنبو » عن البقريات الجلاميد ، فإذا « انصمى » حنقاً « حاذرن » شدته ،

فهن من خوفه « شتى ، عباديد » ، و « ينصب » فى الوادى و « يبحثه » ، حتى كان له فى كل منبطح منه « أخاديد » ، فإذا « أراد » سوى أطهارها « امتنعت » وإذا « صاف » عنها بمنخره أصابته بـ« تكديد » ، وهن « ينضحن » بالبول أولاداً « مغرقة » . « تموت » طوراً و « تحيا » فى أسرتها ، كما « تقلب » فى الربط المراويد .

(ص ١٤٩ ١٥٠ ب ٢٦ - ٤٢)

وفى لاميته « أجمل » نرى الشارب « صريعاً » ، « يرفع » الشرب رأسه وقد « ماتت » منه عظام ومفصل ، و « يهاديه » أحياناً وحيناً « يجره » ، فإذا « رفعوا » عظماً « تحامل » صدره ، وآخر مما نال منها « مخبل » ، ثم نرى الشرب ، وقد « أناخوا » الرحل ، « فجروا » الزقاق ، « وجاءوا » بالخمر ، « تمر بها » الأيدى « سنيحا » و « بارحا » ، و « توضع » باللهم حى و « تحمل » ، و « توقف » أحياناً ، « فيفصل » بينهم غناء مغن أو شواء مرعبل ، فإذا « انتشى » الشرب مما « يعل » و « ينهل » ، أحسوا بالخمر « تدب » دبيباً كأنه « دبيب » نمال فى نقا « يتهيل » .

(ص ٢ - ٤ ب ٤ - ٢٠)

وفى نفس اللامية نرى السحاب الذى يدعو لممدوحه أن يسقى أرضه ، قد باتت عزاليه « تسحل » ، وإذا « طعنت » فى فروجه الريح « تحلب » ، وإذا « زعزعته » « جر » ذيوله كأنها عود ثقال « تطفل » ، فلما « انتحى » نحو اليمامة قاصداً ، « دعته » الجنوب ، « فانثنى يتخذل » ، و « سقى » لعلعا والقرنتين ، فلم يكد « يتحمل » ، ثم « غادر » الأكم « تطفو » ، و « حل » بالمعرسانيات ، و « أرزمت » منه مطافيل حفل .

(ص ٩ ب ٥١ - ٥٨)

وفى نونيته « الطللان » نرى خيل الممدوح فى السبق ، وقد « تتابع » منها ثمان ، « علون » الأرض شرقى معتق ، و « ضرحن » الحصى كل مكان ، و « ذرعن » الأرض تسعين غلوة ، « فتمطرت » الدهماء بالصلتان ، و « استحما » و « أشرقا » ، والثياب « تطيرها » أعاصير ريح « زفزف » « زفيان » ، حتى إذا « نأى » الغايات « جدا » ، فلا ورد إلا دون ما « يردان » .

(ص ٢٣٦ و ٢٣٧ ب ٣٤ - ٤٠)

وعلى هذا النحو يصطنع الأخطل التصوير الحركى فى مقاطعه الفنية ، فلا يقف من موضوعه موقف الجراح الذى يشرح جثة هامدة ، بل يختار له غالباً المواقف التى تنبض بالحركة والحياة ، شأن امرئ القيس فى بعض قصائده التى صور فيها الفرس والصيد والسحاب ، وزهير فى بعض شعره الذى صور فيه الرحيل والفرس والصيد ، والنابغة فى تصوير الفرات والثور والكلاب ، والأعشى فى وصف الخمر والفرات ، فاكتسبت مدائحه بهذا التصوير الحركى حيوية فى العرض ، وتسلسلا فى الأداء ، وانفسح له بفضله المجال فى الوصف القصصى [1] ..

* * *

وللأخطل فى هذه المقاطع الطويلة « صور جزئية » تنبثق من مخيلته فى ومضات شعرية تتمثل فى البيت الواحد أو البيتين . وما أكثر مايطالعنا فى هذه المدائح بهذا التصوير المركز الذى ينبث فى مقاطعها فيكسبها قوة وجمالا . وما أكثر ما نقرأ الملمحة فلا نملك أنفسنا من الإعجاب بهذه الأبيات المفردة .

فإذا حدثته محبوبته ، فتساقط الحلى حديثها وهمسها :

وقد تكون بها سَلْمى تحدّثنى   تَساقُطَ الحَلْىِ حاجاتى وأسرارى

(ص ١١٢ ب ٢)

وإذا التمع البرق فى صفحة السماء ، بدا الثور كأن تدثر بثوب مصبوغ بالزعفران ، أو كأن يصطلى ناراً تلقى عليه بضوئها فتشيع فيه لوناً يجمع بين الحمرة والاصفرار :

كأنّه إذْ أضاءَ البرقُ بهجتَه   فى أصفهـانيّة أو مُصْطلِى نار

(ص ١١٤ – ب ١٥)

وإذا انطلقت كلاب الصيد وراء هذا الثور ، أثارت بأرجلها التراب وأذرته فى الهواء ، كما تذرى الأوتار نثار القطن عند ندفه :

فأسلوهنّ يُذْرِينَ الترابَ كما   يُذْرِى سبائخَ قطن نَدْفُ أوتار

(ص ١١٥ ب ٢٠)

---

(١) خلف الله : محاضرات عن الأخطل .

وإذا نجا الثور من بطش هذه الكلاب ، غنته ذبان الرياض ، كما يغنى بالصنج الغواة ، وتبدّى مختضباً بالورس ، وفاحت منه رائحة الروض ، فكأنه خارج من بيت عطار :

فَرْدٌ تغنّيه ذِبّانُ الرياضِ كما غنّى الغُواةُ بصَنْجٍ عند إسْوار
كأنه من ندَى القُرّاص مغتسلٌ بالوَرْسِ أو خارجٌ من بيت عطار

(ص ١١٦ ب ٢٦ و ٢٧)

وإذا تغنى بقدم الخمر وعتقها ، قفزت إلى ذهنه صورة العذراء التى لم يمسها إنسان :

عذراءُ لم يجتلِ الخطابُ بهجتَها حتى اجتلاها عِبادىٌّ بدينار

(ص ١١٧ ب ٣٦)

وإذا أحس بالشيب يدلف إلى رأسه ، وبالكبر ينال من جسمه ، بدا فى عين نفسه كالنسر يرجف والإنسان مهدود :

إمّا تَرَيْنى حنانِى الشيب من كِبَرٍ كالنّسر أرجُفُ والإنسانُ مهدود

(ص ١٤٦ ب ٤)

وانظر إليه مستفرداً وحدا ، قد نال من جسمه الظلم الذى نزل به ، والسخط الذى انصب عليه ، فبدا هزيلا كالسفود :

مستشرَفٌ قد رماه الناس كلهمُ كأنه من سَمُوم الصيف سَفُّود

(ص ١٤٧ ب ١٧)

وتأمل فى مدح الأمويين ، صورة الرحى تدور بالخير على الناس ، والصواعق تمطر الأعداء بشواظ من نار :

قومٌ إذا بسط الإله ربيعَهم دارت رحاه بمُسْبِلٍ درّار
وإذا أُريد بهم عقوبةُ فاجرٍ مَطرتْ صواعُقهم عليه بنار

(ص ٨٧ و ٧٩ ب ١٨ و ١٩)

وانظر إلى معاوية عزيزاً مهيباً تسمو إلى بابه الأنظار ، وتبدو عليه إذا العيون شزرنه سيما الحليم وهيبة الجبار :

تسمو العيونُ إلى عزيزٍ بابُه   مُعْطَى المهـابةِ نافعٍ ضرّار
وتَرى عليه إذا العيونُ شَزَرْنَه   سِيما الحليمِ وهيبـةَ الجبّار

وتأمل توفيق الشاعر فى اختيار ألفاظه : « تسمو » ، « شزرنه » ، « معطى المهابة » ، «هيبة الجبار» .

(ص ٨٠ ب ٣٣ و ٣٤)

وهذا البيت المفرد فى مدح يزيد، تأمل فيه صورة البازى الذى ترتعد خوفاً من بطشه عتاق الطير ، فتظل خاشعة له خائفة منه :

بازٍ تظل عِتاقُ الطير خاشعةً   منه وتمتصع الكِرْوانُ واللُّبَد

(ص ١٧٢ ب ٢٥)

وما أكثر هذه الصور الجزئية فى مقاطع المدح والهجاء .
يصور بأس عبد الملك فى الحرب ، فإذا هو :

مفترِشٌ كافتراش اللّيث كلكله   لوقعةٍ كائنٍ فيها له جَزَر

(ص ١٠٣ ب ٢٩)

فإذا عرض لكرم بشر ، رأى فيه غائباً وحاضراً صورة الفرات :

إذا غاب عنّا غاب عنّا فراتُنا   وإن شَهِدَ أَجْدَى فيضُه وجداولُهْ

(ص ٦٤ ب ٣٩)

وإذا صور هيبته ، جعل الأبواب تنفرج عنه، فيبدو كالسيف اليمان :

إذا انفرج الأبوابُ عنه رأيتَــه   كصدر اليَمانِى أخلصتْه صياقلُهْ

(ص ٦٤ ب ٤٦)

وإذا صور أثر الأمويين فى أعدائهم ، جعل سحاب الموت يمطرهم، وسيوف الأمويين تنثال عليهم أشباه البروق ، فتترك فى كل جمجمة أو بيضة خدداً :

ظلّوا وظلّ سحابُ الموت يُمطرهم   حتّى توجّه منهم عارضٌ بَرِد
والمشرفيّةُ أشباهُ البروق لها   فى كل جُمجمة أو بيضة خُدَد

(ص ١٧٣ ب ٤٠ و ٤١)

وإذا صور الأمن والطمأنينة فى ظل الأمويين ، جعل من ملكهم جنة هى أرواح الإله ، قد اطمأن فيها الطير واستقر آمناً على الأغصان :

فى جنـــةٍ هى أرواح الإله فما يفزِّع الطيرَ فى أغصانها فزع

(ص ٧٢ ب ٣١)

وتأمل هذه النبعة القرشية التى نبت منها عبد الملك ، كيف سمقت وارتفعت حتى لم يواز بأعلى نبتها الشجر ، وكيف تسنم الأمويون ذروتها ، وحلوا فى أرومتها ، فحق لهم الفخر إن فخروا :

فى نبعة من قريش يَعْصِبون بها ما إن يوازَى بأعْلى نبتها الشجر

تعلو الهضابَ وحلّوا فى أرُومتها أهلُ الرِّياء وأهلُ الفخر إن فخروا

(ص ١٠٤ ب ٣٥ و٣٦)

وهؤلاء شيوخ محارب ، لقد أخذوا يتهددون ويتوعدون ، فإذا تهديدهم ووعيدهم نقيق ضفادع يرتفع متجاوباً فى ظلماء ليل ، وما ضروا بهذا النقيق إلا أنفسهم ، إذ نبهوا الشاعر إلى مكانهم ، فدلوا بذلك عليهم حية البحر :

تَنِقُّ بلا شىء شيوخُ مُحارِب وما خِلْتُها كانت تَرِيش ولا تَبْرى

ضفادعُ فى ظَلْماء ليل تجاوبتْ فدلّ عليها صوتُها حيّةَ البحر

(ص ١٣٢ ب ٢٣ و ٢٤)

وهذا العجلان ، ما أقبحه وأهونه ! إنه يبكى على الزاد ، فتلقيه الوليدة فى الكسر ، ويتبدى وهو يدلك عينه كالخفاش :

وقد غَبَر العَجْلانُ حيناً إذا بكى على الزاد ألقتْه الوليدةُ فى الكسْر

فيصبح كالخُفَّاش يَدْلُك عينَه فقُبِّح من وجه لئيمٍ ومن حَجْر

(ص ١٢٩ ب ٧ و ٨)

وهذا الأعور بن بنان ، وهذه زوجه الحسناء :

أتجعلُ بطْناً مُنْتِنَ الريح مقْفِرًا على بطنِ خَوْد دائمِ الخفقان

فما أبعد الفرق ! وبالضيعة الجمال فى كنف الدمامة والقبح !

(ص ٢٣٣ ب ٤)

وهؤلاء بنو يربوع قوم جرير :

وأقسَم المَجْدُ حقًّا لا يُحالفهم　　حتّى يحالفَ بطنَ الراحةِ الشَّعَر

وهل يحالف بطن الراحة الشعر ؟

(ص ١١٢ ب ٨٤)

وهذه المرأة التى اختلبت لبه بمفاتنها :

أسيلةُ مَجْرَى الدمع ، خفّاقةُ الحشا　　من الهِيف ، مِبْراقُ الترائب والنحر

من الجازِئات الحُور ، مطلبُ سِرِّها　　كبيْضِ الأَنُوقِ المستكنَّة فى الوكر

وإنّى وإيّاها إذا مالَقِيتُها　　لكالماء من صَوْبِ الغمامةِ والخمر

تأمل ما فى البيت الأول من موسيقى وتقسيم ، وما فى البيتين الآخرين من براعة فى التصوير ، وما فى الأبيات الثلاثة من دقة فى اختيار الألفاظ.

(ص ٢١١ و٢١٢ ب ٣ و ٥ و ٦)

وتلك أخرى تخالسه النظر من وراء حجاب :

تُسارق الطَّرْفَ من دون الحجاب كما　　يرميكَ من دونِ عيص السِّدْرة الذَّرَع

انظر إلى توفيقه فى « تسارق الطرف » ، وإلى حلاوة المقابلة بين المرأة والذرع .

(ص ٦٩ ب ٩)

وهذه المرأة عينها ترجف العلية لوطئها حتى لتكاد تنهدّ :

إذا تَنَزَّلُ من عُلِّيَّةٍ رجفتْ　　لولا يؤيِّدها الآجرُّ والقَلَع

فما أضخمه من جسم ! وما أكنزه من شحم ! وما ألذه من وصل ، فى ذوق حزب الجميز !

(ص ٦٩ ب ١٢)

وهذه أطلال الأحبة ، تتراءى منها الأثافى حول الرماد عقراً خالدات ، تطيف

بحبشى اللون ذى طبب ، والوتد ملقى على الرمال ، كذليل مستكين مشجوج الرأس مستلب ، تهب عليها الأرياح مندفعة فى عصفها مجنونة الأدب :

وعُفْرٍ خالداتٍ حول قُبّتِها وطامسٍ حبشىٌ اللون ذى طِبَبِ
وغيرُ نُوْيٍ قديم الأثْرِ ذى ثُلَم ومستكينٍ أميمِ الرأس مستلَب
تعتادها كلُّ مِثْلاةٍ وما فَقدتْ عَرْفاءَ من مَوْرها مجنونةُ الأدب

(ص ١٨٢ ب ٢ – ٤)

وأخيراً مشهد الغراب والذئب :

إذا ابتَدرا ما تطرح الكفُّ فاته به حبشىٌ كيّسُ اللحظان
يُباعده منه الجناحُ وتارةً يُراوح بين الخَطْو والحَجَلان

لقد أشاع فى وصفه الحركة والحياة بهذه الأفعال: «ابتدرا» ، « تطرح » ، « فاته » ، « يباعده » ، « يراوح » ، فضلا عن صورة « الخطو » و « الحجلان ».

(ص ٢٣٤ ب ١٣ و ١٤).

* * *

وللأخطل فى مقاطعه الفنية « لفتات نفسية » تضفى على تصويره صدقاً وحيوية ، يعنى فيها باختيار الألفاظ المعبرة التى تصور الموقف تصويراً كله دلالة وإيحاء .

فهذا يزيد يشفع له عند معاوية :

وبات نَجيًّا فى دمشقَ لحيّةٍ إذا عضَّ لم يَنْمِ السَّليمُ وأقصدا
يخفِّته طَوْرًا وطورًا إذا رأى من الوجه إقبالا ألحّ وأجهدا

انظر إلى قوله « وبات نجيا » وما يوحى به من خطورة الموقف ، وإلى هذه « الحية إذ تعض » وما توحى به من فتك وبطش ، وإلى يزيد « يخفته طورا » وما فى هذا الخفوت من تحايل ، وإلى يزيد وقد « ألح وأجهد » إذا « رأى من الوجه إقبالا » وما فى هذا من صدق فهم لنفسية معاوية .

(ص ٩٤ ب ١٧ و ١٨)

وهؤلاء الأحبة عند ارتحال الركب :

إذا شئتَ أن تلهو ببعض حديثِها　　رفعْنَ وأنزلْنَ القَطِينَ المولَّدا

وقلْنَ لحادِيهنَّ ويْحَك غنِّنا　　بحذْراء أو بنتِ الكِنانىِّ فَدْفدا

ما أشد مكرهن إذ يبعدن الخدم ، ويطلبن إلى الحادى الغناء ، ليجاذبن الشاعر فى أمن أحاديث الغرام !

(ص ٩١ ب ٧ و ٨)

وهذه الأبيات فى وصف المخمور :

صريعُ مُدام يرفع الشَّرْبُ رأسَه　　لِيحْيا وقد ماتت عظامٌ ومَفْصِل

تُهـــاديه أحياناً وحيناً تجرّه　　وما كاد إلا بالحُشاشةِ يَعْقِل

إذا رفعوا عَظْماً تحامل صدرُه　　وآخرُ مما نال منها مخبَّل

لقد وفق فى تصوير الموقف بهذه الألفاظ المعبرة : « صريع مدام » ، « ماتت عظام ومفصل » ، « تهاديه » ، « تجره » ، « بالحشاشة يعقل » ، « تحامل صدره » ، « مخبل » .

(ص ٢ و ٣ ب ٥ – ٧)

وصورة ابن بدر أثناء فراره :

فظلّ يُفدِّيهـــا وظلّت كأنها　　عُقابٌ دعاها جُنْحُ ليلٍ إلى وكر

يُسِرّ إليها والرماحُ تَنُوشه　　فِدًى لك أُمِّى إنْ دأبْتِ إلى العصر

تأمل إلى فرس هذا القيسى منصبّة فى جريها كالعقاب ، وإلى ماتوحى به « دعاها جنح ليل إلى وكر » من سرعة وانصباب . واستمع إلى هذه المسارة فى « فدى لك أمى إن دأبت إلى العصر » وما تحمل من لهفة وذعر واستحثاث .

(ون ص ٣٧ ب ٤٩ و ٥١)

وهذا البائع يساوم على ثمن الخمر ، إنه بائع حريص جشع ، ما يكاد الشرب يتراضون وإياه على ثمنها ، حتى تضن بها نفسه الماكرة الطامعة . فإذا أوجبوا عليه الصفقة ، دب الحزن فى نفسه ، فكأنه المقمور من فقدها :

إذا قول تراضَيْنا على ثمنٍ ضنّتْ بها نفسُ خَبٍّ البيع مكار
كأنما العِلْجُ إذ أوجبْتُ صفقتَها خَليعُ خَصلٍ نَكيبٌ بين أقمار

لقد وفق فى عرض نفسية هذا العاج ، واختار لذلك مجموعة من الألفاظ المعبرة ، تحمل الخبث والمكر والطمع فى « ضنت » ، « خب البيع » ، « مكار » ، وتحمل الحزن والهم والأسى فى « خليع خصل » ، « نكيب بين أقمار » .

(ص ١٢٨ ب ٣٨ و ٣٩)

وهؤلاء القيسية عند بشر :

إذا ما التقَيْنا عند بِشْرٍ رأيتَهم يَغُضّون دونى الطَّرْفَ بالحدَق الخضر
وأوجهٍ موتورين فيها كآبةٌ فرغْماً على رغمٍ ووقْرًا على وقر

تأمل كيف « يغضون » دون الشاعر طرفهم ، وتنعكس نفوسهم المريضة على « الحدق الخضر » متجلية فى هذه « الكآبة » التى ترين على الوجوه ، واستمع إلى الشاعر يملأ نفوسهم بالغيظ : « فرغماً على رغم ووقراً على وقر » .

(ص ٢١٥ ب ٣٣ و ٣٤)

* * *

وتتمثل عناية الأخطل باختيار الألفاظ فى نوع من « الموسيقى اللفظية » يصطنعه فى بعض الأبيات ، فيشيع فى مقاطعه جمالاً تستريح النفس لحلاوة جرسه وحسن إيقاعه .

من ذلك فى الغزل :

من كلِّ بيضاء ، مِكسالٍ ،بَرَهْرَهَةٍ ، زانتْ معاطلَهـا بالدُّرِّ والذهب
حَوْراء ،عَجْزاء ،لم تُقذفْ بفاحشة ، هَيْفاء ، رُعْبُوبةٍ ، مَمْكورة القَصب

(ص ١٨٤ ب ١٢ و ١٣)

أَسِيلةُ مَجْرَى الدمعِ ، خفّاقةُ الحشا من الهِيفِ ، مِبْراقُ الترائب والنحر

(ص ١١ ٢ ب ٢)

وفى وصف الناقة :

من كلِّ صهباءَ مِعْجالٍ ، مُجَمْهرةٍ ، بعيدةِ الطَّفْر ، من معطوفة الحقب
كبْداء ، دفْقاء ، مِخْيالٍ ، مجمَّرةٍ مثل الفَنِيق ، عَلاةٍ ، رسْلَةِ الخَبب
(ص ١٨٥ و ١٨٦ ب ٢٧ و ٢٨)

وفى وصف الحمار :

ضخمُ المِلاطَيْن ،موّارُالضُّحى ،هَزِجٌ ، كأنَّ زُبْرتَه فى الآلِ عُنقود
(ص ١٤٩ ب ٣١)

وفى وصف الصائدين :

دُسْمُ العمائم ، مُسْحٌ ، لا لُحومَ لهم إذا أحسّوا بشخص نابئٍ لبِدوا
على شرائعها غَرْثانُ ، مرتقِبٌ إبصارَها ، خائفٌ إدبارَها ، كمِد
(ص ١٧٠ و ١٧١ ب ١٦ و ١٧)

وفى وصف الريح :

كأنَّ ثيابَ البربرىِّ تُطِيرُها أعاصيرُ ريحٍ ، زَفْزفٍ ، زَفَيان
(ص ٢٣٧ ب ٣٩)

وفى وصف الخمر :

صَهْباءَ قد كَلِفَتْ ،من طول ماحُبِستْ فى مُخْدَعٍ بين جنات وأنهار
(ص ١١٧ ب ٣٥)

وفى مدح الأمويين :

بِيضٌ مَصالِيتٌ لم يُعْدَلْ بهم أحدٌ بكل مُعْظَمةٍ من سادة العرب
الأكثرِينَ حصًى ، والأطيبين ثرًى ، والأحمدينَ قِرًى ، فى شدة اللَّزَب
(ص ١٨٩ ب ٤٧ و ٤٨)

حُشُدٌ على الحق ، عيَّافو الخَنا ،أُنُفٌ إذا ألمَّتْ بهم مكروهةٌ صبروا
(ص ١٠٤ ب ٣٧)

الباسطون بدنياهم أكفَّهمُ والضاربون غداةَ العارِضِ الشبم

والمطعمون إذا ما أزمة أزمتْ والمقدمون على الغارات بالجِذَم
(ص ٢٦٦ ب ١٨ و ١٩)

جُهَراءُ للمعروف حين تراهمُ حُلَماءُ ، غيرُ تَنابِلٍ أشرار
(ص ٧٨ ب ١٧)

وفى مدح عبد الملك :

الخائضُ الغَمْرَ ، والميمونُ طائرُه ، خليفةُ الله ، يُستسقَى به المطر
(ص ١٠١ ب ١٩)

وفى مدح ابن أسيد :

إلى خالدٍ ، حتى أنخنا بمَخْلدٍ فنِعْمَ الفتى يُرْجَى ، ونِعْمَ المؤمَّل
(ص ٨ ب ٤٢)

وفى هجاء جرير :

الآكلون خبيثَ الزاد وحدَهُم والسائلون بظَهْر الغيب ما الخبر
(ص ١١١ ب ٧٧)

* * *

واستمد الأخطل من « البيئة البدوية » التى نشأ فيها وعاش فى ظلها مادة خصبة يستعين بها فى هذه المدائح. فوصف الصحارى المقفرة وما يلقى فيها المسافر من أهوال ، ووقف بالأطلال وصور ماخلفه الركب فيها من أثافى ورماد وأوتاد ، وما عملته فيها يد الأرياح ، ووصف حيوان الفلاة من حمر وبقر وثيران ، إلى ذئاب وعقبان وغربان ، إلى إبل وكلاب وقطا ونعام ، حتى إذا أشرفت به الناقة على الفرات ، وصف النهر العظيم فى فيضانه ، وصور مافيه من سفن تقاوم الرياح والأمواج . وتأثر فى تصويره بذوق البادية وطبائع أهلها ، فألفاظه فخمة ضخمة تملأ الأذن والفم ، وصوره وتشبيهاته مشتقة فى معظمها من البادية ، يطالعنا منها ذوق البدوى فى المرأة يرغب فى وصلها ، وذوقه فى الناقة يشق الصحارى على متنها ، وذوقه فى الخمر يعاقرها ويصحبه من دنها ، وذوقه فى تقدير الرجال مادحاً أو قادحاً ، ويطالعنا منها أيضاً هذه النعرة القبلية التى تقدسها البادية وتعتز بها ، فاتسمت بذلك هذه المدائح بالطابع البدوى فى كثير من صورها .

* * *

واعتمد الأخطل فى تجويد هذه المدائح وتنميتها على « الشعر الجاهلى » ، واستقى من روائع فحوله مدداً لفنه ، وتأثر بفحول الجاهليين فى الأسلوب ، كما تأثر بهم فى الموضوع ، فترسم خطاهم ، وعارض أشعارهم ، وأفاد من أساليبهم ، ونهج نهجهم فى تجويد شعره وتهذيبه ، مما سنعرض له بالتفصيل فى الفصل الثالث من هذا الباب . وكان لذلك أثر بارز فى هذه المدائح ، فقد أصبحت متميزة أشد التميز بهذا الطابع الجاهلى فى صورها وأخيلتها ، وألفاظها ومعانيها ، وفاق الأخطل فى هذا التأثر جريراً والفرزدق ، حتى قيل فيه بحق إنه أشبه بالجاهلية وأشد الثلاثة أسر شعر وأقلهم سقطا .

* * *

وتلعب « السياسة » دوراً خطيراً فى هذه المدائح . فقد اتخذ الأخطل من البيئة السياسية التى احتك بها فى ظل الدولة الأموية مادة خصبة يسترفد منها فى مدحه وفخره وهجائه ، واتكأ على الصراع السياسى القائم فى تنويع عناصر غرضه الرئيسى .

فنى صلته بالبيت السفيانى صور كفاح معاوية فى وقعة صفين ، واعترف بفضله فى إخماد الفتنة ، وببلائه فى جمع الكلمة ، ونوه بخلاله التى أهلته للخلافة ، واحتج له فى محاربة على وأشياعه ، وأقر بحقه فى الأخذ بثأر عثمان . وهنأ يزيد بولاية العهد ، وامتدح جهاده فى محاربة الروم . وشفع عنده لعبيد الله بن زياد ، فصور بلاءه فى قتال الشيعة ، ونوه بفضله فى القضاء على الحسين بعد أن نكل بهانئ ومسلم . ولم ينس أن ينوه بما كان يتحلى به الأمويون من خلال تؤهلهم للملك ، فذكر بأسهم فى الحرب ، وشدتهم فى طلب الحق ، وامتدح فيهم الجود والحلم ، وأشاد بعراقة منبتهم ، وعظم محتدهم ، واعتبرهم مؤيدين بقوة من الله . ولم يغب عنه أمر ذلك اليوم الذى كاد يتعرض فيه للهلاك بسبب الأنصار ، فصور ثورة النعمان ، وغضب معاوية ، وشفاعة يزيد ، وأبان عن شدة وقع الحادثة فى نفسه ، فصور مخاوفه من الخليفة ، وشكر ليزيد فضله ، واتخذ من ذلك مادة خصبة يستمد منها فى مدحه ، ويستعين بها فى توكيد إخلاصه وولائه .

فكان بذلك شاعراً سياسياً يدافع عن الحزب الأموى . ويصور كفاح الأمويين فى سبيل الملك ، ويؤيد دعوتهم فى سبيل الخلافة، ويهاجم خصومهم فى الحكم ، ويصور ما كاد يصيبه من عطب بسبب اشتغاله بالسياسة .

ولما انتقلت الخلافة إلى البيت المروانى ، اندفع الأخطل فى تيار السياسة ، وأفاد من خبرته السابقة فى ظل بنى سفيان . فصور الصراع بين الأمويين والزبيريين فى الشام ، وأشاد بانتصار الأمويين على أعدائهم فى مرج راهط ، كما صور الصراع بين الفريقين فى العراق ، فذكر تعبئة عبد الملك لجيوشه ، ونوه بشخصيته القوية فى إخماد الفتنة . وسجل نهاية قواد الثورة بالعراق، فذكر تسليم زفر بن الحارث ، ومصرع مصعب وابنه عيسى ، وما كان قبل ذلك من مصرع المختار . وأشاد بجهود عمال البيت المروانى ، فصور بلاء بشر والحجاج فى محاربة الخوارج والأعاجم ، ونوه بفضلهما فى ضبط أمور المصريين بالعراق . وتناول السياسة الخارجية لبنى مروان . وعرض لعلاقة الأمويين بالروم ، فصور جهاد عبد الملك فى قتالهم . وبلاء ابنه الوليد فى حربهم ، وأشاد بما قامت به جيوش الوليد من فتوح . وكيف بلغت إلى مالم تبلغ إليه جيوش أحد من قبل . ولم يغب عنه أن يقرر حق الأمويين فى الخلافة ، وأن يثبت لهم دون غيرهم هذا الحق ، فأعاد إلى الأذهان ما أظهروا من بلاء فى الأخذ بثأر عثمان ، وربط بين كفاح البيت السفيانى ضد علىّ وأشياعه وبين كفاح البيت المروانى ضد ابن الزبير ودعاته، ونوه بما انتهى إليه الأمر من عودة الحق إلى أصحابه . ولم يكتف بذلك فتغنى بما يتحلى به الأمويون من خلال الرئاسة ، فهم أصحاب حسب عريق فى الجاهلية ، من عبد شمس فى ذروتها ، ومن قريش فى صميم نبعتها ، قد تمرسوا بالملك فى خلافة عثمان . ثم استقر لهم بعد الأخذ بحقه ، فالملك فيهم قديم لا طريف ولا غصب ، والملك فيهم دائم وراثة ورثوها عن أب فأب .

وشاءت السياسة فى عهد البيت المروانى أن تجمع بين القبيلة والدولة فى المصالح ، فإذا أعداء تغلب من القيسية هم فى الوقت عينه أعداء لبنى أمية . فجمع الأخطل فى مدائح هذا العهد بين المصلحتين ، وناضل عن الدولة مادحاً رجالها ، مؤيداً سياستها ، هاجياً أعداءها . كما ناضل عن القبيلة مفتخراً ببلائها .

مهاجماً خصومها . وشاءت له الظروف أن يدخل فى الحركة الهجائية بين جرير والفرزدق ، فجمع فى مدائحه إلى هجاء القيسية هجاء جرير . وقدر له أيضاً أن يستأثر بإعجاب عبد الملك، وأن يحتل بين الشعراء مكانة ممتازة، فملأه ذلك إعجاباً بنفسه واعتزازاً بشعره وإدلالاً بخدماته. وبذلك دخل عنصر جديد فى مدائحه التى نظمها فى ظل البيت المروانى هو عنصر القبيلة، وظهرت نغمة جديدة فى هذه المدائح هى نغمة الفخر بنفسه وبقومه ، كما صاحب الفخر نغمة أخرى كانت حبيسة ضعيفة على عهد بنى سفيان ، ثم قويت واشتدت فى ظل بنى مروان ، تلك هى نغمة الهجاء القبلى والسياسى . وبذلك لم يعد الغرض الرئيسى فى هذه المدائح مدحاً خالصاً ، بل أصبح فى بعضها مزيجاً من عناصر مختلفة هى المدح والفخر والهجاء .

* * *

ويتجلى « الأثر الدينى » بوضوح فى الغرض الرئيسى من هذه المدائح . فقد اتخذ الأخطل من البيئة الإسلامية التى عاش فى ظلها مادة خصبة يستمد منها فى مدحه وفخره وهجائه، واستعان بالجو الدينى نصرانياً كان أو وثنياً فى تنويع صوره وأخيلته وأفكاره .

أقام الأمويون دعوتهم على أساس أن هناك خليفة أموياً هو عثمان، وأن هذا الخليفة قتل مظلوماً بيد أعدائه ، وأن أهل بيته هم أولياء دمه ، وأنهم أصلح للحكم وأقوم بأعبائه، وأنهم أصحاب مجد قديم يطاول مجد بنى هاشم ، وأن نتيجة التحكيم فى أعقاب صفين كانت فى جانبهم ، وأن الله أراد لهم النصر فأظفر بالخلافة . ثم زعموا للناس أنهم ورثة النبى ، ولبسوا بذلك على العامة[1] الأخطل من هذا الأصل الدينى تأييداً لما يزعمون لأنفسهم من حق ، ومزج مدائحه بين الدين والسياسة . وردد فى أكثر من موضع أن حقهم فى الملك إلهى وأن الله يمدهم بتأييده .

ف « الله فضلهم » .

(ص ١٧٢ ب ٢٩)

(١) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ص ٧٣ و ٧٤ .

و « هم الذين أجاب الله دعوتهم » .

(ص ١٧٢ ب ٣٠)

و « أمدهم إذ دعوا من ربهم مدد » .

(ص ١٧٤ ب ٤٢)

فإذا أنعموا ، « كانت فواضلهم سيباً من الله » ، لامنّ ولاحسد .

(ص ١٧٢ ب ٣٢)

و « إذا بسط الإله ربيعهم » ، دارت رحاه بمسبل درار .

(ص ٧٨ ب ١٨)

وإذا فازت جياد يزيد ، فقد « خص الله بالسبق أهله » .

(ص ٢٣٧ ب ٢٥)

وإذا كتب لمعاوية النصر ، فقد « علم الإله نكاله » .

(ص ٨٠ ب ٢٩)

وإذا انتصر عبيدالله بن زياد على ثوار العراق ، فـ « به رحم الله الجنود » .

(ص ٢٩٣ ب ٣)

وإذا شكر ليزيد فضله ، دعا أن يجزيه الله جزاء الأنبياء :

جزاكَ ربُّك عن مستفرَدٍ وَحَدٍ   نفاه عن أهله جُرمٌ وتشريد

جزاءَ يوسفَ إحساناً ومغفرةً   أو مِثْلَ ما جُزْىَ هارونٌ وداود

أو مثلَ ما نال نوحٌ فى سفينته   إذ استجاب لنوحٍ وهو منجود

أعطاه من لذة الدنيا وأسكنه   فى جنةٍ نعمةً فيها وتخليد

(ص ١٤٧ ب ١٦ و ١٨ – ٢٠)

فلما انتقلت الخلافة إلى البيت المروانى ، انغمر فى هذا الجو الدينى ، ومزج فى مدائحه بين الدين والسياسة ، فأقر للأمويين بحقهم فى الملك ؛ وأضفى على هذا الحق هالة دينية ظاهرة .

ففى مدح عبد الملك :

إلى امرئٍ لا تُعرّينا نوافلُه   أظفـره الله فلْيَهْنَى له الظفر

الخائضُ الغَمْرَ والميمونُ طائرُه   خليفةُ الله يُستسقَى به المطر

(ص ١٠١ ب ١٨ و ١٩)

أعطاهم الله جَدًّا يُنصرون به لا جَدَّ إلا صغيرٌ بعدُ محتقَر
(ص ١٠٤ ب ٣٩)

وقد جعل الله الخلافةَ فيكمُ بـأبيضَ لاَ عارِى الخِوانِ ولاجَدْب
(ص ٢١ ب ٣١)

ولم تر عينى مثلَ مُلك رأيتُه أتاك بلا طعنِ الرماح ولا الضرب
ولكن رآك الله موضعَ حقّه على رغم أعداء وصدّادةٍ كُذْب
(ص ٢٤ ب ٤٦ و ٤٧)

وفى مدح بشر :

بكم أدرك الله البريّةَ بعدما سعى لِصُّها فيها وهبَّ غَشومُها
(ص ١٢٣ ب ٢٤)

لقد مدحتُ قريشاً واستغثتُ بهم إذ ما أنام إذا ما صُحْبتى هجعوا
وإذ وشى بىَ أقوامٌ فأدركنى رهطُ الذى رفع الرحمنُ فارتفعوا
(ص ٧٢ ب ٢٩ و ٣٠)

أعطاكمُ الله ما أنتم أحقُّ به إذا الملوكُ على أمثاله اقترعوا
(ص ٧٣ ب ٣٧)

وفى مدح الوليد :

إن الوليدَ أمينَ الله أنقذنى وكان حِصْنـاً إلى منجاته هربى
خليفةُ الله يُستسقَى بُسنَّته ألغيثُ عند مُولِى العِلْمِ منتخِب
(ص ١٨٥ ب ٢١ ، ٢٥)

واتخذ إلى ذلك أساليب من المدح ترف عليها ظلال من روح الدين .
فى مدح ابن أسيد ، رجا أن « يسقى الله أرضاً خالد خير أهلها» .
(ص ٩ ب ٥١)

وفى مدح بشر ، دعا أن « يجزى الله بشراً جزاء امرئ أفضى قلبه إلى الله » .

(ص ٦٤ ب ٤١ و ٤٢)

وفى مدح الحجاج، دعا لعبد الملك ، فقال :

أحيي الإلهُ لنا الإمام فإنه خير البريّةِ للذنوب غَفور
(ص ٧٤ ب ٧)

وإذا صور حياة الأمن فى ظل الأمويين ، جعل من ملكهم جنة هى أرواح الإله :

فى جَنَّة هى أرواحُ الإلهِ ، فما يُفزِّع الطيرَ فى أغصانها فزعُ
(ص ٧٢ ب ٣١)

وهذا الجو الدينى بعناصره وإشاراته يبدو حتى عندما يشغل بالهجاء .
فإذا انهزم الزبيريون ودعاتهم من القيسية :

فالله لم يرضَ عن آل الزبير ولا عن قيسِ عيلانَ حيًّا طالما خَرَبوا
(ص ٣٨ ب ٣)

وإن تلك قيس بايعت ، فقد بايعت :

على غير إسلامٍ ولا عن بصيرة ولكنهم سِيقوا إليك على صُغْر
(ص ١٣٤ ب ٢٩)

وإذا هجا ابن صفار ، أشار إلى حية موسى :

تخلَّ ابنَ صفَّارٍ فلا تذكر العُلا ولا تذكرَنْ حيَّاتِ قومِك فى الذكر
فقد نهضتْ للتغلبيين حيّةٌ كحيّة موسى يومَ أُيِّد بالنصر
(ص ١٣٥ ب ٤٧ و ٤٨)

وإذا ندد بالقيسية ، « فلا هدى الله قيساً من ضلالتهم » .
(ص ١٠٧ ب ٥٨)

وإذا صور نقضهم للعهد، فقد « كانوا ذوى إمة» ثم « علقت بهم حبائل للشيطان وابتهروا » .
(ص ١٠٧ ب ٦٠)

ولم يكتف بذلك ، فاستعان بالأقسام فى توكيد مدحه وتقرير كلامه ، وأضفى على هذه الأقسام جوًّا دينيًّا يذكرنا بمثيله عند النابغة :

لقد حلفتُ بما أَسْرَى الحَجِيجُ له والناذِرين دماءَ البُدْنِ فى الحَرم

لولا الوليدُ وأسبابٌ تناولني بهنّ يومَ اجتماع الناس بالثلم
إذنْ لكنتُ كمن أوْدَى وودّأه أهلُ القرابة بين اللّحْدِ والرَّجم
(ص ٢٦٤ و ٢٦٥ ب ٧ — ٩)

حلفتُ بمن تُساق له الهدايا ومن حَلّتْ بكعبتــه النُّذور
لقد ولدت جَذِيمةُ من قريش فتاها حين تَحْزُبهـا الأُمور
(ص ٣٠٤ ب ١٣ و ١٤)

فأقسمتُ لا آتى نَصِيبِينَ طائعاً ولا السجنَ حتى يَمضِيَ الحَرَمان
(ص ٢٣٦ ب ٢٩)

فإن حلفتُ لقد أصبحت شاكرَها لا أحلِفُ اليومَ من هاتا على أثِم[1]
(ص ٢٦٦ ب ٢٥)

وكان من الطبيعي أن تحفل هذه المدائح بكثير من الألفاظ والتعابير التى أحيتها السياسة واصطبغت بالدين . فذكر « أمير المؤمنين » و « الخليفة » و « الإمام » و « البيعة » و « الإسلام » و « المسلمين » و « المسجد » و « الجمعة » و « الحج ». وردد أسماء الأماكن المقدسة ؛ فذكر « مكة » و « الكعبة » و « البيت الحرام » و « زمزم » و « يثرب » . وعرض لمراسيم الحج ؛ من « نسك » و « تشريق » و « تحليق » و « تنحار » . وحشد أسماء الأنبياء ؛ فذكر « موسى » و « يوسف » و « هارون » و « داود » و « نوح » . ولا تكاد تخلو مدحة من التأثر بالجو الإسلامى مختلطا بأطياف من النصرانية والوثنية ، حتى غدت هذه المدائح متميزة أشد التميز بهذا المزج القوى بين السياسة والدين .

* * *

وهذه المدائح بعد ذلك تمثل أغلب مانظمه الأخطل فى باب المديح . فقد بلغ مجموع مدائحه التى نظمها فى ظل الأمويين سبعاً وعشرين قصيدة وخمس مقطوعات ، ولا تعدو سائر مدائحه سبع قصائد ، مدح بها بضعة نفر من أشراف القبائل ، هم : جرير بن عبد الله البجلى ، وزفر بن الحارث الكلابى ، وسماك بن

---

(١) سنعرض فى الفصل الثالث من هذا الباب للأثر الجاهلى فى هذه الأقسام .

مخرمة الأسدى ، ومصقلة بن هبيرة الشيبانى ، وجدار بن عتاب التغلبى ، وهمام ابن مطرف التغلبى .

مدح جريراً بداليته (أودا «ش» ٣٢) ، وزفر برائيته (زمر ٢٥١ و ٢٦٨) ، وسماكا برائيته («مضر ٢٢٢) ، ومصقلة بلاميته (احتمالا ١٣٨) ، وجداراً برائيته (احمرار ٢٠٧) ، وهماما بلاميته (سهولها ٢٤١) وحائيته (وأصبحوا «ت» ٥٤) .

والأخطل فى أغلب هذه المدائح أقصر نفساً منه فى مدائحه التى نظمها فى ظل الأمويين . فداليته فى جرير ثلاثة عشر بيتاً ، ورائيته فى سماك عشرة أبيات ، وحائيته فى همام أربعة عشر بيتاً . ورائيته فى جدار واحد وثلاثون بيتاً . وهو فى أغلبها أقل احتفالا بالتمهيد لغرضه الرئيسى ، وأقل اهتماماً بمعارضة الشعر الجاهلى . وقد أهمل فيها أكثر أساليبه البيانية التى كلف بها ، فلا أثر للاستدارة فى معرض المفاضلة ، ولا أثر للاستدارة فى معرض التوكيد . وإذا كان قد لجأ فى بعضها إلى الاستطراد ، فاستطراده قليل فى جملته ، لايعدو رائيته فى مدح زفر . ولم يلجأ إلى الوصف القصصى إلا فى هذه الرائية وفى لاميته فى مدح مصقلة .

أما الغرض الرئيسى فحدود العناصر . وهو فى أغلبها مدح خالص . وقلما يجمع فيه بين المدح والهجاء . ولم يهتم فى مدحه بالسياسة ، بل اتكأ على عصبية الممدوح القبلية . وقصر مدحه على مجموعة من الصفات الشخصية من كرم وشجاعة وعراقة منبت . فإذا مدح جريراً نوه بقضاعة . وإذا مدح زفر أشاد بكلاب ، وإذا مدح سماكاً اتكأ على أسد . وإذا مدح مصقلة رفع من شأن شيبان . أما جرير فكريم يسخو بالعطاء ، وفارس مقدام يغشى بخيوله الأرض ، أشم ترى فى رأسه صيدا ، وقومه هم ضمنوا مال الغريب ، فإذا حل جار فى بيوتهم ، عادوا عليه وأحصوا ماله عدداً ، وهم ورعون أتقياء ، يظلون خشعاً فى مساجدهم ، ولايدينون إلا الواحد الصمد . وأما زفر فشجاع ذو بأس ، صلت الجبين رشيد ، جمع بين نزار بعد تفرقها ، ووحد بتدبيره كلمتها ، وسعى بأوتارها لينتقم من أعدائها ، فظفر بمراده ، ولولاه ما كان نصر ولا ظفر . وأما مصقلة فجواد يتلف ماله ليفيد الناس فى غير من ، وهو فارس جرىء ، وحمال أثقال ، وفكاك أسرى ، منبته كريم ، ومحتده عريق . إذا يهم بأمر صالح عمله ، ولا يقول لشىء فات ما فعله .

فالمدح كما نرى محدود العناصر ، شخصي فى ظل القبيلة ، بعيد فى جوه عن السياسة . وقد نتج عن قلة مافيه من عناصر ، وقلة مافيه من الأساليب البيانية ، أن قلت فيه المقاطع ، وأصبح الغرض الرئيسى فى هذه المدائح ، ماعدا قصيدتين ، مقطعاً واحداً تتوالى فيه الصور متتابعة فى أبيات مفردة لا فى مقاطع كاملة . هذا إلى أن الصور الدينية فى المدح قليلة ، ولم يقصد منها إلى الدعوة السياسية كما هو الشأن فى سائر المدائح .

وإذا كان هناك بعض التشابه بين المدائح هنا وهناك ، فى عنايته باختيار ألفاظه ، واصطناعه الفخامة فى تصويره ، وفى اهتمامه بالصور الجزئية ، وفى جمعه بين المدح والهجاء أحياناً . وإذا نحن استثنينا لاميته فى مدح مصقلة ولاميته فى مدح همام ، فإننا لانتردد فى أن نقول إن أروع ماتفتحت عنه شاعريته من مدائح إنما كان مما نظمه فى ظل الأمويين ، وإن سائر مدائحه ، وإن اتسمت فى بعض أبياتها بسمات من عبقريته ، فهى لا تعلو بحال على مانظمه فى ظل الدولة الأموية من روائع ، لاتعلو عليها طولا فى النفس ، وتماسكاً فى البناء ، وتعدداً فى المقاطع واحتشاداً بالأغراض ، وتنوعاً فى الأساليب .

الفصل الثانى

الأهاجى

السياسة وأثرها فى إنتاج الأهاجى – المحصول فى الأهاجى أقل منه فى المدائح – العناية بالمقدمات محدودة – تقسيم القصيدة ليس مطرداً – لا تقديم ولا تقسيم فى المقطوعات – لا وجود للوقفات الطويلة – الصور الجزئية وأثرها فى الأهاجى . العنصر السياسى – العنصر الدينى – العنصر القبلى – المفاضلة بين جرير والفرزدق – الإقلال من الفحش وتعليله – الدين والعصبية وأثرها السلبى فى الأهاجى – عبقرية الأخطل فى المدائح أوضح منها فى الأهاجى .

عنى الأخطل بالهجاء فى ظل الأمويين إلى جانب عنايته بالمديح ، ولم يقصر نشاطه على هذه المدائح التى عرضنا لها فى الفصل السابق ، فأنشأ مجموعة من الأهاجى تمثل امتداد مجهوده الفنى فى ظل الدولة الأموية . وأغلب هذه الأهاجى قد نظمه فى ظل البيت المروانى . ولم ينظم فى ظل البيت السفيانى غير مقطوعتين ، إحداهما فى هجاء الأنصار وشاعرهم عبد الرحمن بن حسان ، والأخرى فى هجاء النعمان بن بشير . وقد يبدو غريباً أن ينصرف عن الهجاء بعد هاتين المقطوعتين طوال خلافة البيت السفيانى ، إذ كان قبل أن يعقد بالأمويين أسبابه شاعراً بارعاً فى هذا الفن ، وكان لهجائه الأنصار دوى تردد صداه فى العالم الإسلامى . فلِمَ انصرف بعد ذلك عن الهجاء وهو يملك لهذا الفن أداته ؟

يبدو لنا أنه كان للظروف السياسية التى لابست صلة الأخطل بالبيت السفيانى أكبر الأثر فى ذلك . فالأنصار كانوا فئة محترمة تحتل مكاناً ممتازاً من قلوب المسلمين ، وكان معاوية منذ اجتمع الناس عليه يتغاضى عن أخطائهم ، ويتألف قلوبهم ، تمكيناً لنفسه ، واستعداداً لإقرار الملك ليزيد من بعده ، فلما هجاهم الأخطل ، وهو الذمى النصرانى ، أثار بهجائه مشكلة كان على معاوية أن يحسم حلها ، فوقف فى صف الأنصار ، وكاد يبطش به لولا شفاعة يزيد ابنه ، وكان لهذه الحادثة أبلغ الأثر فى نفس الأخطل ، فقد أحس بعدها أن حياته لابد معرضة للخطر إن هو اجترأ على هجاء المسلمين وكان هجاؤه معارضاً لسياسة الخليفة .

ولم يكن له بعد من الدوافع الشخصية أو القبلية ما يدعوه إلى الهجاء . فانصرف عنه طوال خلافة هذا البيت إبقاء على حياته . وأفرغ مجهوده فى المدح الذى يحقق له أطماعه .

فلما انتقلت الخلافة إلى البيت المروانى . عنى الأخطل بالهجاء إلى جانب عنايته بالمديح ، وأنشأ فى ظل هذا البيت مجموعة من الأهاجى تمثل أغلب مانظم فى ظل الأمويين من هجاء .

وكان للظروف السياسية التى لابست صلة الأخطل بهذا البيت أثر كبير فى ذلك . فقد اشتعلت الأمصار بنار الفتنة بعد موت يزيد، ودب النزاع بين الأمويين ودعاة ابن الزبير على الخلافة ، وأدلت قبيلة الأخطل بدلوها فى هذا النزاع ، وأبلت فى محاربة القيسية أصدق البلاء ، وضحت برجالها وأموالها فى ظل ولائها للبيت الأموى . وشارك الأخطل بنفسه فى هذه الحروب ، وهيأ له هذا الجو القبلى السياسى دوافع قوية للفخر والهجاء . ولم ير ما يدعو إلى التحرج من هجاء القيسية ، فالخليفة راض عن هجائهم ، والدولة محتاجة إلى من يندد بخصومها ويدافع عن وجهة نظرها . وهى مقدرة مع ذلك لولاء تغلب وبلائها . فلا بأس فى أن يمزج فى مدائحه بين المدح والفخر والهجاء . ولا ضير فى أن يفرد فى القيسية أهاجى يتفرغ فيها لهجائهم . مادام يخدم بهجائه مصلحة الدولة والقبيلة .

وهيأت له صلته ببشر بن مروان دوافع أخرى للفخر والهجاء . فقد حرضه بشر على الحكم بين جرير والفرزدق . وأثار بحكمه جريراً فهجاه وعيره بهزائم تغلب فى الحروب التى شجرت بينها وبين القيسية . وأبى الأخطل أن يسكت على هذا الهجاء ، فبدأت بينهما النقائض، ولم ير ما يدعو إلى التحرج من هجاء خصمه ، فقد كان جرير يدافع عن القيسية فى شعره . ويتغنى بانتصاراتهم . وكان قومه كليب بن يربوع من أظهر فروع تميم تعصباً لابن الزبير ، وكان إلى ذلك متفرغاً لمدح الحجاج مبالغاً فى مدحه ، مما أسخط عليه الخليفة . فرأى الأخطل فى ذلك فرصة طيبة ينال فيها من خصمه وهو آمن . فضمن بعض مدائحه فى ظل البيت المروانى هجاء جرير ، وأفرد فى هجائه مجموعة أخرى من الأشعار . ورد بعضها فى النقائض وبعضها الآخر فى الديوان. ولاضير عليه فى ذلك ، مادام الأمويون

راضين عن هذا الهجاء مشجعين له، ومادام هذا الهجاء يزيد من شهرته وبعد صوته، ويخدم الدولة بما يضمنه من تنديد بالقيسية، ويرضى القبيلة بما يذيعه من مفاخرها .

وبذلك تعاونت الظروف السياسية التى لابست صلة الأخطل بالبيت المروانى على أن يهتم بالهجاء إلى جانب اهتمامه بالمديح ، وأن ينظم فى ظل هذا البيت أغلب مانظمه فى ظل الدولة الأموية من أهاج .

* * *

وتتنوع أهاجى الأخطل فى ظل الأمويين إلى قصائد ومقطوعات وأبيات ، فقصائد الأهاجى ١٨ قصيدة يقابلها فى المدائح ٢٧ قصيدة . ومقطوعات الأهاجى ١٢ مقطوعة يقابلها فى المدائح ٥ مقطوعات . والأبيات المفردة فى المديح لاتعد شيئاً إذا قيست بعدد الأبيات المفردة فى الهجاء . وقد يبدو من ذلك أن محصول الأخطل هنا قريب فى جملته من محصوله هناك . غير أن الإحصاء الدقيق يثبت أن محصول المدائح يكاد يبلغ ضعف محصول الأهاجى . فتعداد المدائح نيف وخمسون ومائة وألف بيت يقابله فى الأهاجى نيف وثلاثون وستمائة بيت . والسبب فى ذلك قريب واضح ؛ فقصائد المديح تربى فى عددها على قصائد الهجاء ، كما أنها أكثر منها عدد أبيات . ففى المدائح ١٩ قصيدة تتراوح بين ٨٤ و٣٧ بيتاً ، وقصيدتان إحداهما ٣٣ بيتاً و الأخرى ٣٠ بيتاً ، و٦ قصائد تتراوح بين ٢٦ و١٤ بيتاً . وفى الأهاجى ٣ قصائد إحداها ٦٤ بيتاً و الثانية ٤٩ بيتاً و الثالثة ٤٢ بيتاً ، و ٤ قصائد تتراوح بين ٣٥ و ٣٠ بيتاً، و ١٢ قصيدة تتراوح بين ٢٦ و ١٤ بيتاً . فالكثرة العددية فى قصائد المديح ، والكثرة العددية فى أبيات هذه القصائد ، عامل مهم فى رجحان كفة المدائح على الأهاجى كمًّا ومحصولا .

* * *

وبناء القصيدة فى الأهجية يقرب أحياناً من بنائها فى المدحة. فنرى الأخطل يعنى فى بعض قصائده الهجائية بتحديد أغراضها والموافقة بينها ، كما يعنى بالتمهيد لغرضه الرئيسى بـ « مقدمات فنية » يمارس فيها إبداعه الفنى .

فنونيته « يلحاني » ٤٢ بيتاً تحتل منها المقدمات الفنية ١٩ بيتاً ، ورائيته

« سفر » ٣٥ بيتاً منها فى المقدمات وجدها ١٩ بيتاً، ولاميته « سؤالا » ٦٤ بيتاً تظفر المقدمات منها بـ ٢٤ بيتاً ، وبائيته « الأصهب » ١٦ بيتاً تبلغ المقدمات فيها ١٠ أبيات ، وبائيته « ساغب » ٢٢ بيتاً يقدم لها بـ ١٢ بيتاً .

وبالرغم من اضطراره فى بعض أهاجيه إلى أن يطيل القول فى الهجاء ، وبالرغم مما كان يبذل فى هذا الهجاء من جهد ، فما كان ذلك ليحول بينه وبين العناية بهذه المقدمات . فنراه يقدم للاميته « خبالا » بـ ١٢ بيتاً ، ولرائيته « الزبور » بـ ٩ أبيات ، ولرائيته « خدورا » بـ ٧ أبيات ، ولقافيته « البراق » بـ ٥ أبيات .

* * *

والأخطل حين يعنى بهذه المقدمات ، يبدأ الأهجية غالباً بمقطع فى الغزل ، يمهد له أحياناً بمقطع فى وصف الطلل ، ويفرع منه أحياناً مقطعاً آخر فى وصف الخمر . وقد يبدأ الأهجية بمقطع فى وصف ارتحال الركب، وأحياناً ما يضمن تمهيده مقطعاً فى وصف الصيد ، وقد يقتصر فى تمهيده على واحد من هذه الأغراض. وفرق كبير بين المقدمات هنا والمقدمات فى المدائح . فليس فى مقدمات الأهاجى ذكر للثور وحلائله ، ولا للحمار وأتنه ، وليس فيها وصف للصحراء ، أو وصف للفرات ، أو وصف للذئب والغراب . فهى بذلك محدودة فى أغراضها ، قصيرة فى مجموعها ، قليلة فى مقاطعها .

فإذا انتقل إلى غرضه الرئيسى ، عنى بتقسيم عناصره وتنسيقها عنايته بذلك فيما مهد له من مقدمات ، وبخاصة فى أهاجيه التى تتعدد فيها عناصر هذا الغرض وتشتد الحاجة إلى الإطالة فيه . فنراه ينشئ مقطعاً ينال فيه من المهجو، وآخر ينال فيه من قوم المهجو ، وقد يضمن ذلك مقطعاً أو مقطعين فى المفاضلة ، وقد يفرع من هذا أو ذاك مقطعاً يفخر فيه بنفسه ، أو يندد فيه بخصومه ، أو يشيد فيه بمآثره قومه .

على أنه إذا كان قد عنى بنظام القصيدة فى بعض أهاجيه ، فهو لم يراع ذلك فى عدد كبير منها . ففى رائيته « المناخر » ، ونونيته « دان » ، ورائيته « بالعمر » ، ورائيته « الغبارا » ، ورائيته « التراتر » ، ورائيته « الكبار » ،

ورائيته « والعار » ، و يائيته « دعانيا » ، وكافيته « الحوارك » ، فى هذه القصائد جميعاً ، نراه يدخل على غرضه الرئيسى فى غير تقديم أو تمهيد . وهو يمزج فى هذا الغرض بين عناصره مزجاً شديداً ، حتى ليصعب على الباحث أن يستخرج مقطعاً لهذا العنصر أو ذاك . والفخر والهجاء فيه مختلطان متداخلان ، تتوالى فيهما الصور متلاحقة متتابعة فى أبيات مفردة ، لا فى مقاطع كاملة كما هو الشأن فى أغلب المدائح .

وكذلك الشأن فيما وصل إلينا فى الأهاجى من مقطوعات . فهو يدخل فيها غالباً على غرضه الرئيسى بلا تقديم أو تمهيد . فإذا مهد للمقطوعة ، وهذا قليل ، لم يطل الوقوف بتمهيده ، وانتقل مسرعاً إلى غرضه الرئيسى ، ليتفرغ إلى ماهو بسبيله من هجاء ، مازجاً بين عناصره فى غير ترتيب أو نظام .

ومن ثم نرى أن مراعاة التقسيم والتنسيق فى الأهاجى ليست مطردة ، وأن العناية بالمقدمات تكاد تنحصر فى مجموعة قليلة من القصائد ، وأن الفرق بذلك جلى واضح ، إذا قابلنا بين الأهاجى والمدائح .

* * *

وقد عودنا الأخطل فى المدائح أن يقف بين الحين والحين « وقفات فنية طويلة » ينمى بها أغراضه ، ويضفى بها على المدحة فخامة فى العرض وقوة فى البناء وروعة فى التصوير . فرأيناه يستطرد فيها من الغزل إلى وصف الخمر ، ومن الناقة إلى وصف الحمار أو الثور ، ويستعين بالاستدارة فى وصف الفرات أو الرياض ، أو فى وصف الجو الدينى بالحجاز ، ويلجأ إلى الوصف القصصى فى كثير من الأغراض ، حتى لاتكاد تخلو مدحة من هذه المدائح من بعض هذه الأساليب البيانية التى يبدع فيها ويطيل . أما فى الأهاجى ، فنراه معجلا عن الوقوف الفنى الطويل ، مهملا هذه الأساليب ، فغدت بذلك أهاجيه أقصر من مدائحه نفساً وأقل روعة وفخامة .

* * *

على أن هذه الأهاجى إذا كانت قد حرمت وقفات الأخطل الطويلة ، فهى لم تحرم « صوره الجزئية » التى تتمثل فى البيت الواحد أو البيتين ، والتى تنبثق من مخيلته

فى ومضات شعرية تكشف عن قوة خياله ونفاذه ، وتشهد له بالبراعة فى التقاط معانيه وتشبيهاته .

هذا ابن حسان ، إذا تفرست فى شكله لتعرف أصله ونجره ، تراءى كالجحش بين حمارة وحمار :

وإذا نسبْتَ ابنَ الفُريعةَ خِلْتَه كالجحش بين حمارة وحمار

(ص ٢١٤ ب ٦)

وهذا جرير ، إن أصله فى بنى يربوع . ففيم يفخر على الناس وهو أحد اليرابيع الوضيعة ؟! إنه لن يغنى عن قومه شيئاً ، ومصيره الموت هزالا فى جحره :

وما اليَرْبوعُ محتضِناً يَديهِ بمُغْنٍ عن بنى الخَطَفَى قِبالا

يَسُدُّ القاصِعاءَ عليه حتى يُنفّقَ أو يموتَ بها هُزالا

(ص ١٦٤ و ١٦٥ ب ٥ و ٦)

وهؤلاء قوم جرير ، لقد بلغ من لؤمهم ودناءة طبعهم أنهم يتهربون من الضيفان ، فإذا أحسوا بالضيف مقبلا طلبوا إلى أمهم أن تطفئ النار ، أن تبول عليها لا أن تطفئها بالماء ، فهم أشحاء حتى بالماء :

قومٌ إذا استَنْبح الأضيافُ كلبَهُمُ ، قالوا لأُمِّهم : بُولى على النار!

(« ن » ص ١٣٥ ب ٦)

وهذا الحراق . لقد ظل يغلى من الغيظ . كالفحل يرى الناقة يرغب فى ضرابها ، فيحول القيد بينه وبينها ، فيهدر ويلوى رأسه بالقتاد الذى شد إليه :

وظلّ الحُرَاقُ وهو يحرق نابَه بما قد رأى من قوة وعتاد

هديرَ المُعنَّى ألقحَ الشَّوْلَ غيرُه فظلّ يُلَوِّى رأسَه بقتاد

صورة بدوية خالصة ، وألفاظ قوية معبرة . « يحرق نابه » وما تصوره من شدة الغيظ ، « هدير المعنى » وما يصحب الألم من صوت ، « يلوى رأسه » وما فى الحركة من جهد .

(ص ١٣٧ ب ١٢ و ١٣)

وهذه الشجة المنكرة فى الوجه . شجة بشعة تفهق بالدم ، عميقة نافذة لا يسبر لها غور :

فأَبْدِ لمن لاقَيْتَ وجهَك واعترِفْ بشَنْعاء للذِّبَّانِ فيها مصائر

بنعّارة ينْفِى المسابيرَ أرْبُها عليها من الزُّرْقِ العيونِ عساكر

تأمل وصفها بـ « شنعاء » وما يحمل هذا الوصف من بشاعة منظرها ، ووصفها بـ « نعارة » وما يصوره اللفظ من صوت الدماء تنزف بغزارة ، وهذه الكناية عن عمق الجرح وامتلائه بالدم فى قوله «للذبان فيها مصائر» وقوله « عليها من الزرق العيون عساكر » .

(ص ٣١٧ ب ٢٣ و ٢٤)

وهذان البيتان فى هجاء الجحاف :

أَجحّافُ إن تصطكُ يوماً فتصطدمْ عليك أَواذِىٌّ البحورِ الزواخر

تكنْ مثلَ أقذاءِ الحَبابِ الذى جرى به الماءُ أو جارى الرياحِ الصَّراصر

فى البيت الأول يشبه بطش تغلب وقوتها فى الحرب بالبحر الهائج الثائر ، فى ألفاظ صلبة ضخمة تتفق وطبيعة الصورة التى يرسمها : « أجحاف » ، « تصطك » . « فتصطدم » . « أواذى » ، « الزواخر » . ويشبه فى البيت الثانى هوان أمر الجحاف بأقذاء الحباب ، فى ألفاظ هينة سهلة تتفق وضآلة شأن المهجو : « أقذاء الحباب » . « جرى به الماء » . « جارى الرياح » . وفى البيتين مجتمعين خيال قوى . وتركيب محكم ، وتصوير مركز . وألفاظ موحية .

(ص ٢٨٨ ب ٢ و ٣)

وانظر إلى « كأس الموت » :

وشِيبٍ يُسرعون إلى المنادِى بكأسِ الموتِ إذْ كُرِه التساقى

(ص ٣٢ – ب ١٨)

وإلى « رداء الموت » :

همـــا أخوانِ يصطليان نارًا رداءُ المـــوتِ بينهما جديد

(ص ٢٨٢ ب ٤)

وإلى « شباب الدهر » :

سعيتَ شبابَ الدّهر لم تستطعهمُ　　أفالآنَ لما أصبح الدهرُ فانيا

(ص ٦٦ ب ٥)

وإلى « الجوع الساهر » :

فما الدِّينَ حاولتم ولكن دعاكمُ　　إلى الدِّين جوعٌ لا يُغمِّض ساهر

(ص ٣١٥ ب ٢)

وتأمل مافى هذه التعابير جميعاً من خيال وطرافة .

ولم تقتصر هذه الومضات الشعرية على الهجاء والفخر ، فانبثقت أيضاً فى الغزل والوصف .

فإذا رأى النساء ينظرن إليه من خلل الستور ، ذكّرنه بالهجان البيض ترنو إلى الفحل :

ينظرْنَ من خَللِ الستور إذا بدا　　نظرَ الهِجانِ إلى الفَنِيق المُصْعَب

(ص ٢٨ ب ٨)

وإذا وصف النوق فى سيرها ، قفزت إلى ذهنه صورة الأسرى مجهدة فى الأسر :

صوادِقُ عِتْقٍ فى الرحال كأنها　　من الجَهْدِ أسْرَى مسّها البؤس والفقر

(ص ١٩٧ ب ٨)

وإذا تغزل فى محبوبته ، فاضل بينها وبين الظبية فى هذه الاستدارة المركزة :

فليستْ ظبيةٌ غرّاءُ ظلَّتْ　　بأعلى تَلْعـةٍ تُزْجِي غزالا

بأحسنَ مُقْلةً منها وجِيدًا　　ووجْهاً ناعماً كُسِيَ الجَمالا[1]

(« ش » ص ٨ ب ١٤ و ١٥)

وإذا وصف النحور والنهود ، ذكر دياسق الفضة ونواعم الرمان :

---

(١) لم نعثر للأخطل على غير هذه الاستدارة فى أهاجيه كلها .

ونحورُهنّ دَياسِقٌ من فِضّةٍ ونواهِدٌ كنواعم الرُّمّان

(«ن» ص ٢٢٠ ب ٨)

وهكذا يطالعنا الأخطل من حين لآخر بهذه الومضات الشعرية المركزة ، فيهزنا بما يبتدع فيها من صور ، تتجلى فيها الدقة فى التصوير والتركيز فى الأداء ، ولولاها لفقدت هذه الأهاجى فيما نرى جزءاً كبيراً من قيمتها الفنية .

* * *

وثم فرق واضح بعد ذلك بين عناصر غرضه الرئيسى فى الأهاجى وبينها فى المدائح . فنى المدائح تحتل « الدولة » ورجالها مكان الصدارة فى مدحه وفخره وهجائه ، فيصور كفاح الأمويين فى سبيل الملك ، ويشيد بأفضالهم ، ويهاجم أعداءهم ، فإذا عرج على قبيلته ، ففي ظل الدولة التى يتمسك وقومه بالولاء لها . أما فى الأهاجى ، فـ « القبيلة » هى التى تحتل مكان الصدارة من غرضه الرئيسى . فإذا هجا فتنديداً بخصوم تغلب ودفاعاً عن مصالحها ، وإذا فخر فإشادة ببلائها وتغنياً بأمجادها ومناقبها . وإذا عرج على موقف الدولة من هذا الصراع ، اكتفى بالإشارة والتلميح عن الإطالة والتفصيل. فكان بذلك فى أغلب المدائح شاعراً سياسياً أكثر منه شاعراً قبلياً ، كما كان فى أغلب الأهاجى شاعراً قبلياً أكثر منه شاعراً سياسياً .

والأخطل حين يعرج فى أهاجيه على « الدولة » يرعى موقفه منها وصلته برجالها .

فلولا « قريش » ، لتحرر فى هجاء القيسية ولم يبق عليهم :

فلولا قريشٌ عُولجتْ قَمَلِيّةٌ على أعجفِ الذِّفْرَى رقيقِ المشافر

(ص ١٩١ ب ١٣)

ولولا « أمير المؤمنين » ، لتحررت تغلب فى حربهم والقضاء عليهم :

ولولا أميرُ المؤمنينَ تكشّفتْ قبائلُ عنّا أو بِلاها بنا الدهر

(ص ٢٠٠ ب ٢٣)

وإذا اعتز بقبيلته ، لم يعدل بها غير « قريش » (ولولا مراعاة الدولة لما عدل بها فيما نحسب قبيلة أخرى) :

فَمنْ يَعْدِلْ بنا إلا قريشٌ ... ألسْنا خيرَ من وَطِئَ النِّعالا؟!

(« ش » ص ١٠ ب ٣٣)

وإذا هجا بنى أسد ، اتكأ على عصبية البيت الأموى فى « قريش » :

فأمــا تمنِّيكم قريشاً فإنها ... مصابيحُ يرميهــا بعينيه ناظر

فمــا أنتمُ منها ولكنكم لها ... عبيدُ العصا ما دام للزيت عاصر

(ص ٣١٦ ب ١٠ و ١١)

وإذا هاجم الأنصار ، فضل عليهم « قريشاً » وأخر منزلتهم :

ذهبتْ قريشٌ بالمكارم والعُلا ... واللؤمُ تحتَ عمائم الأنصار

(ص ٣١٤ ب ٣)

فهو كما نرى يرعى شعور الأمويين فى هذه الأهاجى ، ويتكئ على عصبيتهم برغم أنه ربعى وهم مضرية .

* * *

وكما يبدو أثر « الجو الدينى » فى مدائحه يبدو كذلك فى أهاجيه . فنراه يستخدم بعض الألفاظ والعبارات المستمدة من الدين أو التى تشير إلى بعض شعائره وطقوسه .

فنى هجاء القيسية :

ولا يصلِّى على موتاهمُ أحدٌ ... ولا تَقبَّلُ أرضُ الله ما قَبَروا

إذا أناخوا هداياهم لمَنْحَرها ... فهم أضلُّ من البُدْن الذى نَحروا

(« ش » ص ٢٦ ب ٧ و ٨)

وكانوا مَعْشرًا قد جاورونا ... بمــنزلةٍ فأكرمْنا الجِوارا

فلمّــا أن تَخلَّى الله منهم ... أغاروا إذْ رأوا منّا انفِتارا

(« ش » ص ٣٠ ب ٣ و ٤)

فصبَّحْناكم صــوارمَ بيضاً ... قبلَ صوتِ الإمامِ بالتكبير

(« ش » ص ٦ ب ٢٠)

وفى هجاء ابن صفار :

لحَى الله قيساً حين فرّتْ رجالُها ... عن النَّصَف السوداء والكاعب البكر

(ص ٢٢٠ ب ٦)

ولما رأى الرّحمنُ أن ليس فيهمِ ... رشيدٌ ولا ناهٍ أخاه عن الغدر

أمال عليهم تغلبَ ابنةَ وائلٍ ... فكانوا عليهم مثلَ راغِيَةِ البَكر

(ص ٢٢١ ب ١٥ و ١٦)

وفى هجاء خنجر :

فما الدِّينَ حاولتم ولكن دعاكمُ ... إلى الدِّينِ جوع لا يُغمِّض ساهر

(ص ٣١٥ ب ٢)

أخَنْجَرُ لو كنتم قريشاً طَعِمْتمُ ... وما هلكتْ جوعاً بِلَغْوَى المَعاصر

إذًا لضربتم فى البِطاح بِسُهْمَةٍ ... وكان لكم من طيرِ مكةَ طائر

(ص ٣١٦ ب ٥ و ٦)

إذا نَوْفلٌ حَلَّتْ بِزمزمَ أرْحُلا ... وعبدُ مَنافٍ حيث تُهْدَى النحائر

فكانوا قريشاً عند ذاكَ وأنتمُ ... مكانَ الخُصَى قُدَّامَهنَّ المناخر

(ص ٣١٦ ب ٨ و ٩)

فما خُتِمتْ أكتافُكم لِنُبُوّة ... وأسْتاهُكم قد أنكرتْها المنابر

(ص ٣١٦ ب ١٢)

وفى هجاء جرير :

مالكَ عِزٌّ التغلبيِّ الذى بَنى ... له الله فى شُمِّ الجبال الحَوارِك

(ص ٢٨٤ ب ١)

أتُعْجِزُنا فى بَسْطةِ الأرض كلِّها ... فتلك، وبيتِ الله ، إحدى العجائب

(ص ٢٧٨ ب ٤)

وفى هجاء ابن الصعق :

فلوكنتَ يابنَ الصَّعْقِ إذكنتَ عاملا صبرتَ وليس العامرىُّ بصابر
لهانَ علينا ، والذى أنا عبدُه ، دعاؤك فى أرماحنا يالَ عامر
(ص ١٩٠ ب ٦ و ٧)

على أن هذا التأثر بالجو الدينى محدود محصور فى أبيات قلائل، وليس بالكثرة التى لاحظناها فى المدائح .

* * *

وإنما يغلب على هذه الأهاجى تلك « المثل الجاهلية » التى بقيت متغلغلة فى بعض القبائل ، وهذه « النعرة القبلية » التى حاول الإسلام القضاء عليها. فنرى الأخطل يتخذ من أمجاد قبيلته محوراً يدير عليه فخره وهجاءه . فقبيلته ليست هملا بين القبائل لا مجد لها أو بلاء، بل هى قبيلة قوية عرفت بتاريخها المجيد فى الجاهلية ، كما عرفت بشدتها وقوة بأسها فى ظل الإسلام. أيامها فى الجاهلية كثيرة تدعو إلى العزة والفخار ، وانتصاراتها على القيسية متتابعة تملأ نفوسهم بالذلة والانكسار .

إذن فليذكر القيسية أن قناة تغلب لا تلين ، وأنها لا تستكين للضيم ، وإن كان من تعاديه الملك الجبار :

إذا المَلْكُ آلَى أنْ يُقيمَ قناتَنا فليس علينا يومَ ذاك بقادر
إذا الأَصْعرُ الجبَّارُ صعَّر خدَّه أقمْنــا له من خدِّه المتصاعر
بضربةِ سيفٍ ، أو بنجْلاء ثَرَّةٍ إذا نَشَجتْ مَجَّتْ دماء الأباهر
(ص ١٨٩ و ١٩٠ ب ٣ - ٥)

وليذكر جرير أن فى تغلب الفرسان الكماة الذين قتلوا الملوك وفككوا الأغلال :

أبَنِى كليبٍ إن عمَّىَّ اللَّذا قَتَلا الملوكَ وفكَّكا الأغلالا
وأخوهمـــا السفَّاحُ ظمَّأ خيلَه حتى وردْنَ جِبىَ الكلابِ نِهالا
(ص ٤٤ و ٤٥ ب ١٦ و ١٧)

وليذكر ما كان لتغلب فى الجاهلية من أمجاد، وما كان لرجالها من بأس يوم الكلاب وذى قار :

هلّا كفَيْتم مَعدًّا يومَ مُعضِلة ... كما كفَيْنا معدًّا يومَ ذى قار
جاءتْ كتائبُ كِسْرَى وهى مُعْلَمةٌ ... فاستأصلوها وأردَوْا كلَّ جبّار
هلاّ مَنعتم شُرَحْبِيلا وقد حَدِبتْ ... له تميمٌ بجمعٍ غيرِ أخيار
يومَ الكلابِ وقد سِيقتْ نساؤكمُ ... سَوْقَ الجلائبِ من عُونٍ وأبكار
أهْوَى أبوحَنَشٍ طعْنا فأشعَرَه ... نجلاءَ فوْهاءَ تُعْيِى كلَّ مِسْبار

(« ن » ص ١٣٥ – ١٣٧ ب ٩ – ١٢ و ١٤)

وليذكر كيف ثبتت تغلب يوم الكلاب ، وكيف ولت تميم الأدبار :

أنَسِيتَ قتلَى بالكلاب وحابِسٍ ... وبكيتَ وَيْحَك بُرْقةَ الرَّوْحان
ودّتْ تميمٌ بالكلاب لوَ انَّها ... باعتْ هناك زمانَها بزمان
والخيلُ تَرْدِى بالكماةِ كأنَّها ... يومَ الكلابِ كواسِرُ العِقْبان
بِرجالِ تغلبَ كالأُسود ومَعشرٍ ... قتلوا طَرِيفاً من بنى شَيْبان

(« ن » ص ٢٢٤ و ٢٢٥ ب ٣٩ – ٤٢)

* * *

واتخذ الأخطل إلى ذلك من « الصراع القبلى » بين تغلب والقيسية فى ظل بنى مروان مادة أخرى يعتمد عليها فى فخره وهجائه . فصور ما كان فى هذا الصراع من أحداث ، وما جرى فيه من مواقع ، وما ظفرت به تغلب من أيام، وندد بهزائم القيسية ، وحشد أسماء قبائلها ، وتتبع مصارع قوادها ، وبالغ فى ذلك حتى ليخيل إلى القارىء أن تغلب لم تعرف فى هذه الحروب طعم الذل والهزيمة .

فى هجاء القيسية :

أهْلكَ البغْىُ بالجزيرة قَيْساً ... فهوتْ فى مغرّقِ الخابُور
طلبوا الموتَ عنــدنا فأتاهم ... من قَبــولٍ عليهمِ ودَبور

بَشِّروا حِمْيرَ القُيولَ وكلباً . بُعمَيْرٍ وشِلْوِهِ المجزور
واشربا ما شربتما إنَّ قيساً من قتيلٍ وهاربٍ وأسير
وطحنَّا قيسَ بنَ عَيْلانَ طحْناً ورَحانا على تميمٍ تدور
وترى التُّرْسَ فى دماء غَنِىٍّ مستديرًا كجزْيةِ القُرْقُور
طَحنتْ عامرًا وعبساً وسعدًا وألحّتْ على بنى منصور
(«ش» ص ٥ و٦ ب ١٠ و١١ و١٤ — ١٦و٢٥و٢٦)

وفى هجاء ابن صفار :

لحَى الله قيسًا حين فرّتْ رجالُها عن النَّصَف السوداء والكاعبِ البكر
وإنْ يَكُ قد قاد المَقانبَ مرّةً عُميرٌ فقد أضحى بِداويةٍ قفر
صريعاً بأسياف حداد وطعنةٍ تَمُجُّ على متن السِّنان دمَ الصدر
عدا زفرُ الشيْخُ الكلابُّى طَوْرَه فقد أنزلتْه المَنْجَنِيقُ من القصر
وزِرٌ أضاعتْه الكتائبُ حولَه فأصبح محطومَ الجناحين والظهر
فسيروا إلى أهلِ الحجاز فإنما نفينا كمُ عن مَنْبِت القمح والتمر
ونحنُ حَدَرْنا عامرًا إذ تجمّعتْ ضِراباً وطعْناً بالمثقَّفةِ السُّمْر
(ص ٢٢٠ و٢٢١ ب ٦ و٨ و٩ —١٢ و١٧ و١٨)

وفى هجاء جرير :

ولقد سَما لكمُ الهُذَيْلُ فنالكم بإرابَ حيث يقسِّم الأنفالا
فى فَيْلَقٍ يدعو الأراقمَ لم تكن فُرْسانُها عُزْلا ولا أكفالا
والخيلُ ساهمةُ الوجوه كأنما خالطْنَ من طول الوَجِيف سُلالا
ما إن تركنَ من الغواضر مُعْصِرًا إلاّ عقدْنَ بساقها خلْخالا
ولقد عَطفْنَ على فَزارةَ عَطْفةً كرَّ المنيحِ وجُلْنَ ثَمَّ مَجالا
ولقد وقعْنَ على المشاعر كلِّها ولقد قتلْنَ ثَقيفَها وهِلالا

قصيراتِ الخُطا عن كل خيرٍ إلى السَّوْءاتِ مُسْمِحةً رِعالا
(ص ١٦٥ ب ٨ و ٩)

تُعَيِّرُني شرابَ الشَّيخِ كِسْرَى ويشرب قومُك العجبَ العجيبا
مَنِيُّ العبدِ عبدِ أبي سُواجٍ أحقُّ من المُدامةِ أن تَعيبا
(ص ١٥٥ ب ١ و ٢)

ضَعُفتْ حواملُه فمال إلى اسْتِها في الغَيِّ إنَّ مُحارِباً لَضَلول
(«ن» ص ١٧٧ ب ٤)

وما كانت الصَّمْعاءُ إلا تَعِلَّةً لمن كان يَغْتَشُّ الإماءَ الزوانيا
(ص ٦٧ ب ٢١)

أَصِخْ يا بنَ ثَفْرِ الكلب عن آل دارمٍ فإنك لن تَسْطِيعَ تلك الروابيا
(ص ٦٦ ب ٢٦)

ولقد جَشِمْتَ جريرُ أمرًا عاجزًا وأنلْتَ سَوْءَةَ أُمِّك الجُهَّالا
(«ن» ص ٨١ ب ٤١)

وكنتم مع السَّاعي المُضِلِّ بني اسْتِها جريرٍ وسلاَّكينَ شرَّ المسالك
(ص ٢٨٦ ب ١٣)

ولقد خَصَيْتُ مُحارِباً بخِصائه ويَهِرُّ وهْو على الهَوان ذَلول
(«ن» ص ١٧٨ ب ٩)

وفى هجاء النابغة الجعدى :

خَنافِسُ أَدْلَجتْ لمبيت سَوْءٍ وَرِثْنَ فراشَ زانيةٍ وزان
وما أمٌّ رَبَوْتَ على يدَيْها بطاهرةِ الثيابِ ولا حَصان
كأنَّ عِجانَها لَحْيا جَزُورٍ تَحسَّرَ عنهما وَضَرُ الجِران
(ص ١٩٢ ب ٨ — ١٠)

وفى هجاء ابن الصعق :

كأنَّ غَراضيفَ اسْتِها حولَ أَيْرِه وحَجْمَ تَراقيها سكاكينُ جازر
(ص ١٩١ ب ١٤)

على أن هذا الإسفاف قليل محدود لا يتجاور هذه الأبيات ، وهو لا يكاد يذكر إذا قوبل بما فى أهاجى زميليه من فحش وبذاء .

ويغلب على الظن أن هناك علاقة قوية بين صلة الأخطل بالأمويين ، وهذا الإقلال من الفحش فى أغلب مانظمه فى ظلهم من شعر . وآية ذلك أنه لم يكن يحسن قبل أن يعقد بهم أسبابه غير أفحش الهجاء ، فلما اتصل بهم اختفى هذا الفحش مما نظمه فى ظلهم من مدائح ، وقل بشكل ملحوظ فيما نظمه فى ظلهم من أهاج . وتفسير ذلك فيما نرى أن الأخطل كان يرعى الدولة التى يتكلم بلسانها ويصدر عن سياستها ، فلم يكن من اللائق أن يتقدم إلى رجالها مادحاً ، فيتنزل إلى ذكر العورات ويفحش فى تصوير العيوب ، لأن للحكام تقاليد ينبغى أن ترعى وآداباً يجب أن تحفظ . ولن يفيد الدولة فى شىء أن يكون هجاء شاعرها لخصومها سباباً وشتائم ونهشاً للأعراض ، وإنما الذى يفيدها حقًّا هو أن يؤيد فى هجائه سياستها ويروج لمبادئها ويصور قوتها وسطوتها . فلا جرم إذا ابتعد الأخطل عن الفحش فى مدائحه التى نظمها فى ظل الدولة ، واتجه إلى السياسة يستمد منها عناصر لهجائه ، وإلى الإسلام يستعين به فى الرد على خصومها وخصومه . وإذا كان قد أسفّ بعض الإسفاف فى أهاجيه ، فلا حرج على الأمويين فى ذلك ، مادام هذا الفحش قليلا فى جملته ، وما دامت هذه الأهاجى غير مقرونة باسمهم . ولم يكن بدعاً فى ذلك بين معاصريه ؛ فهذا جرير والفرزدق ، على ما عرف عنهما من تهالك على الفحش والبذاء ، قد تعففا فيما نظما فى الأمويين من مدائح ، واستعاضا عن السباب بالسياسة يستمدان منها عناصر للهجاء . وإذا كانا قد أسفّا فيما دار بينهما من نقائض وأهاج ، فيجب ألا يغيب عن بالنا أن أغلب هذه الأهاجى قد نظم قبل أن تتوثق صلتهما بالدولة القائمة ، وفى الوقت الذى كان فيه الأخطل شاعرها الرسمى الذى لا تعدل به أحداً من الشعراء . فلا جرم إذا تحررا فى هذه الأهاجى وانغمرا فى تيار الفحش والسباب ، مادام هجاؤهما قبليًّا شخصيًّا لا يمس الدولة ولا يصدر عن البلاط [1] .

---

(١) يرى لامانس أن تعفف الأخطل عن الفحش إنما يرجع إلى دينه ، لأن التعفف فى اللغة لم يكن من أخلاق العرب أو تقاليدهم الشعرية (Lammens, H. : Le Chantre des Omiades, pp. 63-65; Etudes sur Le Siécle des Omayyades, p. 231). وقد يكون هناك مايشير إلى =

وسَقَيْنَ من عادَيْنَ كأساً مُرَّةً ... وأزلْنَ جَدَّ بنِي الحُبابِ فزالا
يَغْشَيْنَ جيفةَ كاهل عرَّيْنها ... وابنَ المُهزَّمِ قد تركْنَ مُذالا

(«ن» ص ٧٧ — ٨٠ ب ٣٠ — ٣٧)

ويصر فى تصوير هذا الصراع على تسجيل أسماء القبائل التى ناصبت قبيلته العداء ، وأسماء القواد الذين لقوا حتفهم على يد قومه ، وأسماء الأماكن التى كانت ميداناً لهذه الأيام ، ويبالغ فى ذلك إلى حد الإملال ، حتى ليبدو أحياناً أقرب إلى المؤرخ الذى يسجل وقائع التاريخ منه إلى الفنان الذى تهزه الأحداث فتنتفض فى شعره صوراً تنبض بالحركة والحياة .

* * *

وثم عنصر آخر أفاد منه الأخطل فى بعض هذه الأهاجى . فقد اتخذ من الخصومة بين جرير والفرزدق مادة خصبة فى هجاء جرير ، واتكأ على « نسب الفرزدق فى تميم » ، واتخذ من « المفاضلة بينه وبين جرير » عنصراً هامًّا يستمد منه فى هجاء خصمه :

أتَعُدُّ مأثُرةً لغيرِك فخرُها ... وسناؤهـــا فى سالف الأزمان
تاجُ الملوكِ وصِهرُهم فى دارِمٍ ... أيامَ يَرْبوع مع الرُّعْيان
سَبقوا أباك بكلّ مَجْمع تَلْعةٍ ... بالمجد عند مواقف الرُّكبان
قومٌ إذا خطرتْ عليك قُرومُها ... طرحوك بين كلاكل وجِران
وإذا وضعتَ أباك فى ميزانهم ... رجحوا وشال أبوك فى الميزان
ولقدْ تَقايستمْ على أحسابكم ... وجَعلتمُ حَكماً من السّلطان
فإذا كليبٌ لا توازن دارِماً ... حتى يوازنَ كرذَمٌ بِأبان

(«ن» ص ٢٢٢ — ٢٢٤ ب ٢٨ و٢٩ و٣١و٣٣ — ٣٦)

جَلبتْ كليبٌ للرِهان مُكدَّماً ... عنـــد الحِفاظ مُسبَّقاً مغمورا
قد كان يُعهد فى الرِّهان إذا جرى ... حَطِماً إذا اعترض الجيادُ عَثورا
أجْرَى جريرٌ وحده ولربمـــا ... كان المُجوِّدُ وحـدَه مسرورا

فأحانه جَرْىُ الخلاء وطالمــا قد كان يوجد حائنًا مغرورا
لما جرِي هو والفرزدقُ لم يكن نَزِقاً ولا لِمَدَى المِئِينَ صَبورا
يجرى له عُدُسُ بنُ زيدٍ بالقَنا وجرى بِصَعْصَعةَ الوَئيدُ بشيرا
قومٌ همُ سبقوا أباك إلى العُلا جَرْياً وصرتَ مخلَّفاً محسورا
(« ن » ص ١١٦ و ١١٧ ب ٨ — ١٤)

فانْعِقْ بضأْنِك يا جريرُ فإنما منَّتْكَ نفسُك فى الخلاء ضلالا
منَّتْكَ نفسُك أن تكون كدارمٍ أو أنْ توازنَ حاجِباً وعِقالا
وإذا وضعْتَ أباكَ فى ميزانِهم قفزتْ حديدتُه إليك فشالا
إنَّ العَرارةَ والنُّبُوحَ لدارمٍ والمستخِفُّ أخوهُم الأثقالا
(« ن » ص ٨١ و ٨٢ ب ٤٢ — ٤٥)

أتطلبُ عادِيًّا بنَى الله بيتَه عزيزًا ولم يجعلْ لك الله بانيا
سعيتَ شبابَ الدهرِ لم تستطعْهمُ أفالآنَ لما أصبحِ الدهر فانيا
وإنَّك لو أسريت ليلَك كلَّه من القوم لم تصبحْ من القوم دانيا
بَخَسْتَ بيَرْبوع لتُدْرِكَ دارِمًــا ضَلالا لمن منَّاكَ تلك الأمانيا
أتشتِمُ قوماً أثَّلوكَ بنَهْشَلٍ ولولاهمُ كنتم كعُكلٍ مواليا
(ص ٦٦ ب ٤ و ٥ و ٧ — ٩)

وبذلك دخل عنصر جديد فى أهاجى الأخطل فى جرير ، هو عنصر الفرزدق ونسبه فى تميم ، وتميزت بذلك هذه الأهاجى على مدائحه فى ظل البيت المروانى ، فإن هجاء جرير فى هذه المدائح يخلو خلوًا تامًّا من ذكر الفرزدق .

* * *

وثم فرق آخر بين الهجاء هنا وهناك . ففى المدائح يخلو هجاء الأخطل من « الفحش » ، أما فى الأهاجى فقد تنزل إلى ذكر العورات ، ولم يتورع عن الإسفاف والبذاء .

ففى هجاء جرير :

تَرى منها لوامِعَ مُبْرِقاتٍ يِكدْنَ ينِكنَ بالحدَق الرجالا

* * *

ولا يسع من يتأمل أهاجى الأخطل فى القيسية وجرير غير أن يعترف بدقة موقفه من خصومه . فقد كان « نصرانياً » فى قبيلة يدين أغلب أفرادها بالنصرانية ، وكان خصومه مسلمين فى دولة دينها الرسمى الإسلام . فلم يكن فى استطاعته أن ينال منهم فيما يتعلق بشئون الدين ، لأن فى ذلك مايثير عليه المسلمين ، ويقفل فى وجهه أبواب البيت الأموى . وكان خصومه على خلاف ذلك قادرين على أن يعرضوا بنصرانيته وينالوا من النصارى دون أن يخشوا فى ذلك غضب الدولة أو ثورة المسلمين .

وقد استغل جرير هذا الموقف ، واتخذ من نصرانية الأخطل مادة خصبة لهجائه ؛ فندد بشعائر النصارى ، من قرع للنواقيس ، وتبرك بمار سرجيس ، وعبادة للصليب ، وعيره وقومه بشرب الخمر ، ودفع الجزية ، وأكل الخنزير :

يا ذا الغَباوةِ إنَّ بِشْرًا قد قضَى ألَّا تجوزَ حكومةُ النَّشْوانِ

قَبَحَ الإلهُ مَن الصَّليبُ إلهُهُ واللابسين بَرانِسَ الرُّهْبانِ

والتابعين جُرَيْجساً وبُنَيَّه والتاركين مساجِدَ الرحمنِ

والذابحين إذا تقارب فِصْحُهم شُهْبَ الجلود خَسيسةَ الأثمانِ

تَغْشَى ملائكةُ الإله قبورَنا والتغلبيُّ جِنازةُ الشيطانِ

يُعْطَى كتابَ حسابِه بِشِماله وكتابُنا بأكُفِّنا الأيْمانِ

وإذا وَزَنتَ بمجد قَيْسٍ تغْلِباً رجحوا عليك وشُلْتَ فى الميزانِ

=ذلك فيما يروى عن الأخطل من الرضوخ لأوامر رؤسائه النصارى وعدم استنكافه من تأديبهم . غير أن الدارس لحياته وشعره يرى أن تمسكه الشديد بالدين النصراني لم يكن عن إيمان عميق بأوامر هذا الدين ونواهيه . فما أكثر ما كان يخرج على تعاليم النصرانية وآدابها ! وما أكثر ما كان يثير بخروجه هذا غضب رجال الدين ! ولامانس نفسه يعترف فى موضع آخر بأنه من العسير أن يغتفر له اتصاله بالفواجر من القيان طوال حياته (Lammens, H. : Al-Akhtal Enc. of Islam, vol. 1, p. 235) ويبرر تطليقه زوجته بأنه كان منتسباً إلى المذهب اليعقوبى فى عهد كانت كنيسة هذا المذهب على قسط كبير من الانحلال (Lammens, H. : Le Chantre des Omiades p. 37) . فأولى بنا ، مادام الأمر كذلك ، أن نتحفظ فى تقدير العامل الدينى ، ولا نجزم جزم لامانس ، بأن تعفف الأخطل عن الفحش إنما يرجع إلى نصرانيته .

عَرفوا الكتابَ وصدَّقوا بمحمد ورضيتمُ بعبـادة الأوثان

(«ن» ص ٢٠٧ و٢٠٨ ب ٤٨ و٥٠ — ٥٢ و٥٤ — ٥٧)

رجْسٌ يكون إذا صَلَّوا ، أذانُهُم قرعُ النواقيس لا يدرون ما السُّوَر

(«ن» ص ١٧٢ ب ٢٩)

أفبالصَّليبِ ومارِ سَرْجِسَ تتقى شهباء ذاتَ كتائبٍ جُمهورا

(«ن» ص ١٢٥ ب ٢٩)

تَلْقَى الأُخَيْطِلَ فى ركبٍ مَطارِفُهم بُرْقُ العَباء فما حجُّوا ولا اعتَمروا

الضاحكون إلى الخِنْزيرِ شَهْوتَه يا قُبِّحتْ تلك أفواهاً إذا كثروا

(«ن» ص ١٧٦ ب ٥٦ و٥٧)

ما كان يَرْضَى رسولُ الله دينَهمُ والطَّيِّبانِ أبو بكرٍ ولا عُمَر

جاء الرَّسولُ بدينِ الحقِّ فانتكِبوا ولا يَضِيرُ رسولَ الله إنْ كفروا

(«ن» ص ١٧٤ ب ٤٠ و٤١)

فعليكَ جِزْيةُ معشرٍ لم يَشْهدوا واللهِ إنَّ محمدًا لَرسول

تَبِعوا الضلالةَ ناكبين عن الهُدى والتغلبىُّ عن القرانِ ضَلول

يقضِى الكتابُ على الصَّليب وأهلِه ولكلِّ مُنْزَلِ آيةٍ تـأْويل

إن النبوّةَ والخلافةَ والهُدى رَغْمٌ لتغلبَ فى الحياة طويل

خالفتمُ سُبُلَ النبوّةِ فاخضعوا بِجزَى الخليفةِ والذليلُ ذليل

(«ن» ص ١٨٤ ب ٣٣ — ٣٧)

وما كان الأخطل ليجرؤ على أن يعامل جريراً بالمثل ، فهو ذمى محكوم فى بيئة إسلامية لن تقره على التعرض لدينها . فلا جرم إذا أضرب فى فخره عن الاعتزاز بنصرانيته ، وأخلى من هجائه ما يمس شعائر الإسلام. ولا غرو أن يصبح بذلك مقيداً فيما نظم فى ظل الدولة من أهاج ، وأن يقول عمر بن عبد العزيز فى ذلك : « إن الأخطل ضيق عليه كفره القول ، وإن جريراً وسع عليه إسلامه

قوله »[1] ، وأن يعترف بذلك جرير ، فيقول : « أعانتنى عليه خصلتان : كبر سن ، وخبث دين »[2] .

* * *

وكان موقف الأخطل إلى ذلك دقيقاً من جهة « العصبية » ، فقبيلته تغلب من « ربيعة » ، والقيسية وجرير من « مضر » ، والعداء بين الربعية والمضرية قديم يرجع إلى الجاهلية ، والخلافة بعد فى مضر ، فإذا نال من المضرية بعامة أسخط عليه الأمويين وفوت على أطماعه الفرصة فى أن يعقد بهم أسبابه ، وكان خصومه من المضرية على خلاف ذلك لا يبالون أن يعموا فى هجائهم ربيعة جميعاً ماداموا لا يملكون من الأمر شيئاً .

وقد استغل جرير هذا الموقف ، واتخذ من مضريته مادة لفخره ، ومن ربعية الأخطل مادة لهجائه ، فنى مضر النبوة والخلافة ، وبيدها الأمر والسلطان ، وفى تغلب الذل ، وعليها الجزية ، وبدارها الهوان :

إنَّ الذى حَرَم المكارمَ تغلباً جعل الخلافةَ والنبوَّةَ فينا
هل تملكون من المشاعر مَشْعرًا ؟ أو تشهدون مع الأذان أذِينا ؟
مُضَرٌ أبى وأبو الملوكِ ، فهل لكم ياخُزْرَ تغلبَ من أبٍ كأبينا ؟
هذا ابن عمِّى فى دمشقَ خليفةً لو شِئْتُ ساقكمُ إلىّ قَطِينا

(ديوان جرير ص ٥٧٨ و٥٥٩ ب ١٦–١٩)

يا عَبْدَ تغلبَ ما تزال مغلَّبًا فاخْسَأْ بدار مذلَّةٍ وهوان
إنِّى إذا خطرتْ ورائى خِنْدِفى لا يَقْشعرُّ من الوعيد جَنانى
منّا الفوارسُ من غُدانَةَ إنَّهم نِعمَ الحُماةُ عشيّةَ الإرْنان
ما نابَ من حَدَثٍ فليس بمُسْلِمِى عَمْرِى وحَنْظَلَتى ولا السَّعْدان
وإذا بنو أَسَدٍ علىّ تحدَّبوا نَصبتْ بنو أسدٍ لمن عادانى

---

(١) أبوالفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٣٠٦ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٨٥ .

والغُرُّ مِن سَلَفَيْ كِنانَةَ إنَّهم صِيدُ المُلوكِ أعِزَّةُ السلطان

(«ن» ص ٢١٠ – ٢١٢ ب ٦٧ و ٦٨ و ٧٥–٧٨)

إنَّ الذين اجتُبُوا مجدًا ومكرُمةً تِلكُم قريشِيَ والأنصارُ أنصاري

إنِّي امرؤٌ مُضَرِيٌّ في أَرُومتها لن تستطيعَ مُساماتي وأَخْطاري

(«ن» ص ١٤٢ و ١٤٣ ب ١٩ و ٢٢)

إنِّي إذا مضرٌ عليَّ تحدَّبتْ لاقيتَ مطَّلعَ الجبال وُعورا

مُدَّتْ بحورهمُ فلستَ بقاطعٍ بحرًا يَمدّ إلى البحور بحورا

الضاربون على النَّصارَي جِزْيةً وهُدًى لمن تَبِع الكتابَ ونُورا

الله فضَّلَنا وأخزى تغلباً لن تستطيعَ لما قَضى تغييرا

إن الأُخَيْطِل إذ يخاطر خِنْدِفاً لاقَى الهوانَ هناك والتصغيرا

الباعثين برغم آنفِ تغلب في كل منزلةٍ عليك أَميرا

(«ن» ص ١٢٣ و ١٢٤ ب ١٩–٢١ و ٢٣ – ٢٥)

وما كان الأخطل ليجرؤ على أن يتعالى بتغلب على قريش ، وما كان ليجازف بتفضيل ربيعة على المضرية بعامة دون تحديد أو تخصيص ، فالملك كما قال جرير في قريش ، والنبوة والخلافة في مضر ، وليس لربيعة من الأمر شيء . ولقد جمعت الظروف بين الشاعرين في بلاط عبد الملك ، فقال الأخطل : « أنا الذي منعت نومك ، وتهضمت قومك » ، فأفحمه جرير بقوله : « أما منعك نومي ، فلو نمت عنك لكان خيراً لك . وأما تهضمك قومي ، فكيف تهضمهم وأنت ممن ضربت عليه الذلة ، وباء بغضب من الله ، وأدى الجزية عن يد وهو صاغر ؟ وكيف تهضم ، لا أم لك ! ، قوماً فيهم النبوة والخلافة ، وأنت لهم عبد مأمور ، ومحكوم عليه لا حاكم ؟ »[1]. ولعل فيما دار بين الأخطل ورجل من شيبان مايصوِّر الموقف أوضح تصوير . قال الشيباني : «إنك قد هجوت

(١) أبو الفرج : الأغاني ، جـ ٨ ص ٦٢ و ٦٣ .

جريراً ودخلت بينه وبين الفرزدق ، وأنت غنى عن ذلك، ولا سيما أنه يبسط لسانه بما ينقبض عنه لسانك، ويسب ربيعة سباً لا تقدر على سب مضر بمثله، والملك فيهم والنبوة قبله . فلو شئت أمسكت عن مشارته ومهارته»، فقال الأخطل: «صدقت فى نصحك وفهمت مرادك ، وصلتك رحم ! ، فوالصليب والقربان ، لأتخلصن إلى كليب خاصة دون مضر بما يلبسهم خزيه ويشملهم عاره»[1]. وبذلك نرى الأخطل يتخلص فى هجاء جرير إلى كليب دون مضر ، مراعاة لمضرية الخلافة التى يحتمى فى ظلها ويتكلم بلسانها ، وانحصر بذلك فى هذه الدائرة الضيقة ، فى حين اتسع المجال لجرير فى أن يصول ويجول فى هجائه .

ولولا عنصر النزاع بين قيس وتغلب ، ولولا ما كان لتغلب فى الجاهلية من أمجاد ، ولولا عنصر المفاضلة بين جرير والفرزدق، لولا هذه العناصر مجتمعة ، ما استطاع الأخطل أن يصمد فى الهجاء لجرير . فقد كان جرير قوياً بإسلامه ، قوياً بعصبيته فى مضر ، دقيق الحس بمواطن النقص ، بارعاً فى تصيد العيوب ، خصب الخيال فى اختراع الصور المضحكة ، مفتناً فى تهكمه وسخريته ، سهل العبارة فى تصويره[2] . وكان الأخطل على خلاف ذلك، نصرانياً لا يستطيع أن يفيد من دينه لهجائه ، ربعياً لا يستطيع أن يتعالى بربعيته على مضرية قريش، شاعر بلاط لا يليق به أن يجارى خصومه فى الإقذاع والفحش ، وهو إلى ذلك يصطنع الجزالة والوقار فى هجائه ، فألفاظه خشنة كأنها منحوتة من صخر ، وصوره ومعانيه فى جملتها أقرب إلى التأريخ والتقرير منها إلى الافتنان فى العرض ، وأهاجيه بعد ذلك لا تبلغ فى جملتها إلى ما بلغت إليه المدائح من قوة فى البناء ، وبراعة فى التصوير ، وتعدد فى الأغراض والأساليب، فتأخرت بذلك منزلته الفنية فى الهجاء ، وأصبحت عبقريته فى المدائح أوضح بكثير منها فى الأهاجى .

---

(١) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٨٩ .

(٢) محمد حسين : الهجاء والهجاءون فى صدر الإسلام ، ص ١٦٠ – ١٦٣ .

الفصل الثالث

الأخطل بين السابقين والمعاصرين

أقوال القدامى فى شعر الأخطل — أثر الجاهليين فى شعر الأخطل — الأخطل والنابغة الذبيانى — الأخطل وأعشى قيس — الأخطل والشعر الجاهلى — الأخطل فى تأثره بالجاهليين دارس ناقد ذو شخصية — البيئة الأدبية وأثرها فى شعر الأخطل — الخيال والتفكير أوضح ملكات الأخطل — شعر الأخطل بين العاطفة والصنعة — النزعة إلى التصوير هى الطابع العام لشعر الأخطل — الأخطل بين جرير والفرزدق — الفرزدق أشبه بالأخطل فى معدن الشعر والطبع — السبق للأخطل فى المدائح .

كشفنا فى الفصول السابقة عن حياة الأخطل وشعره فى ظل بنى أمية ، فلم يبق لنا بعد ذلك غير أن نبين موقفه من السابقين عليه من شعراء الجاهلية والمعاصرين له من شعراء الإسلام ، على أن نعرض لذلك بالقدر الذى نحتاج إليه فى رسم الخطوط الأخيرة لفنه متصلا بالبيت الأموى .

استطاع الأخطل ، وهو النصرانى المتمسك بنصرانيته ، وفى العصر الأدبى الممتاز الذى أنبت فحول الإسلام ، أن يظفر بتقدير الشعراء والرواة والنقاد . ولقد أجمع القدامى على أنه وجريرًا والفرزدق طبقة واحدة . على أنه لم يقع إجماع على أيهم أفضل ، فكان لكل واحد منهم طبقة تفضله عن الجماعة[1] . وقد جمع بينهم ابن سلام فى طبقة واحدة جعلها أول طبقات الإسلام ، كما جمع بين امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى فى طبقة واحدة جعلها أول طبقات الجاهلية[2] . وهم يحمدون فى الأخطل عنايته بتهذيب شعره وتجويده ، ويذكرون أنه كان إذا اجتمع له تسعون بيتاً يختار منها ثلاثين فيطيرها[3] . وكان يزعم أنه أقام سنة كاملة فى نظم « خف القطين » فلم يبلغ منها ما أراد من مدح

---

(١) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٢٨٢ .

(٢) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٢٠ و ٢٤ .

(٤) أبو الفرج . الأغانى ، جـ ٨ ص ٢٨٤ .

الخليفة[١] . ولهذا أجمع أرباب اللغة وأصحاب النحو على تقديمه ، ففضلوه على جرير والفرزدق بأنه كان أكثر منهما عدد طوال جياد ليس فيها سقط ولا فحش وأشد منهما تهذيباً للشعر [٢] . واعترف جرير بذلك ، فقال : « كان أشدنا اجتراء بالقليل » [٣] .

ولهؤلاء النقاد القدامى لفتات قيمة في تقدير شاعرية الأخطل . فهم قد تنبهوا مثلا إلى أنه يجيد صفة الملوك ، ويصيب نعت الخمر ، وفضله جرير فى ذلك على نفسه وعلى الفرزدق ، فقال : « فأما الأخطل ، فأنعتنا للخمر وأمدحنا للملوك »[٤] . وأكد ذلك الفرزدق ، فقال : « كفاك بابن النصرانية إذا مدح » [٥]. وجمعوا إلى براعته فى المديح إجادته للهجاء ، وأشاروا إلى تعففه فى الهجاء عن الفحش ، وبينوا دقة موقفه فى هجاء خصومه .

وقال مروان بن أبى حفصة :

ولقد هجا فأمضَّ أخطلُ تغلبٍ ⠀⠀ وحَوَى اللُّهَى بمديحه المشهور [٦]

وقال إسحاق بن مرار الشيبانى لابن النطاح : « الأخطل عندنا أشعر الثلاثة » ، فقال : « يقال إنه أمدحهم » ، فقال : « لا والله، ولكن أهجاهم »[٧]. وقال عمر بن شبة : « كان مما يقدم به الأخطل أنه كان أخبثهم هجاء فى عفاف عن الفحش »[٨]. وسأل سليمان بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز عن الأخطل وجرير ، فقال : « إن الأخطل ضيق عليه كفره القول ، وإن جريراً وسع عليه إسلامه قوله ، وقد بلغ الأخطل منه حيث رأيت »[٩] . واعترف جرير لابنه

(١) نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٧ و ٢٨٨ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٣ و ١٩١ و ٢٩٢ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٦ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٨ ص ٧٣ .
(٥) نفس المصدر ، ج ٨ ص ٣٠٦ .
(٦) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٤١ .
(٧) أبو الفرج : الأغانى ، ج ٨ ص ٢٨٧ .
(٨) نفس المصدر ، ج ٨ ص ٣٠٠ .
(٩) نفس المصدر ، ج ٨ ص ٣٠٦ .

بقدرة خصمه على الهجاء ، فقال : « يابنى ، أدركت الأخطل وله ناب واحد ، ولو أدركته وله ناب آخر لأكلنى به ، ولكنى أعانتنى عليه خلصتان : كبر سن ، وخبث دين »[١] .

ويحدثنا الرواة بأن الأخطل كان معجباً بنفسه أشد الإعجاب ، معتزاً بشعره أشد الاعتزاز .

أنشد أبو حية النميرى يوماً أبا عمرو :

يالَـمَعدٍّ ويالَلناسِ كلِّهمِ ويالغَائبهم يوماً ومن شهدا

كأنه معجب بهذا البيت ، فجعل أبو عمرو يقول له : « إنك لتعجب بنفسك كأنك الأخطل »[٢] . وبلغ من اعتداده بشعره أنه لم يعترف لأحد من المعاصرين بالفضل عليه . ويبدو أنه كان مقدراً لما يبذله فى شعره من جهد ، كما كان مقدراً لما لشعراء الجاهلية عليه من فضل . سأله عبد الملك عن أشعر الناس ، فقال : « أنا يا أمير المؤمنين »[٣]. وسأله عمر بن الوليد نفس السؤال ، فقال : « الذى كان إذا مدح رفع ، وإذا هجا وضع » ، قال : « ومن هو؟ » ، قال : « الأعشى » ، قال : « ثم من ؟ » ، قال : «ابن العشرين» (يعنى طرفه) ، قال : « ثم من ؟ » ، قال : «أنا » [٤]. وسئل عن موقفه من الفرزدق وجرير ، فقال : « أنا واللات أشعر منهما » [٥]. وأخبر المدائنى أنه قال : « أشعر الناس قبيلة بنو قيس بن ثعلبة ، وأشعر الناس بيتاً آل أبى سلمى ، وأشعر الناس رجلا فى قميصى »[٦] . وقال له بشر وعنده الراعى : « أنت أشعر أم هذا ؟ » ، فقال : « أنا أشعر منه وأكرم »[٧] . واستنشده داود بن المساور ، فقال :

---

(١) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٨٥ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٩٠ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ١١ ص ٢١ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٩٣ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٨٨ .
(٦) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٨٧ .
(٧) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٩٤ .

« أنشدك حبة قلبي » ، ثم أنشد :

لَعَمْرِي لقد أسريْتُ لاليْلَ عاجزٍ   بساهمةِ الخدّينِ طاويةِ القُرْبِ

فقال داود : « من أشعر الناس ؟ » ، قال : « الأعشى » ، قال : « ثم من ؟ » ، قال : « ثم أنا »[1] . وبلغ من اعتداده بنفسه أنه امتدح هشاماً فأعطاه خمسمائة درهم ، فلم يرضها وخرج فاشترى بها تفاحاً وفرقه على الصبيان[1].

وكان الشعبي يضيق بهذا الاعتداد ، فيذكره بفضل السابقين عليه وبخاصة أعشى قيس ونابغة ذبيان . وقد تحداه الأخطل يوماً ، فقال : « ياشعبي ، فعل الأخطل بأمهات الشعراء جميعاً » ، فقال : « بأي شيء ؟ » ، قال : « حين يقول :

وتظلّ تَنْصِفُنا بها قَرَوِيّةٌ   إبريقُها برِقاعه ملثوم
فإذا تعاورتِ الأكفُّ زجاجَها   نَفحتْ فشمَّ رياحَها المزكوم »

فقال : أشعر منك الذي يقول :

وأدْكنَ عاتقٍ جَحْلٍ رِبَحْلٍ   صَبحتُ براحِه شَرْباً كِراما
من اللائى حُمِلْنَ على المطايا   كريحِ المِسْكِ تَسْتَلُّ الزُّكاما »

فقال : « ويحك ! ومن يقول هذا ؟ » ، قال : « الأعشى ، أعشى بني قيس ابن ثعلبة » ، فقال : «قدوس ! قدوس ! فعل الأعشى بأمهات الشعراء جميعاً وحق الصليب ! »[2]. وسأله عبد الملك وعنده الشعبي : « ويحك ! من أشعر الناس ؟ » فقال : « أنا يا أمير المؤمنين » ، فقال الشعبي : « أشعر منك الذي يقول :

هذا غلامٌ حسنٌ وجهُه   مستقبلُ الخير سريعُ التمام »

---

(١) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٣٠٣ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ٩ ص ١٢٣ .

فقال : « صدق والله يا أمير المؤمنين ، النابغة والله أشعر منى »[١] . وفى رواية أخرى أنه رد على الشعبى ، فقال : « إن أمير المؤمنين إنما سألنى عن أشعر أهل زمانه ، ولو سألنى عن أشعر أهل الجاهلية لكنت حرياً أن أقول كما قلت أو شبيهاً به »[٢].

وتنبه النقاد القدامى إلى تأثر الأخطل بالنابغة الذبيانى وأشاروا إلى التشابه القائم بين أشعارهما ، كما تنبهوا إلى تأثر الأخطل بالشعر الجاهلى بعامة ، وذكروا أنه كان أشد فى ذلك من جرير والفرزدق . قال أبوعبيدة : « وكان أبو عمرو يشبه الأخطل بالنابغة لصحة شعره »[٣]. وقال أيضاً : « الأخطل أشبه بالجاهلية وأشدهم أسر شعر وأقلهم سقطاً »[٤]. وقال ابن قتيبة : « وكان الأخطل يشبه من شعراء الجاهلية بالنابغة الذبيانى »[٥] .

على أن هؤلاء النقاد ، وإن كانوا قد تنبهوا إلى ذلك ، فهم لم يعنوا بتتبعه واستقصائه ، ولم يعقدوا الموازنات التى تبين مداه وتلم أطرافه . وما أكثر ما نقع لهؤلاء النقاد على النقد اللمّاح المركز الذى يكتفى بالإشارة عن التفصيل ، ويتجه إلى الإيجاز والتركيز أكثر مما يتجه إلى تحليل النصوص تحليلا يقف على خصائصها الدقيقة . نقع لهم على هذا اللون من النقد حين يقابلون بين الأخطل والسابقين ، أو حين يقابلون بينه وبين المعاصرين ، ونرى شعراء الإسلام أنفسهم يتجهون فى تقدير الشعر هذا الاتجاه ، فيكتفون فى ذلك بالإشارة الدالة واللمحة المعبرة .

سأل معاوية بن أبى عمرو بن العلاء محمد بن سلام : « أى البيتين عندك أجود ، قول جرير :

ألستم خيرَ من ركب المطايا وأندى العالَمِينَ بطونَ راحِ ؟

---

(١) نفس المصدر ، جـ ١١ ص ٢١ و ٢٢ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ١١ ص ٢٠ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٨٦ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٩٢ .
(٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ص ١٨٩ .

أم قول الأخطل :

شُمْسُ العداوةِ حتى يُسْتقادَ لهم وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدروا ؟ »

فقال : « بيت جرير أحلى وأسير ، وبيت الأخطل أجزل وأرصن » ، فقال : « صدقت . وهكذا كانا فى أنفسهما عند الخاصة والعامة »[١] .

وقال الأخطل للفرزدق : « والله إنك وإياى لأشعر منه ، ولكنه أوتى من سير الشعر مالم نؤته . قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحداً قال أهجى منه ، قلت :

قومٌ إذا استَنْبح الأضيافُ كلبَهُمُ قالوا لأمهم : بُولِى على النار !

فلم يروه إلا حكماء أهل الشعر ، وقال هو :

والتغلبىُّ إذا تنحنح للقِرَى حكَّ استَه وتمثَّل الأمثالا

فلم تبق سقاة ولا أمثالها إلا رووه »[٢] .

وأنشد عبد الملك قول كثير فيه :

فما تركوها عَنْوةً عن مودَّةٍ ولكن بحدِّ المَشْرَفىِّ استقالها

فأعجب به ، فقال له الأخطل : « ماقلت لك يا أمير المؤمنين أحسن منه » ، قال : « وما قلت ؟ » ، قال : « قلت :

أهلُّوا من الشهرِ الحرامِ فأصبحوا موالِىَ مُلْكٍ لاطريفٍ ولا غصب

جعلته لك حقًّا ، وجعلك تأخذه غصباً » ، قال : « صدقت »[٣] .

وإذا كان القدامى قد فطنوا إلى الأغراض الشعرية التى يجيد فيها الشاعر ، أو إلى الغرض الذى انصرف إليه وبرع فيه ، فهم لم يفصلوا القول فى مواطن هذه الإجادة ، واكتفوا فى ذلك بالبيت الواحد يرون به الشاعر أشعر العرب أو أمدح

---

(١) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٣٠٥ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٣١٨ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٨٨ .

الناس أو أهجى الشعراء ، وقد يتناولون البيتين أو الثلاثة ، وهذا فى القليل النادر.

فالأخطل أهجى الشعراء بقوله :

ونحنُ رفعنا عن سَلُولٍ رماحَنا وعمْدًا رغبنا عن دماء بنى نصر[1]

وهو أمدح الشعراء بقوله :

شُمْسُ العداوةِ حتى يُستقادَ لهم وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدروا[2]

والأخطل نفسه يقول: « فضلت الشعراء فى المديح والهجاء والنسيب بما لايلحق بى فيه . فأما النسيب ، فقولى :

ألا يا اسْلمِى يا هندُ هندَ بنى بَدْرِ وإن كان حيّانا عِدًى آخر الدهر

من الخَفِرات البيضِ ، أمّا وِشاحُها فيجرى ، وأما القلبُ منها فلا يجرى

تموت وتحيا بالضجيع ، وتَلتوِى بمطّرد المتنين مُنبَتِرِ الخَصْر

وقولى فى المديح :

نفسى فداءُ أميرِ المؤمنين إذا أبدى النَّواجذَ يوماً عارمٌ ذكر

الخائضُ الغمرةِ ، الميمونُ طائرهُ خليفةُ الله ، يُسْتَسقَى به المطر

وقولى فى الهجاء :

وكنتَ إذا لقيتَ عبيدَ تَيْمٍ وتيماً ، قلتَ : أيُّهمُ العبيد ؟

لئيمُ العالَمِين يسود تيماً وسيدُهم ، وإن كرِهوا ، مَسود »[3]

على أن فريقاً من النقاد لم يعترف للأخطل بهذه المنزلة التى كان يرفع نفسه إليها ، ويعترف له بها المعجبون به من الرواة والعلماء . سأل ابن سلام بشاراً العقيلى

---

(١) نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٧ .

(٢) ابن رشيق : العمدة ، ج ٢ ص ١٣٢ .

(٣) أبو الفرج : الأغانى ، ج٨ ص ٢٩٧ و ٢٩٨ .

عن الثلاثة ، فقال : « لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه »[١] . وقال أبو الفرج : « فأما قدماء أهل العلم والرواة ، فلم يسووا بينهما وبين الأخطل ، لأنه لم يلحق شأوهما في الشعر ، ولا له مثل ما لهما من فنونه ، ولا تصرف كتصرفهما في سائره ، وزعموا أن ربيعة أفرطت فيه حتى ألحقته بهما »[٢]. وقال أيضاً : « وهو ، وإن كان له فضله وتقدمه ، فليس نجره من نجار هذين في شيء »[٣] . وبالغ بشار بن برد في الحط من شأنه ، فقال : « والله ما كان الأخطل مثل جرير والفرزدق ، ولكنهما كانا من مضر ، فكرهت ربيعة ألا يكون منها مثلهما ، فتعصبت له ، ورفعت منه . ولقد كان يجتمع هو وجماعة من قومه على شرابهم ، فيقول هذا بيتين ويقول هو الأكثر ، ويختار الأخطل حتى تجتمع قصيدة ، فيبعث بها إلى جرير »[٤] .

وعني بعضهم بتتبع سقطاته ، واتهموه بالإغارة على شعر القدامى ، فقد مدح سماكاً الأسدي ، وقومه يلقبون القيون ، فقال :

قد كنت أحسَبُه قَيْنًا وأنْبَؤه فاليومَ طُيِّر عن أثوابه الشرر

فقال سماك : « يا أخطل ، أردت مدحي فهجوتني ، كان الناس يقولون قولا فحققته »[٥] . وفي رواية أخرى أنه قال : « أبا مالك ، كان هذا نبزا ننبز به ، فأردت نفيه عنا فأثبته علينا »[٦]. وهجا سويداً السدوسي ، فقال :

وما جِذْعُ سَوْءٍ خرَّق السُّوسُ جوفَه لِما حمَّلتْه وائلٌ بمُطيق

فقال سويد : « يا أبا مالك ، لا والله ماتحسن تهجو ولا تحسن تمدح ، بل تريد الهجاء فيكون مديحاً ، وتريد المديح فيكون هجاء. قلت لي وأنت تريد

---

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٣٩ .
(٢) أبو الفرج : الأغاني ، ج ١٩ ص ٤٨ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٨ ص ٤ .
(٤) المرزباني : الموشح ، ص ١٣٨ و ١٣٩ .
(٥) أبو الفرج : الأغاني ، ج ٨ ص ٣١٢ .
(٦) المرزباني : الموشح ، ص ١٣٦ .

هجائى « لما حملته وائل بمطيق » ، فجعلت وائل حملتنى أمورها ، وما طمعت فى ذلك من بنى ثعلبة فضلا عن بكر بن وائل ، ومدحت فى نفسك سماك بن عمير أخا بنى أسد ، وأردت أن تنفى عنه شيئاً ، فحققته عليه »[١] . وأخذوا عليه قوله فى هجاء قيس :

وثائرُ قيسٍ لا ينام ولا يَنى وإنْ لا يَجِدْ إلا العَشِيمةَ يَغْشِم

فقالوا : « جزى أبو مالك خيراً ، فقد بالغ فى المديح »[٢]. وذكروا أنه لما أنشد عبد الملك : « خف القطين فراحوا منك أو بكروا » ، تطير منه الخليفة ، وقال : « بل منك ، لا أم لك ! » ، فعدل الأخطل ، فقال : « فراحوا اليوم أو بكروا »[٣] .

واتهموه بالسرقة من الشعر القديم ، ورووا أنه كان يقول : « نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة »[٤]. وذكروا أنه أنشد ابن بشير المدينى قصيدته « صرمت حبالك زينب ورعوم » ، فلما انتهى إلى قوله :

حتى إذا أخذ الزجاجَ أكفُّنا نفحتْ فأدرك ريحَها المزكوم

قال : « ألست تزعم أنك تبصر الشعر؟ » ، قال : « بلى » ، قال : فكيف لم تشق بطنك فضلا عن ثوبك عند هذا البيت؟ » ، قال : « قد فعلت عند البيت الذى سرقت هذا منه » ، قال : « وما هو؟ » ، قال : « بيت الأعشى :

من خمر عانةَ ، قد أتى لختامها حَوْلٌ ، تفضُّ غمامةَ المزكوم »

فقال : « أنت تبصر الشعر »[٥]. وروى التوزى أن رجلين ، أحدهما من قيس ثعلبة والآخر من تغلب ، اختصما إلى رجل من النمر بن قاسط فى هذين

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٣٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٤٢ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٤١ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٣٩ .

البيتين ، فقال : « والله ماسوى بينهما ، إنما جعلها الأخطل ينال المزكوم رياحها ، وجعلها الآخر تستل زكامه »[1] .

هذه خلاصة آراء القدامى فى شعر الأخطل ، وهى كما نرى أحكام قصيرة مركزة لم يقصد بها أصحابها إلى الدراسة المستفيضة الشاملة ، أو يعنوا فيها بالتحليل المفصل الذى تنكشف فيه خصائص الشاعر وتستبين به مقومات فنه ، أو يهتم فيها بتتبع التيارات المختلفة التى تأثر بها شعره . وإذا كان البحث الحديث ينظر إلى بعض هذه الأقوال بعين الاعتبار ، فإنه يرى فى الاكتفاء بها نقصاً فى فهم الشاعر ومعرفة خصائصه وتقدير منزلته . وهذا ماحاولناعلاجه فى الفصلين السابقين ، وما نحاوله أيضاً فى هذا الفصل ، إذ نعرض لبيان منزلة الأخطل بين السابقين عليه من شعراء الجاهلية والمعاصرين له من شعراء الإسلام .

* * *

لا يسع من يتأمل شعر الأخطل غير أن يعترف بأن النقاد القدامى كانوا على حق حين فطنوا إلى تأثره بالشعر الجاهلى . فلم يكن الأخطل من المطبوعين الذين ينظمون أشعارهم عفو الخاطر ، بل كان من هذا الصنف الدارس الناقد الذى يستغرق منه الإنتاج وقتاً طويلا يعود عليه فيه بالتنقيح والتهذيب ، حتى يستوى فى نظره قطعة فنية تعجب وتروق بما فيها من دقائق الفن وإحكام الصنعة ، وقد رأى فى روائع الشعر الجاهلى حقلاً خصباً يجرى فيه تجاربه الفنية ، فأفاد منها فى نظم أشعاره ، وتأثر بها فى الأسلوب ، كما تأثر بها فى الموضوع .

وكان معجباً بالنابغة أشد الإعجاب ، فترسم خطاه ، وتأثر به فى بعض صوره وألفاظه ، كما تأثر به فى بعض معانيه وأساليبه .

ويكفى أن نقابل بين رائيته فى يزيد :

تغيَّر الرسمُ من سَلْمى بأحفار وأقفرتْ من سُلَيمى دِمْنةُ الدار

(ص ١١٢ – ١٢٠)

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

ورائية النابغة :

عُوجوا فحيّوا لنُعْم دمنةَ الدار ماذا تحيّون من نُؤْيٍ وأحجار

(جمهرة أشعار العرب ، ص ٧٧ – ٨٦ ؛ العقد الثمين ، ص ١٦٩ – ١٧١)

لنرى هذا التأثر ممثلا أصدق تمثيل . فكلتا القصيدتين على روى واحد ، ومن بحر واحد ، وبعض الصور والألفاظ تكاد تكون واحدة فى مشهد الثور :

النابغة :

مُجرّسٌ وَحَدٌ جَأْبٌ أطاع له نباتُ غَيثٍ من الوَسْمىّ مِبْكار

(ب ٣٠)

الأخطل :

أو مُقْفرٌ خاضبُ الأظلافِ جاد له غيثٌ تَظاهر فى مَيْثاء مِبْكار

(ب ١١)

النابغة :

وبات ضيفاً لأرْطاةٍ وألجأه مع الظلام إليها وابلٌ سار

(ب ٣٤)

الأخطل :

فبات فى جنبِ أرْطاةٍ تُكفّئُه ريحٌ شآمِيَةٌ هبّتْ بأمطار

(ب ١٢)

النابغة :

باتت له ليلةٌ شهباءُ تضربه منها مَخاشِبُ شَفّانٍ وأمطار

(ب ٣٢)

الأخطل :

يجول ليلتَه والعَيْنُ تضربَه منها بغيثٍ أجشِّ الرعد نيّار

(ب ١٣)

النابغة :

سَراتُه ماخلا لبَّاتِه لَهَقٌ   وفى القوائم مثلُ الوَشْمِ بالقار
(ب ٣١)

الأخطل :

أما السَّراةُ فمن ديباجةٍ لَهَقٍ   وبالقوائم مثلُ الوَشْمِ بالقار
(ب ١٦)

النابغة :

حتّى إذا ما انجلت ظلماءُ ليلتِه   وأسفر الصبحُ عنه أىَّ إسفار
(ب ٣٤)

الأخطل :

حتّى إذا انجاب عنه الليلُ وانكشفتْ   سماوُه عن أديمٍ مُصْحِرٍ عار
(ب ١٧)

النابغة :

أهْوَى له قانِصٌ يسعى بأَكلُبِه   عارِي الأَشاجعِ مِن قُنّاص أنمار
(ب ٣٥)

الأخطل :

آنسنَ صوتَ قَنيصٍ إذْ أَحسَّ بهم   كالجِنِّ يَهْفُون من جَرْمٍ وأنمار
(ب ١٨)

النابغة :

مُحالفُ الصَّيْدِ هَبّاشٌ له لَحَمٌ   ما إن عليهِ ثيابٌ غيرُ أطمار
(ب ٣٦)

الأخطل : (مقطع الخمر)

في بيت منخرقِ السِّربالِ معْتَمِلٍ ما إن عليه ثيابٌ غيرُ أطمار
(ب ٣٧)

النابغة :

انقض كالكوكبِ الدُّرِّيِّ مُنْصَلتاً يَهوِي ويَخلِطُ تقريباً بإحضار
(ب ٤٥)

الأخطل :

فانصاع كالكوكبِ الدُّرِّيِّ مَيْعَتُهُ غضبانَ يَخلِطُ من مَعْجٍ وإحضار
(ب ١٩)

وترسم الأخطل إلى ذلك خطا النابغة فيما عقده من استدارات في معرض التوكيد ، كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول من هذا الباب[1] . فقد كان النابغة ، منذ غضب عليه النعمان بن المنذر ، لا يفتأ يعتذر إليه في مدائحه ، مبرئاً نفسه من التهم التي ألصقت به ، مستعيناً على توكيد إخلاصه وولائه بالأقسام يقدمها بين يدي مدحه واعتذاره .

من ذلك قوله :

فلا لَعَمْرُ الذي مسَّحْتُ كعبتَه وما هُرِيقَ على الأنصابِ من جَسد
والمُؤْمنِ العائذاتِ الطيرَ تَمْسحُها رُكبانُ مكةَ بين الغَيْلِ والسَّعَد
ما قلتُ من سَيِّءٍ مما أُتِيتَ به إذًا فلا رَفعتْ سَوْطِي إليَّ يدي
(العقد الثمين ، ص ٧ و ٨ ب ٣٧ – ٣٩)

وقوله :

حلفتُ فلم أترِكْ لنفسك رِيبةً وهل يأثَمَنْ ذو أُمَّة وهو طائع
بمُصْطحِباتٍ من لَصافٍ وثَبْرةٍ يَزُرْنَ إلالاً سيرُهنَّ التدافع

(١) انظر ص ١٨١ و ١٨٢ .

سَمامًا تبارى الريحَ خُوصاً عيونُها ... لهنّ رَذايا بالطريق ودائـع
عليهنّ شُعْثٌ عاملون لحجِّهم ... فهنّ كأطراف الحَنِىِّ خواضع
لكلَّفْتنى ذنبَ امرىءٍ وتركتَه ... كذى العُرِّ يُكوَى غيرُه وهو راتع

(العقد الثمين ، ص ١٩ ب ٢١ — ٢٥)

وقوله :

حلفتُ يميناً غيرَ ذى مَثْنَوِيَّةٍ ... ولا عِلْمَ إلا حُسْنُ ظَنٍّ بصاحب
لئنْ كان للقبرَيْن قبرٍ بجِلَّقٍ ... وقبرٍ بصَيْداءَ الذى عند حارِب
وللحارثِ الجَفْنِىِّ سيدِ قومِه ... لَيَلْتمِسَنْ بالجيش دارَ المُحارب

(العقد الثمين ، ص ٢ ب ٥ — ٧)

وقوله :

فآليتُ لا آتِيكَ إن جئتُ مجرماً ... ولا أبتغى جارًا سواكَ مجاوِرا

(العقد الثمين ، ص ١٢ ب ١١)

فلما اتصل الأخطل بالأمويين ، وقف الوشاة له بالمرصاد ، وأخذوا يدسون له عند البيت الأموى ، فاضطر إلى أن يبرئ ساحته ، ويؤكد إخلاصه ، ويبعد عن ولائه الشبهات . ورأى أستاذه النابغة قد اتخذ من الأقسام وسيلة إلى ذلك ، ومن الاستدارة أسلوباً فنيًّا لموضوعه ، فانتهج نهجه وسلك سبيله ، وأربى عليه فى ذلك ، حتى أصبحنا نعد له من هذا النوع من الاستدارة أكثر مما نعد للنابغة . ويكفى أن نقابل بين أقسام النابغة هنا وأقسام الأخطل فى الفصل الأول من هذا الباب[1] ، لنرى بوضوح أن الأخطل كان يقتفى خطا النابغة فى هذا الأسلوب .

وكما تأثر الأخطل بالنابغة فى هذه الأقسام ، فقد تأثر به أيضاً ، كما تأثر بالأعشى ، فيما عقده من استدارات فى معرض المفاضلة . وقد كلف الأعشى

---

(١) انظر ص ١٥٨ و ١٥٩ .

بهذا النوع من الاستدارة كلفاً شديداً وصور بها طائفة من المعانى فى مدائحه .

فإذا نوه بكرم الممدوح اتخذ من فيضان النهر مادة لها :

وما مُجاورُ هِيتٍ إن عرضْتَ له ... قد كاد يسمو إلى الجُرْفَين واطَّلعا
يَجيش طُوفانُه إذ عَبَّ محتفِلا ... يكاد يعلو رُبِي الجُرْفَين مطَّلِعا
طابتْ له الريحُ وامتدَّتْ غواربُه ... ترى حوالبَه من موجِه تَرعا
يوماً بأجْودَ منه حين تسألُه ... إذ ضَنَّ ذو المال بالإعطاء أو خَدعا

(الصبح المنير ، ص ٨٦ ب ٥٨ – ٦١)

وإذا أشاد بشجاعته اتخذ من قوة الأسد مادة لها :

ما مُشْبِلٌ وَرْدُ الجَبِيـ ... ـنِ مُهَرَّتُ الشِّدْقَين باسِلْ
القادِسِيَّةُ مَألَفٌ ... منـه فأوْدِيةُ العَيـاطِل
يَدَعُ الوِحادَ من الرجا ... لِ ويَحْتَمِى جَمْعَ المحافل
يوماً بأصدقَ حَمْلةً ... منه على البطل المُنـازِل

(الصبح المنير ، ص ٢٢١ ب ١٤ – ١٧)

وإذا امتدح تقواه اتخذ من تبتل الراهب مادة لها :

وما أيْبُلِيٌّ على هَيْكلٍ ... بناه وصلَّبَ فيه وصارا
يُراوِحُ من صلواتِ المليـ ... ـكِ طوراً سُجوداً وطوراً جُؤارا
بأعظمَ منه تُقًى فى الحساب ... إذا النَّسماتُ نَفضْنَ الغبارا

(الصبح المنير ، ص ٤٠ و٤١ ب ٦٢ – ٦٤)

وإذا تغنى بجمال المحبوب اتخذ من جمال الروضة مادة لها :

ما روضةٌ من رياض الحَزْنِ مُعْشِبةٌ ... خضراءُ جاد عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يُضاحِك الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ ... مُؤزَّرٌ بعَمِيمِ النَّبْتِ مكتهِل
يوماً بأطيبَ منها نَشْرَ رائحةٍ ... ولا بأحسنَ منها إذْ دنا الأُصُل

(الصبح المنير ، ص ٤٣ ب ١٤ – ١٦)

فتنوعت بذلك مواد استداراته بتنوع المعانى التى هو بسبيل تصويرها ، وغدت مدائحه متميزة أشد التميز بهذا النوع من الاستدارة عن غيرها من مدائح الجاهلية ، وأصبحنا نعد له من هذا الأسلوب اثنتى عشرة استدارة [١] ، فى حين لانظفر فى شعر النابغة بغير الاستدارة التالية :

فما الفُراتُ إذا هَبَّ الرياحُ له ترمِى غواربُه العِبْرَيْنِ بالزَّبَد
يُمِدُّه كلُّ وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ فيه رُكامٌ من اليَنْبُوتِ والخَضَد
يَظَلُّ من خوفِه الملاَّحُ معتصماً بالخَيْزُرانةِ بعدَ الأَيْنِ والنَّجَد
يوماً بأَجودَ منه سَيْبَ نافلة ولا يَحُول عطاءُ اليومِ دونَ غد

(العقد الثمين ، ص ٨ ب ٤٤ — ٤٧)

وإذا كان الأخطل لم يكثر من الاستدارة فى معرض المفاضلة إكثار الأعشى ، ولم ينوع فيها تنويعه ، فإن هذا القليل الذى أنشأه منها ، وأوردناه فى الفصل الأول من هذا الباب [٢] ، قد تأثر فيه بالأعشى تأثراً واضحاً وبالنابغة تأثراً محدوداً .

وكما تأثر الأخطل بالأعشى فى هذه الاستدارات ، فقد تأثر به أيضاً فى الخمريات . والرواة متفقون على أنه كان معجباً بخمريات الأعشى إعجاباً شديداً ، وأنه كان مقدراً لشعره رافعاً من شأنه إذا ذكر الشعر الجاهلى ودار الحديث حول فحوله [٣] . وقد تعلق الأعشى بالخمر ، كما تعلق بها غيره من شعراء الجاهلية ، وأربى محصوله فى وصفها والتغنى بها على ما أنتجوه فيها من شعر . ولو جمعنا ماقالوه فى كفة ، ثم قابلناه بما قاله ، لرجحت كفته عليهم رجحاناً كبيراً . وكان الأخطل فى حياته الخاصة مولعاً هو الآخر بشربها ، وكان يرى فيها مصدراً للإلهام الشعرى ، حتى إنه نصح المتوكل الليثى أن يصيب منها ليجود شعره . وكان لاينفك

---

(١) الصبح المنير ، ص ٢٤ و ٣١ و ٣٩ و ٤٠ و ٤١ و ٤٣ و ٧٢ و ٨٦ و ١٣٢ و ١٣٣ و ٢٠٣ و ٢٢١ .

(٢) انظر ص ١٥٥ — ١٥٧ .

(٣) أبوالفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٢٩٣ ، ٢٨٧ ، ٣٠٣ ؛ جـ ٩ ص ١٢٣ .

عن تعاطيها فى بادية أو حاضرة ، فإذا نزل بالكوفة نادم شبابها فى حاناتها ، وإذا نزل بدمشق سكر فى منزل ابن سرجون كاتب عبد الملك ، فإذا لم يقنع بذلك انطلق إلى الحانات يعب من خمرها [١] . وكان نصرانياً لا يرى حرجاً فى التغنى بها ، فوصفها فى شعره ، وصور مجالسها وقوة تأثيرها ، وأفاد ممن سبقوه فى ذلك ، وتأثر بالأعشى خاصة [٢] ، واستمد من شعره لفنه ، وحور فى صوره ، فزاد وأجاد .

ويكفى أن نقابل بين بعض الأبيات هنا وهناك لنرى مظهراً لتأثره بالأعشى فى الخمريات .

الأعشى :

تَحْسبُ الزِّقَّ لديهـــا مُسْنَدًا   حَبشيًّا نام عَمْدًا فانبطح

(الصبح المنير ، ص ١٦٣ ب ٤٢)

الأخطل :

أناخوا فجرّوا شاصياتٍ كأنَّها   رجالٌ من السُّودانِ لم يتسربَلوا

(ص ٣ ب ١١)

الأعشى :

من خمرِ عانةَ قد أَنَى لِخِتامِها   حَوْلٌ تَسُلُّ غمامةَ المزكومِ

(الصبح المنير ، ص ٢٥٨ ب ٢)

الأخطل :

وإذا تعاورتِ الأكفُّ زجاجَها   نفحتْ فشمَّ رياحَها المزكومُ

(ص ٨٥ ب ١٥)

الأعشى :

فترى إبريقَهم مُسترْعِفاً   بشَمولٍ صُفِّقَتْ من ماء شَنْ

(الصبح المنير ، ص ٢٢٨ ب ٢٠)

---

(١) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٢) محمد حسين : صناجة العرب أعشى قيس ، « مخطوط » .

الأخطل :

تَدْمى إذا طَعنوا فيها بجائفةٍ فوق الزجاجِ عتيقٌ غيرُ مُسْطار

(ص ١٤٨ ب ٤١)

الأعشى :

وإذا غاضتْ رَفعْنا زقّنا طَلِقَ الأوْداجِ فيها فانسَفَح

(الصبح المنير ، ص ١٦٢ ب ٤٠)

الأخطل :

سُلافةٍ حَصلتْ من شارفٍ خَلَقٍ كأنّما ثار منها أبْجَلٌ نَعِر

(ص ٢٥١ ب ٤)

الأعشى :

كأنَّ شُعاعَ قَرْنِ الشمسِ فيها إذا ما فَتَّ عن فِيها الخِتاما

(الصبح المنير ، ص ١٣٥ ب ٢٢)

الأخطل :

فجاء بها كأنّما فى إنائِه بها الكوكبُ المِرِّيخُ تصفو وتُزْبِد

(ص ٣٢٧ ب ٦)

الأعشى :

يُؤَمِّل أن تكونَ له ثراءً فأغلَق دونَها وغَلا بِسواما

(الصبح المنير ، ص ١٣٥ ب ٢٠)

الأخطل :

إذا أقول تَراضَيْنا على ثَمَنٍ ضَنَّتْ بها نفسُ خَبٍّ البيعِ مِكار

(ص ١٤٨ ب ٣٨)

الأعشى :

وكأسٍ كعَيْنِ الدِّيكِ باكرتُ حدَّها بفِتْيانِ صِدْقٍ والنواقيسُ تُضْرَب

(الصبح المنير ، ص ١٣٧ ب ١٣)

الأخطل :

وكأسٍ مثلِ عَيْنِ الدّيكِ صِرْفٍ تُنَسّى الشاربِينَ لها العُقولا

(الأغانى ، جـ ٨ ص ٢٩٦)

ولم يقتصر تأثر الأخطل فى وصف الخمر على الأعشى ، فتأثر فى بعض صوره بامرئ القيس ، وحسان بن ثابت ، وعدى بن زيد .

امرؤالقيس :

وكأنَّ شاربَها أصاب لسانَه مُومٌ يُخالِط خَبْلَه بعِظام

(العقد الثمين ، ص ١٥٧ ب ١١)

الأخطل :

وكأن شاربَها أصاب لسانَه من داءِ خَيْبَرَ أو تِهامةَ مُوم

(ص ٨٥ ب ١٦)

امرؤ القيس :

وأخِى إخاءٍ ذى محافَظةٍ سَهْلِ الخَليقةِ ماجدِ الأصْل

حُلْوٍ إذا ما جئتُ قال ألا فى الرَّحْب أنتَ ومَنْزِلِ السَّهْل

نازعْتُهُ كأسَ الصَّبُوحِ ولمْ أجْهلْ مُجِدَّةَ عِذْرة الرَّجْلِ

(العقد الثمين ، ص ١٤٥ ب ١٧ — ١٩)

الأخطل :

وشاربٍ مُرْبحٍ بالكأس نادمَنى لا بالحَصُور ولا فيها بَسوّار

نازعْتُه طَيِّبَ الرّاحِ الشَّمُولِ وقد صاح الدَّجاجُ وحانت وقعةُ السارى

(ص ١١٦ب ٢٨ و ٢٩)

امرؤ القيس :

فظلِلْتُ فى دِمَنِ الدِّيار كأنّنى نَشْوانُ باكَرَه صَبُوحُ مُدام

(العقد الثمين ، ص ١٥٧ ب ٩)

الأخطل :

كأنّني شاربٌ يومَ اسْتُبِدَّ بهم   من قَرْقَفٍ ضَمِنتْها حِمْصُ أو جَدَر

(ص ٩٨ ب ٢)

حسان :

تَدِبُّ فى الجسمِ دَبِيبًا كما   دَبَّ دَبَى وَسْطَ رَقَاقٍ هَيَام

(ديوان حسان ، ص ٣٨١ ب ١١)

الأخطل :

تَدِبُّ دَبِيبًا فى العظامِ كأنّه   دبيبُ نِمالٍ فى نَقًا يتهيَّل

(ص ٤ ب ١٧)

حسان :

ولقد شَرِبْتُ الخَمْرَ فى حانُوتِها   صَهْباءَ صافيةً كطَعْمِ الفُلْفُل

(ديوان حسان ، ص ٣١١ ب ١٧)

الأخطل :

ولقد شَرِبْتُ الخَمْرَ فى حانُوتِها   ولعِبْتُ بالقَيْنَاتِ كلَّ المَلْعَب

(ص ٢٧ ب ٢)

عدى :

كأنَّ رِيحَ المِسْكِ فى كأسِها   إذا مَزَجْناها بماءِ السَّما

(شعراء النصرانية ، ص ٤٧١ ب ٢)

الأخطل :

كأنّما المِسْكُ نُهْبَى بين أرْحُلِنا   مما تَضوّعَ من ناجُودِها الجارى

(ص ١١٩ ب ٤٢)

وتأثر الأخطل إلى ذلك بالجاهليين فى الوقوف بالأطلال والتشبيب بالنساء ووصف الظعن وارتحال الركب ، وتأثر بهم أيضاً فى وصف السحاب والمطر والبرق ، وفى وصف الناقة والاستطراد منها إلى وصف الحمار أو الثور ، كما تأثر بهم فى بناء

القصيدة واصطناع الحركة فى تصويره .

كعب :

بانَتْ سُعادُ فقلْبِى اليومَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكبُول

(جمهرة أشعار العرب ، ص ٣٠٨ ب ١)

الأخطل :

بانَتْ سُعادُ فَفِى العَيْنينِ مُلْمول من حبِّها وصحيحُ الجسمِ مخبول

وإن تناسيتُها أو قلتُ قد شحَطتْ عادتْ نواشِطُ منها فهْو مكبول

(ص ١٢ ب ١ و ٢)

كعب :

من كلِّ نَضَّاخَةِ الذِّفْرَى إذا عَرِقتْ عُرْضَتُها طامِسُ الأعلامِ مَجْهول

(جمهرة أشعار العرب ، ص ٣٠٩ ب ١٦)

الأخطل :

قَنْواءَ نَضَّاخَةِ الذِّفْرَى مفرَّجةٍ مِرْفَقُها عن ضُلوعِ الزَّوْرِ مَفْتول

(ص ١٣ ب ١٢)

كعب :

يَوْمًا يَظَلُّ به الحِرْباءُ مُصْطخِدًا كأنَّ ضاحِيَهُ بالشمس مَمْلول

(جمهرة أشعار العرب ، ص ٣١٠ ب ٢٩)

الأخطل :

وظَلَّ حِرْباؤُها للشمس مُصْطخِدًا كأنَّه وارمُ الأَوْداجِ مختَنِق

(ص ٢٦٠ ب ١٦)

طرفة :

كقَنْطرةِ الرُّومىِّ أقْسَمَ ربُّهــا لَتُكْتَنفَنْ حتى تُشادَ بقَرْمَد

(العقد الثمين ، ص ٥٥ ب ٢٢)

الأخطل :

كأنها بُرْجُ رُومِىٍّ يُشَيِّدُه　　　لُزٌّ بجصٍّ وآجُرٌّ وأحجار

(ص ١١٣ ب ١٠)

علقمة :

هلْ تُلْحِقَنِّى بأُولَى القَوْمِ إذْ شَحَطُوا　　　جُلْذِيَّةٌ كأتانِ الضَّحْلِ عُلْكوم

(العقد الثمين ، ص ١١١ ب ١٥)

الأخطل :

بِحُرَّةٍ كأتانِ الضَّحْلِ أَضْمَرَها　　　بعدَ الرِّبالةِ تَرْحالى وتَسْيارى

(ص ١١٣ ب ٨)

امرؤ القيس :

كأنَّ بها هرًّا جنيبًا تجرُّه　　　بكلِّ طريقٍ صادفتْه ومأزِق

(العقد الثمين ، ص ١٤١ ب ١٠)

الأخطل :

كأنما يَعْتريها كلَّما وخَدتْ　　　هِرٌّ جَنِيبٌ به مسٌّ من الكَلَب

(ص ١٨٦ ب ٢٩)

امرؤ القيس :

إلى عِرْقِ الثَّرَى وشَجتْ عُروقى　　　وهذا الموتُ يسلُبُنى شبابى

ونفسِى سَوْفَ يَسْلُبُنى وجِرْمِى　　　ويُلْحِقُنى وَشِيكًا فى التراب

وأعلمُ أنَّنى عما قليلٍ　　　سأنْشَبُ فى شَبَا ظُفُرٍ وناب

(العقد الثمين ، ص ١٢٠ ب ٤ و ٥ و ١٢)

الأخطل :

ونفسُ المرءِ تَرْصُدها المنايا　　　وتَحْذُر حولَه حتى يُصابا

إذا أمَرتْ به ألقتْ عليه　　　أحدَّ سلاحِها ظُفُرًا ونابا

وأعلمُ أنّى عمّـا قليـلٍ ستكسونى جنـادلَ أو تـرابا
(ص ٥٥ ب ٢٨ – ٣٠)

النابغة :

نظرتْ بمُقْلةِ شـادنٍ مُتربِّبٍ أحْوَى أحَمِّ المُقْلَتَيْنِ مُقَلَّدِ
(العقد الثمين ، ص ١٠ ب ٩)

الأخطل :

تَرْنو بمُقْلةِ جُؤذَرٍ بخميـلةٍ وبمُشْرِقٍ بَهِجٍ وجِيـدِ غزال
(ص ٣٢٢ ب ٩)

الأعشى :

غَرّاءُ فَرْعاءُ مصقولٌ عَوارضُهـا تَمْشى الهُوَيْنَى كما يَمْشى الوجِى الوحِل
(الصبح المنير ، ص ٤٢ ب ٢)

الأخطل :

غَرّاءُ فَرْعاءُ مصقولٌ عَوارِضُها كأنَّها أحْوَرُ العينَيْنِ مَكحُول
(ص ١٣ ب ٩)

الأعشى :

وقد قالتْ قُتَيْلَةُ إذ رأتْنِى وقـد لا تَعدَم الحسناءُ ذَاما
أراكَ كبِرْتَ واستحدثْتَ خُلْقًا وودَّعْتَ الكواعِبَ والمُـداما
فإنْ تكُ لِمَّتى يا قَتْلُ أضحتْ كأنَّ على مفـارِقِها ثَغـاما
وأقْصَرَ باطِلِى وصَحَوتُ حتى كأنْ لمْ أجْرِ فى دَدَنٍ غُلاما
فإنَّ دوائرَ الأيّـامِ يُفْنِى تَتابُعُ وَقْعِهـا الذَّكَرَ الحُساما
(الصبح المنير ، ص ١٣٤ ب ٥ –٩)

الأخطل :

وقد قالت مُدِلَّةُ إذ قلتْنى أراكَ كبِرْتَ والصُّدْغَيْنِ شابا

فإنْ يكُ رَيِّقِى قد بانَ منِّى   فقد أرْوِى به الرَّسَلَ اللُّهابا
(ص ٥٤ ب ٢٢ و ٢٣)

فالأخطل كما نرى كان يراجع الشعر الجاهلى ، ويتأثر به فى صوره وتعبيراته وأساليبه [١]. وقد اتكأ فيما استخدمه من الأساليب البيانية التى تحدثنا عنها فى الفصلين السابقين على فحول الجاهلية ، واتخذ مثله الفنية من روائعهم ، وتأثر بهم فى الأسلوب ، كما تأثر بهم فى الموضوع . فهو لم يبتدع الاستطراد فى معرض التشبيه ، ولم يخلق الاستدارة بنوعيها ، ولم يسبق القدامى إلى الوصف القصصى ، وإنما هى أساليب من الفن والبيان عرفها الشعر الجاهلى ، وأعجب بها شاعرنا ، فاستخدمها وأفاد منها ، دون أن يفقد شخصيته إلا فى القليل .

وليس بغريب أن يتأثر الأخطل بمن سبقوه ، فهذه سنة الفن على تعاقب العصور والأجيال ، يأخذ اللاحق عن السابق ، وينمى محصوله ، ويتطور به ، فيعلو عليه أو يتأخر عنه . والأخطل قد نشأ فى عصر كان الشعر الجاهلى فيه لايزال المثل الأعلى للذوق العربى وثقافته . فما كان العرب حينئذ يحيون حياة تخالف حياة العرب فى الجاهلية ؛ فالذوق عربى ، والأخلاق عربية ، والثقافة عربية . وإذا كان هناك من جديد ، فهذا الروح الإسلامى الذى استطاع أن يهذب شيئاً من أخلاقهم ، ويضيف شيئاً إلى ثقافتهم ، وإن لم يستطع أن ينسيهم حبهم للشعر العربى القديم الذى كان يتغنى به أجدادهم . فليس بغريب أن يظل الشعر الإسلامى فى جملته جاهلى الروح ، وأن تظل رسومه كما خطها الجاهليون [٢] ، وأن يندفع الأخطل فى هذا التيار ، فيتأثر بالشعر الجاهلى تأثر غيره من شعراء صدر الإسلام . والأخطل بعد لم يكن يحيا حياة تخالف حياة الكثير من شعراء الجاهلية ، فهو بدوى من مفرق الرأس إلى أخمص القدم ، ولد ونشأ فى البادية ، وعاش فى ظلها ، وتطبع بطباع أهلها ، وعلقت بنفسه وذهنه صورها ، فمن الطبيعى جداً أن يعرض لوصف الأطلال ، ويصور البرق والمطر والسحاب ، ويصف حيوان الفلاة من نوق وحمير وخيول وثيران وقطا ونعام وغربان وعقبان وذئاب وكلاب ، ومن الطبيعى أيضاً أن يصف ارتحال الظعن حين يتغزل ، وأن يذكر الفرات الذى

---

(١) شعر الأخطل ، ص ١٢ و ١٣ و ٨٥ ؛ ملحق ديوان الأخطل ، ص ٤٣١ و ٤٣٩ و ٤٤١ و ٤٦١ ؛ ذيل ديوان الأخطل ، ص ٥٠٢ و ٥٢٢ .

(٢) طه إبراهيم : تاريخ النقد الأدبى ، ص ٩٤ و ٩٥ .

يتاخم البادية التي عاش فيها، ويصور مافيه من سفن ، وما يضطرب فيه من موج ، وما يلقى فيه الملاحون من عناء ، وهو بعد نصراني لا يجد حرجاً في شرب الخمر ، ولم يحرم دينه عليه شربها ، ثم هو مولع بها يرى فيها مصدراً للإلهام الشعرى ، فلا عجب إذا تغنى بها في شعره ، وأفاد ممن سبقوه في ذلك ، وحفظ ماقالوه فيها وتأثر به .

على أن الأخطل ، والحق يقال ، كان يعمل في ترسمه للشعر الجاهلي ريشته الفنية ، ويصبغ ما أخذه عنه من الأساليب البيانية بصبغة من روحه ، ويطبعها بطابع من شخصيته . وإذا استثنينا مشهد الثور والكلاب في رائيته « الدار » ، أمكننا أن نقول إنه لم يكن ينقل عن فحول الجاهلية نقلا دقيقاً أمينا لا يترك له فضلا أو يثبت له جدارة ، بل كان في الأغلب الأعم يتصرف في عرض صوره واختيار ألفاظه تصرفاً فنيًّا ، تتجلى فيه براعته في الأداء ، وقدرته على الافتنان ، وشخصيته في التصوير ؛ يختصر المعنى حيناً ، وينميه أحياناً ؛ يأخذ شطراً من بيت ، أو كلمة ، أو تعبيراً ، أو معنى ، أو تشبيهاً ؛ يستخدم الاستدارة ، أو يجنح إلى الاستطراد ، أو يستعين بالوصف القصصي . ولكنه يعمل ريشته الفنية مع ذلك ، ويتصرف التصرف الفني الذي يحفظ له شخصيته ، ويطبع شعره بطابعه . ولذلك نراه ، على تأثره بالشعر الجاهلي ، يحتفظ بشخصيته الأخطلية في معظم أشعاره ، يحتفظ بها في ألفاظه وتعبيراته ، ويحتفظ بها في صوره وأخيلته ، ويحتفظ بها في وقفاته الفنية ، قصرت هذه الوقفات أم طالت .

وإذن فتأثر الأخطل بالشعر الجاهلي يجب أن يفهم على هذا الوجه . هو تأثر الفنان الدارس الناقد الذي يفيد ممن سبقوه في الرقي بفنه ، ويحتفظ مع ذلك بطابعه وشخصيته ، لا تأثر الناشئ المبتدئ أو الضعيف المقلد الذي تتعثر عواطفه وتتبعثر شخصيته بين أكوام من القوالب المحفوظة والرواسم الشائعة .

ويحدثنا الرواة بأن الأخطل كان يأخذ نفسه بالمدارسة والمراجعة في نظمه ، ويصطنع البطء والتمهل في إنتاجه ، حتى بلغ من شدة تهذيبه لقصائده أنه كان يقول تسعين بيتاً ثم يختار منها ثلاثين فيطيرها[1] . واعترف له النقاد بأنه كان أشد

---

(١) أبو الفرج : الأغاني ، ج ٨ ص ٢٨٤ .

من جرير والفرزدق فى ذلك ، فقالوا : « كان أشدهم تهذيباً للشعر »[١]. ولم ينكر ذلك جرير ، فقال : «كان أشدنا اجتزاء بالقليل »[٢] . واضطره التأنى فى نظم شعره ومراجعته إلى أن يستغرق منه نظم القصيدة الواحدة وقتاً طويلا . ولم يكن ضيقاً بذلك ، بل كان راضياً عنه معتزًّا به ، حتى قال لعبد الملك : « يا أمير المؤمنين ، زعم ابن المراغة أنه يبلغ مدحتك فى ثلاثة أيام ، وقد أقمت فى مدحتك « خف القطين فراحوا منك أو بكروا » سنة ، فما بلغت كل ما أردت »[٣] . وكان يقول : « اعلم أن العالم بالشعر لايبالى ، وحق الصليب! ، إذا مر به البيت العائر السائر الجيد ، أمسلم قاله أم نصرانى »[٤] .

فالأخطل إذن لم يكن من المطبوعين الذين ينظمون الشعر عفو الخاطر ، بل كان من هذا الصنف الدارس الناقد الذى يشق على نفسه ويجهدها طلباً للإتقان والجودة ، وكانت مراجعته للشعر الجاهلى مظهراً من مظاهر هذا الجهد الذى يبذله فى تجويد شعره وتهذيبه ؛ يستمد من روائع الجاهليين ، وينتقى منها ماهو أليق بمراده وأوفق لمقصوده ، ويعمل ريشته الفنية فيما يختار ، ويضفى من شخصيته على ما تأثر به من صوروأساليب ، ويكد ذهنه فى التقاط ألفاظه ، ويقدح زناد خياله ليظفر بجديد الصوروطريف المعانى ، حتى غدا من عبيد الشعر وأصحاب الحوليات .

ويبدو أنه كان للبيئة الأدبية التى احتك بها الأخطل فى ظل الأمويين أثر كبير فى اهتمامه بتجويد شعره عامة ، وبتجويد مانظمه فى ظلهم من مدائح بنوع خاص . فقد اتصل من رجال البيت الأموى بنخبة ممتازة كان للأدب من عنايتهم حظ كبير ، وكان الشعر أحب الفنون الأدبية إلى نفوسهم ، يسترفدون منه غذاء لقلوبهم ، ويتخذون منه وسيلة إلى التنويه بفضلهم ، والتمكين لما ظفروا به من ملك وسلطان .

كان معاوية يروى الشعر ، ويستشهد به ، ويطالب ولده بحفظه ، حتى

---

(١) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٨٣ .

(٢) نفس المصدر ، جـ ٨ ص٢٨٦ .

(٣) نفس المصدر ، جـ٨ ص ٢٨٧و٢٨٨ .

(٤) نفس المصدر ، جـ ٨ ص٢٨٩ .

قال : « اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر آدابكم ، فإن فيه مآثر أسلافكم »[١]. وقال : « يجب على الرجل تأديب ولده ، والشعر أعلى مراتب الأدب »[٢] . وكان ابنه يزيد شاعراً فصيحاً مفلقاً ، حتى قالوا : « بدئ الشعر بملك وختم بملك ، إشارة إلى امرئ القيس وإليه »[٣]، وجمعوا شعره فى ثلاث كراريس ، ذكر ابن خلكان أنه قرأها وحفظ أبياتها لشدة غرامه بها[٤] . وكان حفيده خالد يوصف بالعلم ويقول الشعر[٥]. أما عبد الملك فكان أديباً يجمع بين رواية الشعر ونقده ، وقد قال فيه الشعبى : « ما جالست أحداً إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك ابن مروان ، فإنى ماذاكرته حديثاً إلا زادنى فيه ، ولا شعراً إلا زادنى فيه»[٦]. وكان أخوه بشر ذواقة للشعر حفياً بالشعراء ، حتى غدا مجلسه ندوة أدبية يزيد من حيويتها إيقاعه بين الشعراء[٧]. وكان خالد بن أسيد وعبد الله بن سعيد يرويان الشعر ويهتزان لروائع الأشعار[٨]. وكان عبد العزيز بن مروان ، الذى اتصل الأخطل بابنيه ، راوية عالماً بالشعر وعنده رواة[٩] . وكان الوليد وهشام ابنا عبد الملك ، على علاتهما ، يرويان الشعر ويفاضلان بين الشعراء[١٠].

كان أغلب الأمويين الذين اتصل بهم الأخطل إذن أصحاب دراية بفن الشعر ، يقولونه ويروونه وينقدونه ويشجعون عليه . وقد شاءت له الظروف أن يبدأ صلته بهم وهو غلام ناشئ لا يحسن غير الهجاء، وأن يكون يزيد ، وهو أول من عقد بهم أسبابه ، شاعراً يقرض الشعر ويحسن التمييز بين جيده ورديئه . فلا عجب إذا اتجه بفنه منذ البداية إلى تجويد مدائحه فى هذا الأمير الشاعر . ثم توالت بعد ذلك

---

(١) المبرد : الكامل ، ج ٣ ص ١٢٣٢ .
(٢) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ١٥ .
(٣) ابن الطقطقى : الفخرى ، ص ٨٤ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٨ ٥٠ ؛ انظر آنفا ص٦٦ .
(٥) أبو الفرج : الأغانى ، ج ١٦ ص ٨٤ – ٨٦ ؛ انظر آنفا ص ٨٢ .
(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٩ ص ٦٣ ؛ انظر آنفا ص ١١٢ و ١١٣ .
(٧) انظر آنفا ص ١٢٦ و ١٢٨ .
(٨) انظر آنفا ص ١٣٣ و ١٣٤ .
(٩) أبو الفرج : الأغانى ، ج ١ ص ٣٢٧ ؛ انظر آنفا ص ١٣٤ .
(١٠) انظر آنفا ص ١٣٤ و ١٣٥ و ١٣٩ و ١٤٢ و ١٤٣ .

صلاته بالبيت الأموى ، فرأى نفسه تجاه نخبة ممتازة من المثقفين ، فيهم « الشاعر » و « الراوية » و « الناقد » ، وليس فيهم من لم يتعلق بالشعر بسبب أو يأخذ منه بنصيب ، فكان طبيعيًّا أن يواصل السير فى طريق الصنعة ، ويشتد اهتمامه بتهذيب ما ينظمه فى ظلهم من مدائح . ولا يفوتنا أنه ، منذ عقد بهم أسبابه ، كان يطمع فيما يغدقونه على الشعراء من عطاء ، وأنهم كانوا يدفعون بسخاء لصاحب الشعر الجيد الممتاز ، فليس ببعيد أن يدفعه الطمع فى عطائهم إلى أن يزداد احتفالا بشعره ، كما دفعه الخوف من نقدهم إلى أن يزداد عناية بفنه . ولا يفوتنا أيضاً أنه كان نصرانيًّا فى بيئة أدبية ممتازة دينها الرسمى الإسلام ، وأنه كان معرضاً إلى أن تقف نصرانيته بين شعره ونفوس البيت المالك ، فيزوروا عنه ويؤثروا عليه غيره من شعراء المسلمين ، فلا غرو أن يزيده هذا الموقف طلباً للإتقان والجودة ، وأن يقول قولته الآنفة الذكر : « إن العالم بالشعر لا يبالى ، إذا مر به البيت العائر السائر الجيد ، أمسلم قاله أم نصرانى » . فاذا أضفنا إلى ذلك ماقررناه سابقاً من أن مدائحه فى ظل بنى أمية تمثل أروع ماتفتحت عنه عبقريته الشعرية طولا فى النفس ، وتماسكاً فى البناء ، وتعدداً فى الأساليب ، وفخامة فى التصوير ، كان لنا أن نقول إنه كان للبيئة الأدبية التى احتك بها فى ظل بنى أمية أثر كبير فى اهتمامه بتجويد هذه المدائح .

ولقد تمكنت من نفس الأخطل هذه النزعة القوية إلى التهذيب والتجويد ، وقوى ذلك المنزع عنده ملكة الخيال والتفكير ، وكان له من جفاء طبعه وصلابة أخلاقه مايدفع به إلى ذلك دفعاً ، فبرع فى التصوير ، وغدا الفن التصويرى هو الطابع العام لشعره ، وأصبح فنه يهزنا بما فيه من خيال وتفكير ، ويروعنا بما فى ألفاظه من فخامة تملأ الأذن والفم والنفس جميعاً . وأغلب الظن أن هذا الجفاء فى الطبع ، وهذا النزوع إلى المراجعة فى النظم ، هما سر تأخره فى الغزل والرثاء بنوع خاص ، وفى الهجاء إلى حد ما .

فالغزل عنده توطئة فنية يمهد بها لغرضه الرئيسى فى جلال ووقار يتفقان وما هو بسبيله من مدح أو فخر أو هجاء ، وهو فى أغلب الأحيان غزل متكلف مصنوع لا يهز منا الشعور والوجدان . وإذا اتفق أن أعجبنا به أحياناً فلا نشك

أن مصدر هذا الإعجاب ماقد يكون فيه من طريف الخيال وجمال الإيقاع .

هذه إحدى توطئاته الغزلية من داليته فى مدح يزيد :

بانتْ سعادُ ففى العينين تَسْهيدُ   واستَخْقَبتْ لُبَّه فالقلبُ مَعْمودُ

. . . . الأبيـات   (ص ١٤٦ و١٤٧ ب ١–١٤)

إنها من أجمل مانظمه فى حياته من غزل . ولكن جمالها الذى يهزنا ويدفعنا إلى الإعجاب بها لا يأتى من دفقة الشعور وفورة الإحساس، وإنما يكمن فيما وفق إليه من موسقة فى اللفظ ، وبراعة فى التصوير ، وطرافة فى الخيال ، وهذا شأنه فيما نعجب به من مقاطعه الغزلية . إنه يصطنع الغزل ، ولا يجود به عفو الخاطر ، ويجهد نفسه ويشق عليها ، فلا يسمح أو يتدفق ، ولا يرق ولا يعذب ، إلا فى الفلتات .

وكذلك شأنه فيما يتعلق بالرثاء . فهو لم ينظم فى حياته الطويلة الحافلة غير أربعة أبيات رثى بها يزيد ، لكأنما لم يهزه موت أحد من ولده وأهله وصحبه ورجال عصره مثل ماهزه موت يزيد :

لَعَمْرى لقد دلَّى إلى اللَّحْدِ خالدٌ   جِنازةَ لا كابى الزِّنادِ ولا غُمْرِ

. . . . الأبيـات   (ص ٢٨٩ ب ١–٤)

وهذه الأبيات الوحيدة من نوعها فى الديوان ، إذا علت فى حساب الصداقة آية ذكرى ووفاء ، لاتبلغ فى عمق الشعور والإحساس ، مايجعلنا نهتز لها اهتزازنا لمراثى المهلهل والخنساء فى الجاهلية ، أو لرثاء جرير فى صدر الإسلام .

وكذلك شأنه أيضاً فى أغلب مانظمه فى حياته من هجاء . فهو يعنى بالألفاظ ، ويدقق فى اختيار العبارات ، ويتأنى فى عرض الصور ، دون أن يندفع اندفاع جرير وراء ما يضطرب به من غضب أو غيظ . إن ما يعجبنا فى هجائه هو اللفظ الجزل الرصين ، والمعنى البارع الطريف ، وهذا الوقار الذى يهتز له الخاصة ، كما أشار إلى ذلك قدماء النقاد[1] . أما النكتة المضحكة ، والدعابة المستملحة ،

(١) أبوالفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٣٠٥ .

والسخرية المطبوعة ، فقلما نظفر بشيء منها فى أهاجيه . لقد كان يصنع الهجاء، كما كان يصنع الغزل والرثاء .

* * *

ولامراء فى أن الأخطل وجريراً والفرزدق قد ملئوا عصرهم إنتاجاً ، وكانوا أكثر المعاصرين لهم شعراً ، وأطولهم فى النقائض باعاً ، وأفصحهم عن روح العصر الذى أنبتهم وعاشوا فى ظله . ولقد أجمع النقاد القدامى ، كما مر بنا فى مطلع هذا الفصل ، على أن ثلاثتهم طبقة واحدة جعلها ابن سلام أول طبقات الإسلام ، وكشفنا فيما سبق عن الظروف التى جمعت بينهم ، وأوضحنا موقف كل منهم من الآخر ، وموقف كل منهم من البيت الأموى ، وبينا العوامل التى جعلت الأخطل دون زميليه أثيراً عند الأمويين [١] ، فلم يبق لنا بعد ذلك غير أن نقف قليلا لنقابل بين الثلاثة فى معدن الشعر ولباب الفن ، ليزداد فن الأخطل بهذه المقابلة انكشافاً ، ومعدن شعره وضوحاً وجلاء .

فأما جرير فيختلف عن الأخطل فى معدن الشعر والطبع اختلافاً بيناً . فهو سمح الطبع لايتكلف فى شعره ما يتكلف الأخطل من عناء ، بل ينساق وطبعه السمح المتدفق ، فيبدو فى نظمه كمن يغرف من بحر ، على حد قول الأخطل فى الحكم بينه وبين الفرزدق [٢] . وهو ، فيما يعرض لنا الرواة من أمره، رقيق العاطفة، قوى الشعور ، سريع التأثر ، فهو فى الدين المؤمن المخلص،وفى الحب الزوج الوفى والأب البار ، وفى المدح والهجاء الشاعر المسلم والجراح المؤلم ، وفى الفخر المتحمس حتى التهور [٣] .

جلس يوماً يملى على رجل قوله :

وَدِّعْ أمامةَ حان منكَ رحيـــلُ　　إن الوَداعَ لِمنْ تُحِبُّ قليل

فمروا عليه بجنازة فقطع الإنشاد ، وجعل يبكى ، ثم قال : « شيبتنى هذه الجنازة ! » [٤] .

---

(١) انظر آنفاً ص ٦٥ و ٦٦ و ١٠٨ — ١١٤ و ١٢٧ — ١٢٩ و ١٤٨ و ١٤٩ و ١٧٨ و ١٨٥ و ١٨٦ و ٢٠٨ — ٢١٥ .

(٢) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٧٩ .

(٣) البستانى : جرير، الروائع، رقم ٤٠ ، ص يط ، ك .

(٤) أبوالفرج : الأغانى ، ج ٨ ص ٥١ .

وكان إذا صلى الصبح ، جلس فى فناء منزل أمام داره ، لا يكلم أحداً حتى تطلع الشمس ، ولا يبرح موضعه واو تناحر الحى [1] . وكان يختم مجلسه بالتسبيح فيطيل ، فإذا قيل له : « ما يغنى عنك هذا التسبيح مع قذفك للمحصنات ! » ، قال : « يا بن أخى (خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم) ، إنهم والله يا بن أخى يبدءونى ثم لا أحلم » [2] .

والتقى والفرزدق بمنى ، وهما حاجان ، فقال له الفرزدق :

فإنَّكَ لاقٍ بالمنــازل من مِنًى فَخَارًا ، فخبِّرْنى بمن أنتَ فاخِرِ ؟

فأجاب : « بلبيك اللهم لبيك » ! [3] .

وأمده هذا الطبع الرقيق بالعاطفة المتدفقة فى الغزل والرثاء ، فكان فيهما أقوى عاطفة وأوقع تأثيراً من الأخطل . عرف من نفسه هذه الرقة ، فقال : « ما عشقت قط . ولو عشقت ، لنسبت نسيباً تسمعه العجوز ، فتبكى على ما فاتها من شبابها » [4] . وحسده الفرزدق عليها ، فقال : « ويل ابن المراغة ! ما كان أحوجه مع عفافه إلى صلابة شعرى ، وأحوجنى مع شهواتى إلى رقة شعره ! » [5] . واعترف له بها ، فقال : « قاتله الله ! والله لو تركوه ، لأبكى العجوز على شبابها ، والشابة على أحبابها » [6] .

وقد استمع جرير إلى أشعب فى المدينة يغنى فى قوله :

يا أختَ ناجيةَ السّلامُ عليكمُ قبلَ الفِراقِ وقبلَ لَوْمِ العُذَّلِ

لو كنتُ أعلمُ أنَّ آخِرَ عهــدِكم يومَ الفِراقِ فعلتُ ما لم أفعلِ

فاستعاده ، فأعاده أشعب عليه وهو يبكى ، حتى اخضلت لحيته [7] .

---

(١) أبو عبيدة : نقائض جرير والفرزدق ، ص ٣٣ .
(٢) أبو الفرج : الأغانى ، ج ٨ ص ٤٤ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٨ ص ٣٣ و ٣٤ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٨ ص ٤٣ .
(٥) نفس المصدر ، ج ٨ ص ١٢ .
(٦) نفس المصدر ، ج ٨ ص ١١ .
(٧) نفس المصدر ، ج ٨ ص ١٣ .

ولقد ماتت زوجته ، فجزع على فقدها جزعاً شديداً . ولا يسع من يقرأ رثاءه لها غير أن يحس بفيض من الحزن يغمر نفسه ، وينضح على شعره رقة وعذوبة . وهذه أبيات من القصيدة يتجلى فيها دفقة الشعور وفيض الإحساس :

لولا الحياءُ لهاجَني استعبارُ ... ولزرتُ قبرَكِ والحبيبُ يُزارُ
ولقد نظرْتُ وما تَمتُّعُ نظرةٍ ... فى اللَّحْدِ حيثُ تمكَّن المِحْفار
فجزاكِ ربُّكِ فى عشيركِ نَظْرةً ... وسَقَى صَداكِ مُجَلْجِلٌ مِدْرار
ولَّهتِ قَلْبِي إذْ عَلَتْنِيَ كَبْرَةٌ ... وذَوُو التَّمائمِ من بَنِيكِ صِغار
أرْعَى النُّجومَ وقد مضتْ غَوْرِيَّةً ... عُصَبُ النُّجوم كأنَّهنَّ صُوَار
كانتْ مكرَّمةَ العَشِيرِ ولم يكنْ ... يَخْشَى غوائِلَ أمِّ حَزْرَةَ جار
ولقد أراكِ كُسِيتِ أجْملَ منظرٍ ... ومع الجمالِ سَكِينَةٌ ووقار
والرِّيحُ طيِّبةٌ إذا استقبلْتِها ... والعِرْضُ لا دَنِسٌ ولا خَوَّار
وإذا سَرَيْتُ رأيْتُ نارَكِ نَوَّرتْ ... وَجْهًا أغرَّ يَزِينُه الإسْفار
صَلَّى الملائكةُ الذين تُخُيِّرُوا ... والصالحون عليكِ والأبرار
وعليكِ من صَلوات ربِّكِ كلَّما ... نَصَبَ الحَجِيجُ مُلَبِّدِينَ وغاروا

(ديوان جرير ، ص ١٩٩ – ٢٠١ ب ١–٥ و ١١–١٦)

ولقد ماتت النوار زوجة الفرزدق فلم تندبها النادبات إلا بقصيدة جرير هذه التى رثى بها زوجته[١] . والذى يقرأ رثاء جرير لابنه سوادة لا يملك نفسه من أن يشارك الشاعر فى حزنه على فقد ولده ؛ فالألفاظ سهلة عذبة ، والصور أليفة قريبة ، وحزن الشاعر صادق مشبوب فى غير إجهاد أو تكلف[٢] . وكذلك شأن جرير فى أغلب مراثيه ؛ إسماح فى الطبع ، وصدق فى الإحساس ، يعلوان برثائه على ما نظمه الأخطل والفرزدق من رثاء .

---

(١) نفس المصدر ، حـ ٨ ص ١٠ .

(٢) ديوان جرير ، ص ٤٣٠ و ٤٣١ .

ويحدثنا الرواة بأن جريراً كان يصطنع السهولة فى نظمه ، ويبتعد بشعره عن الألفاظ الثقيلة والصور البعيدة . قال أبو عبيدة : « يحتج من قدم جريراً بأنه كان أكثرهم فنون شعر ، وأسهلهم ألفاظاً ، وأقلهم تكلفاً ، وأرقهم نسيباً ، وكان ديناً عفيفاً »[١] . فالتكلف لم يكن من طبعه ، والصبر الطويل على التنقيح لم يكن من خلقه[٢] ، وإنما كان فى أغلب شعره فطريًّا مطبوعاً ، يغترف من فيض طبعه فى سهولة ويسر ، لكأنه يغترف من بحر. وليس أدل على ذلك من أنه سهر ليلة فى نظم قصيدة يهجو بها الراعى ، حتى كان السحر ، فإذا هو يكبر قد قالها ثمانين بيتاً[٣] . واعترف بأنه هجا سراقة البارقى بقصيدة لم يستغرق منه نظمها أكثر من ليلة واحدة وإن كانت تقع فى اثنين وأربعين بيتاً[٤] . وزعم أنه يستطيع أن يبلغ مدحة عبد الملك فى ثلاثة أيام ، فى حين أن الأخطل قد أقام فى « خف القطين » سنة فما بلغ كل ما أراد[٥] .

وأعانه هذا الطبع السمح المتدفق على أن يندفع فى هجاء خصومه فى غير تكلف أو إبطاء ، فكان ينهشه ، فيما يروى الأصمعى ، ثلاثة وأربعون شاعراً فينبذهم وراء ظهره ، ويرمى بهم واحداً واحداً ، ومنهم من كان ينفحه فيرمى به ، حتى ثبت له الفرزدق والأخطل ، فتوالت عليهما أهاجيه[٦] . وهو فى هجائه حلو الدعابة ، مستملح النكتة ، قريب من الواقع ، مفتن فى سخريته[٧] ، لا يتورع على تدينه وتعففه فى حياته الخاصة عن الفحش فى تصويره . وهو يختلف عن الأخطل فى ذلك اختلافاً واضحاً ، فالأخطل يصطنع الوقار فى هجائه ، ويرضى منزعه الفنى فى التصوير ، دون أن يندفع اندفاعه وراء الفحش والبذاء . ولقد أبنّا فى الفصل السابق عن دقة موقفه من جرير فى هجائه ، ورأينا كيف أتاحت الظروف لجرير أن يكون أقدر منه فى الهجاء ، وأكثر حرية فى

---

(١) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٥ .
(٢) المرزبانى : الموشح ، ص ١٢٥ .
(٣) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٣٠ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٦٩ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٢٨٧ و ٢٨٨ .
(٦) نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٨ .
(٧) محمد حسين . الهجاء والهجاءون فى صدر الإسلام ، ص ١٦٠ .

التعبير عما يضطرب به صدره من غضب ، وما ينهش قلبه من غيظ[1] .

ويكفي أن نقرأ هجاء جرير في الأخطل ، لنرى توفيقه في السخرية من خصمه وبراعته في استغلال نصرانيته ، وافتنانه في التندر على أهله :

نَزَتْ أُمُّ الأُخَيْطِلِ وهْىَ نَشْوَى على الخِنْزِيرِ تَحْسِبُه غَزالا

تَظَلُّ الخَمرُ تَخْلِجُ أَخْدَعَيْها وتشكو في قوائمها امْذِلالا

منَ المُتَوَلِّجاتِ على النَّشاوَى ولم تَلِجِ الخُدورَ ولا الحجالا

إذا انفَتَقتْ عَباءَتُها وراحتْ رأى الرّاءونَ داهِيَةً عُضالا

(نقائض جرير والأخطل ، ص ١٩٥ و١٩٦ ب ٣١-٣٣ و٣٥)

أُمُّ الأُخَيْطِلِ أُمٌّ غيرُ مُنْجِبَةٍ أَدَّتْ لمِختلِفِ النَّابَيْنِ نَخّارِ

كأنّما افْتَرَّ من أفواهِ عُزْبَتِها ظِلَّا غُرابَيْنِ مَقْرُونَيْنِ في غار

شُبِّهْتُ أَرْآدَ لَحْيَيْها إذا سَكِرَتْ خُصْيَيْ حِمارٍ مُدَلٍّ عند بَيْطار

تَغْلِى الخَنانيصُ والفُولُ الذى أَكلتْ في حَاوِياوَىْ رَدُومِ الليلِ مِجْعار

(نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٧ و١٤٨ ب ٤١ – ٤٣ و٤٥)

والتغْلِبيّةُ في ثِنْيَىْ عَباءَتِها بَظْرٌ طويلٌ وفي باعِ ابنها قِصَرُ

من كلِّ مُخْضرَّةِ الأنيابِ فغرُّها لحمُ الخنانِيصِ تَغلى فوقَه السُّكر

نِشْوانُ تغلبَ لا حِلْمٌ ولا حَسَبٌ ولا جمالٌ ولا دِينٌ ولا خَفَر

(نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٧ ب ٥٤ و٥٥ وس ٢١)

والتغلِبيُّ إذا تَنَحْنَحَ للقِرَى حَكَّ اسْتَه وتَمثَّلَ الأَمثالا

(نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٩ ب ٢٥)

بَكى دَوْبَلٌ لا يُرْقِئُ اللهُ دَمْعَه ألا إنما يَبْكى من الذُّلِّ دَوْبَلُ

(نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٦ ب ٦)

---

(١) انظر ص ٢٠٣ – ٢٠٧ .

قُلْ للأُخَيْطِلِ لم تَبْلُغْ مَوازَنَتِى فاجْعَلْ لأُمِّكَ أَيْرَ القَسِّ مِيزانا

(ديوان جرير ، ص ٥٩٧ ب ٦٤)

ولا يسع من يتأمل أهاجيه غير أن يحس بهذا النفس السيال فى هجائه ، وهذه السهولة فى نظم ألفاظه ، وتلك العامية التى تقرب قرباً شديداً من الواقعية[1]. وهذا سر إعجاب العامة بشعره ، ولعله السر أيضاً فى قلة رواج شعره عند الخاصة ، الذين كانوا يفضلون عليه الأخطل باللفظ الجزل ، والمعنى البارع ، والتعفف عن الفحش[2] .

على أن الرقة فى الطبع ، وشيوع السهولة فى اللفظ ، والرغبة عن التنقيح فى النظم ، إذا كانت قد قربت غزل جرير ورثاءه وهجاءه من نفوس العامة ، فهى قد حرمته تقدير الخاصة فيما يتعلق بالمدح . ولقد أربت مدائحه فى الأمويين خلفاء وأمراء وولاة على مانظمه الأخطل فى ظلهم من مدائح ، ولكنه لم يستطع مع ذلك أن يبلغ إلى ما بلغ إليه الأخطل فى ملحه ، قوة فى التعبير ، وبراعة فى الأداء ، وفخامة فى التصوير . فالأخطل يصنع ملحه ، ويعمل ريشته الفنية فى تسويته ، ويوفر له الأساليب البيانية التى تنميه وتجمع بين أطرافه ، ويطيل النظر صوره وألفاظه ، ولا يألو جهداً فى مراجعته وتنقيحه ، حتى يستوى له آخر الأمر قوى النسج ، شديد الأسر . ويمهد له بمجموعة من المقدمات الفنية ، تحتفظ بهذا الطابع الفخم ، وتمتاز بألفاظها القوية المختارة ، وصورها الفنية المنتقاة ، فيسرى بذلك فى القصيدة نفس واحد ، تنطلق به حنجرة المنشد ، فيحس السامع بالجلال يأخذه من أقطاره ، ويروعه صدى الألفاظ الفخمة تتجاوب بها نفسه ، فلا يتمالك أن يحيى فى هذا الشاعر نبوغه فى مدح الملوك وأرباب السلطان . أما جرير فقد حرمته رقة طبعه ، وشيوع السهولة فى لفظه ، والرغبة عن التنقيح فى نظمه ، هذا الجلال الذى يمتاز به مدح الأخطل . وهو بعد لا يقع على صفات الأمويين كما يقع عليها الأخطل ، ولا يوفر تلك الأساليب البيانية التى يروعنا بجمالها الأخطل ، وصوره قريبة يسيرة لم يبذل فيها هذا الجهد الكبير الذى يبذله الأخطل .

---

(١) محمد حسين : الهجاء والهجاءون فى صدر الإسلام ، ص ١٦٠ – ١٦٨ .

(٢) أبو الفرج : الأغانى ، جـ ٨ ص ٢٨٣ و ٢٩١ و ٢٩٢ و ٣٠٥ و ٣١٨ .

ولقد مدح كلاهما عبد الملك بن مروان ، فاهتز الأخير لحائية جرير :

أَتَصْحُو ؟ بلْ فؤادُكَ غيرُ صاحٍ عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بالرَّواحِ

(ديوان جرير ، ص ٩٦)

كما اهتز لرائية الأخطل :

خَفَّ القَطِينُ فراحُوا منكَ أَوْ بَكروا وأزعجتْهُم نَوًى فى صَرْفِهـا غِيَرُ

(ص ٩٨)

ولكن ما أبعد الفرق بين معدن المدح هنا وهناك !

فى مدح جرير نسمع اللفظ السهل الرقيق ، ونرى التصوير الساذج البسيط . نراه يستّهل مدحه بهذه الصورة الطريفة ، يصور فيها زوجته وأولاده جياعاً ، وهو يمنيهم بالخير العاجل من عند الخليفة :

تَعَزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثُمَّ قالتْ رأيتُ المُورِدِينَ ذَوِى لِقَـاحِ

تُعَلِّلُ وهى سـاغِبَةٌ بَنيهـا بأنفـاسٍ من الشَّبِمِ القَـراحِ

سأَمْتاحُ البُحورَ فجنِّبِينِى أذاةَ اللَّوْمِ وانتظِرِى امْتِياحى

ثِقِى باللهِ ليس له شَـرِيكٌ ومِنْ عنـدِ الخليفـةِ بالنجاحِ

(ب ٨ – ١١)

ثم يلتفت إلى عبد الملك ، فيصرح بأطماعه فى سذاجة وتبسط :

أَغِثْنى يا فِـداكَ أبى وأُمِّى بسَيْبٍ منكَ إنكَ ذو ارْتِياحِ

فإنِّى قد رأيْتُ علىَّ حَقًّـا زيارتِىَ الخليفـةَ وامْتِـداحِى

سأَشكرُ أنْ رَدَدْتَ علىَّ رِيشِى وأَثْبتَّ القَوادِمَ فى جَنـاحِى

(ب ١٢ – ١٤)

ثم يأخذ فى مدح الخليفة وقومه ، معرضاً بابن الزبير ودعاته :

أَلسْتُم خيرَ من رَكِبَ المَطايا وأَنْدَى العالَمِينَ بُطونَ راحِ

وقَوْمٍ قد سَمَوْتَ لهم فـدانُوا بدُهْمٍ فى مُلَمْلَمَةٍ رَداحِ

أَبَحْتَ حِمَى تِهامةَ بعـد نَجْدٍ وما شىءٌ حَمَيْتَ بمُسْتَبـاحِ

لكم شُمُّ الجبال من الرَّوابِى وأعظمُ سَيْلِ مُعْتَلِجِ البِطاح

دَعَوْتَ المُلْحِدِينَ أبا خُبَيْبٍ جِماحًا هل شُفِيتَ من الجِماح

فقد وجدُوا الخليفةَ هِبْرِزِيًّا أَلَفَّ العِيصِ ليس من النَّواحى

فما شَجَراتُ عِيصِكَ فى قُرَيْشٍ بعَشَّات الفُروعِ ولا ضَــواحى

رأى الناسُ البَصِيرةَ فاســتقامُوا وبَيَّنَتِ المِراضُ من الصِّحاح

(ب ١٥ - ٢٢)

والأبيات كما نرى يسيرة فى معانيها ، سهلة فى ألفاظها، محدودة فى صورها . فالأمويون فى الفروسية خير من ركب المطايا ، وهم فى الكرم أندى العالمين بطون راح . والخليفة شجاع ذو بأس ، قد دان لجيوشه الأعداء ، وأباح حمى تهامة بعد نجد ، وأقام من الثوار ما اعوج . وهو بعد كريم المنبت ، عظيم المحتد ، أصيل الفرع ، من خيار قريش . فالمدح يسير بسيط ليس فيه كبير صنعة ، وصورة عبد الملك بين قومه محدودة الرقعة عادية السمات .

أما الأخطل فنراه فى مدحه يجود فنه تجويداً ، ويتأنى فى عرض صوره تأنياً ، ويحتفل بشخصية عبد الملك احتفالا ، ويطيل فى مدحه إطالة . ويقف فى هذا المدح وقفات فنية . يصور فيها كرم الممدوح وبأسه وأمجاد قومه . يبدأ هذا المدح بتقرير حق عبد الملك فى الخلافة . فهو مؤيد من الله فى ملكه . وهو خليفة الله فى أرضه ، يقوم بأمر الرعية فى حزم وعزم وقوة ومضاء ، فيستهل بذلك مدحه استهلالا سياسيًّا، ويدخل على مدحه وهمه الخليفة لا نفسه وزوجه وأولاده . وهو لا يصرح بأطماعه ، كما فعل جرير ، بل يشير إليها فى لباقة حين يلتفت بعد ذلك إلى كرم عبد الملك ، فينشئ استدارة جميلة يفاضل فيها بين الممدوح والفرات ، يأخذ بعدها فى تصوير عبد الملك مجاهداً أعداءه مثبتاً أركان ملكه ، فإذا هو قوى باطش ، يوقع بأعدائه أشد الإيقاع ، وإذا هو فارس مغوار ، يغشى القناطر هدماً وبناء ، وإذا هو شديد البأس ، قد رد المارقين إلى الجادة ، وهدى الضالين إلى الحق ، وأقام بجهاده ونضاله أمر العراق . ثم يفرع من هذا المدح الخاص مدحاً عامًّا يشيد فيه بالأمويين ، فيصورهم وقد حفوا بعبد الملك ، رجالا أفذاذاً هم من قريش فى

ذروتها ، ورجالا أطهاراً عياف الخنا أنفا . ويصف غيرتهم على الحق وشدتهم فى مقارعة الخطوب . ويذكر تأييد الله إياهم ورضاءه عنهم . ويمتدح شكرهم للنعمة وعدم بطرهم بالخير ، ويصف ما أثر عنهم من بطش عند الغضب ، وما عرف عنهم من حلم عند القدرة ، ويشيد ببلائهم فى الحرب وكرمهم فى العطاء ، حتى ليخيل إلى القارئ أنه لم يدع خلة من خلالهم دون أن يسجلها . وبذلك يخرج لنا الأخطل فى حشد من الأبيات صورة ممتازة للبيت الأموى ، تتجلى فيها دقة الفن وجلال التصوير . وهى صورة يحتل منها عبد الملك مكاناً بارزاً ، يحف به قومه فى جلال ، يملأ النفس هيبة وإعجاباً ، ولا يسع من يتأملها غير أن يعترف بما بذل فيها الأخطل من جهد[1].

أما الفرزدق فهو أقرب إلى الأخطل من جرير فى العناية بفنه . كان كالأخطل من هذا الصنف الذى يتأنى فى نظم شعره ، ويعنى بتجويده وتهذيبه ، ويشق على نفسه فى البحث عن شوارد الألفاظ وطريف المعانى ، لكأنه ينحت من صخر حين ينظم أشعاره[2] . ويزيد فى إحساس القارئ بما يبذله فى شعره من جهد ، ما يطالعه فى هذا الشعر من الألفاظ الخشنة الغريبة ، والتعابير القديمة المهجورة ، ويؤكد ذلك عنده تأثره الواضح بالشعر الجاهلى فى صوره وألفاظه ، مما يدل على أنه كان كالأخطل يراجع أشعار القدامى ليفيد منها فى تجويد شعره وتهذيبه .

والفرزدق كالأخطل يعنى بالتمهيد لقصائده . ويهتم بتوفير الأساليب البيانية التى توفر له ما يريد لشعره من قوة وفخامة .

فهو كالأخطل يستطرد من عنصر إلى عنصر فى معرض التشبيه . ثم يفصل القول فى المشبه به .

فنى رائيته « وشهورها » ، يتغزل فى امرأة جميلة ، فيشبهها بالدرة ، ثم يستطرد من هذا التشبيه إلى تصوير ما تكبده الصائد من أهوال ، حتى لقى حتفه فى سبيل الوصول إليها :

تَهادَى إلى بيتِ الصَّلاةِ كأنها … على الوَعْث ذو ساق مَهيضٍ كسيرُها

---

(١) انظر آنفا ص ١١٧ — ١٢٠ .

(٢) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٧٩ و ١٨٠ ؛ أبو الفرج : الأغانى ، ج ٨ ص ٣١٥.

كدُرَّةِ هِنديٍّ رَمَى فى مَهِيبةٍ ... بأَجْرامِه والنفسُ يَخْشَى ضَميرُها
مُوكَّلَةً بالدُّرِّ خَرْساءَ قد بكى ... إليه من الغُوَّاصِ منها نَذيرُها
فقال ألاقِى الموتَ أَوْ أَدْرِكُ الغِنى ... لنفسِىَ والآجالُ جاءَ دُهورُها
ولما رأى ما دُونَها خاطرتْ به ... على الموتِ نَفْسٌ لا يَنامُ فَقِيرُها
فأَهْوَى وناباها حَوالَىْ يتيمـةٍ ... هى الموتُ أو دنيا يُنادِى بَشيرُها
فألقت بكفَّيْهِ المنيَّةَ إذ دنا ... بعضَّةِ أنيابٍ سريعٍ سُؤُورُها
فحرَّك أعلى حَبْلِه بُحشاشـةٍ ... ومِنْ فوقِه خَضْراءُ طامٍ بُحورُها
فما جاء حتى مَجَّ والمـاءُ دُونَه ... مِنَ النَّفْسِ ألوانًا عَبِيطًا نحورُها
إذا ما أرادوا أن يُجِيرَ مَدُوفَةً ... أَبَى مِنْ تَقَضِّى نَفْسِه لا يُجِيرُها
فلمَّا أَرَوْها أمَّه هانَ وَجْـدُها ... رَجاةَ الغِنَى لمَّا أضاءَ مُنيرُها
وظلَّتْ تَغالاها التُّجَارُ ولا تُرَى ... لهـا سِيمةٌ إلا قليلًا كثيرُها

(ديوان الفرزدق ، جـ ٢ ص ٤٥٥ و ٤٥٦ ب ١٩–٣٠)

وهى وقفة فنية طويلة يتجلى فيها المنزع التصويرى فى وضوح ، ولا يسع من يتأملها غير أن يعترف بأنه قد احتفل بتجويدها ، وعنى باختيار ألفاظها وصورها ، واصطنع الوصف القصصى فى عرضها ، فجاءت ملتحمة الأجزاء ، محكمة البناء ، طريفة الخيال .

والفرزدق كالأخطل يستعين بالاستدارة بنوعيها فى تنمية أغراضه .

فى رائيته « الكبرا » يتخذ منها فى معرض المفاضلة أسلوباً فنيًّا ينمى به ملحه :

ما النِّيلُ يَضْرِبُ بالعِبْرَيْنِ دارئَهُ ... ولا الفُراتُ إذا آذِيُّه زَخَـرا
يَعْلُو أعـالِىَ عانات بمُلْتطِمٍ ... يُلْقِى على سُورِها الزَّيتُونَ والعُشَرا
تَرَى الصَّرارِىَّ والأمْواجُ تَلْطِمُه ... لا يستطيعُ إلى بَرِّيَّةٍ عَبَرا
إذا عَلَتْه ظِلالُ المَوْجِ واعْتَركتْ ... بواسِقاتٍ تَرَى فى مائها كدَرا

بمُستطيعٍ نَدَى بِشرٍ عُبابُهُما ولو أعانَهُما الزّابُ إذا انْحدَرا
(ديوان الفرزدق ، جـ ١ ص ٢٨٨ ب ١٨-٢٢)

وفى رائيته « عصرا » ويائيته « وماليا » يتخذ منها أسلوباً فنيًّا ينمى به غزله :

وما مُغْزِلٌ بالغَوْر غَوْرِ تِهامةٍ تَرَعَّى أراكًا من مَخارِمها نَضْرا
مِنَ العُوجِ حَوّاءُ المدامع تَرْعَوِى إلى رَشَأٍ طفْلٍ تخالُ به فَتْرا
أصابتْ بأعْلى الوَلْوَلانِ حِبالةً فما استَمْسكتْ حتى حَسبْنَ بها نَفْرا
بأحْسَنَ من ظَمْياء يومَ لقِيتُها ولا مُزْنَةٌ راحتْ غمامتُها قَصْرا
(ديوان الفرزدق ، جـ ١ ص ٢٢٦ ب ٣ -٦)

فما رَوْضةٌ وَسْمِيَّةٌ رَجَبِيَّةٌ خَلَتْ وتحامَتْها الرِّياحُ تَحاميا
بأطْيَبَ نَشْرًا من مُفَدّاةَ مَوْهِنًا إذا ما أرادتْ للضَّجيعِ تَعاطِيا
(ديوان الفرزدق ، جـ ٢ ص ٨٩١ ب ٤ و ٥)

وفى لاميته « قتيل » يتخذ منها فى معرض التوكيد أسلوباً فنيًّا ينمى به ملحه :

إنّى حلفتُ بصارعٍ لِابنِ لـه إسْحاقَ فوقَ جَبينِه المتلُول
ولقد حلفتُ بمُقْبِلينَ إلى مِنًى جاءوا عصائبَ فوقَ كلِّ سبيل
شُعْثِ الرُّءُوسِ مُلَبِّدينَ رمت بهم أنْقاءُ كلِّ تَنُوفَةٍ وهُجُول
أنْ قد مَضتْ لى منكَ حُسْنُ صَنيعةٍ والرّاقصاتِ بِنُمْرُقٍ وشَليل
(ديوان الفرزدق ، جـ ٢ ص ٦٧٩ ب ١٥ — ١٨)

وفى ميميته « رائم » يتخذ منها أسلوباً فنيًّا ينمى به هجاءه :

حلفتُ بربِّ الرّاقصات إلى مِنًى بَقِينَ نَهارًا داميات المناسِمِ
عليهنَّ شُعْثٌ ما اتَّقَوْا من وَرِيقةٍ إذا ما التظتْ شَهْباؤُها بالعمائم

لَتَحْتَلِبَنْ قَيسُ بنُ عَيْلانَ لَقْحةً ... صَرى ثَرَّةٍ أخلافُهـــا غيرُ رائم

(ديوان الفرزدق ، ج ٢ ص ٨٦٠ ب ١٤٣ — ١٤٥)

والفرزدق كالأخطل يستعين بالوصف القصصى فى تنمية أغراضه ، بل إنه يربى عليه إطالة وتفصيلا ، فيقص علينا فى غزله مواقف عهره وفجوره ، ويستخدم القصص فى مدحه ، كما يستخدمه فى فخره وهجائه . ويبدو أنه وجد فى هذا الأسلوب البيانى مايرضى نزعته إلى التصوير ، ويحقق له الإتقان الفنى الذى يريد ، فاتخذ منه ذريعة إلى الوقوف بعناصر شعره وقفات فنية جميلة .

فى رائيته « عائره » يقص علينا فى غزله إحدى مغامراته الليلية :

وَجَوْنٍ عليه الجِصُّ فيــه مريضةٌ ... تَطلَّعُ منه النَّفْسُ والموتُ حاضرُهْ

حَليلة ذى ألْفَيْنِ شيخٍ يَرى لها ... كثيرَ الذى يُعْطِى قليلاً يحاقره

نَهَى أهلُه عنها الذى يَعْلمونه ... إليها وزالتْ عن رَجاها ضرائره

أتيتُ لها مِنْ مُخْتِلٍ كنتُ أدَّرِى ... به الوحشَ ما يُخْشَى علىَّ عواثره

فما زلتُ حتى أصعدتْنِى حِبالُها ... إليها وليلِى قد تَخامَص آخره

فلما اجتمعْنا فى العَلالِىِّ بيننا ... ذكىٌّ أتى من أهل دارينَ تاجره

نَقَعْتُ غَلِيلَ النفسِ إلَّا لُبانةً ... أبتْ من فؤادى لم تَرِمْها ضمائره

فلم أرَ مَنْزولًا به بعــد هَجْعَةٍ ... ألذَّ قِرىً لولا الذى قد نحاذره

أحاذرِ بَوَّابَيْنِ قد وُكِّلا بهـــا ... وأسْمَرَ من ساجٍ تئِطُّ مَسامره

فقلتُ لها كيف النُّزولُ فإننى ... أرى الليلَ قد ولّى وصوَّتَ طائره

فقالتْ أقاليدُ الرِّتاجَيْنِ عنــده ... وطَهْمانُ بالأبواب كيف تُساوره

أبالسيفِ أم كيف التَّسَنِّى لموثَقٍ ... عليه رقيبٌ دائبُ الليلِ ساهره

فقلتُ ابْتغِى من غير ذاكَ مَحالةً ... ولِلأمرِ هيئاتٌ تُصاب مصادره

لعلَّ الذى أصعدتِنِى أنْ يَرُدَّنى ... إلى الأرض إن لم يَقْدِرِ الحَيْنَ قادره

فجاءتْ بأسبابٍ طِوالٍ وأشرفتْ ... قَسِيمةُ ذى زَوْرٍ مَخُوفٍ تَراتِره

أخذتُ بأطرافِ الحبالِ وإنما على الله من عَوْضِ الأمورِ مَيَاسِرُه
فقلتُ اقْعُدا إنَّ القيامَ مَزِلَّةٌ وشُدّا معًا بالحبلِ إنِّى مُخاطِرُه
إذا قلتُ قد نِلْتُ البلاطَ .تذبْذَبتْ حِبالِىَ فى نِيقٍ مَخُوفٍ مَخاصِرُه
مُنِيفٍ تَرى العِقْبانَ تَقْصُرُ دونَه ودُونَ كُبَيْداتِ السماءِ مَناظِرُه
فلما استوتْ رِجلاىَ فى الأرضِ نادَتا أحىٌّ يرجَّى أمْ قتيلٌ نحاذِرُه
فقلتُ ارفعا الأسبابَ لا يَشْعُرُوا بنا ووليّتُ فى أعجازِ ليلٍ أبادِرُه
هما دَلَّتانى من ثمانينَ قامةً كما انقضَّ بازٍ أقتمُ الريشِ كاسِرُه
فأصبحتُ فى القومِ الجُلوسِ وأصبحتْ مُغَلَّقَةً دونى عليها دَساكِرُه
وباتتْ كدَوْداةِ الجوارى وبَعْلُها كثيرٌ دواعى بَطْنِهِ وقَراقِرُه
ويَحْسَبُها بانتْ حَصانًا وقد جرتْ لنا بُرَتاها بالذى أنا شاكِرُه

(ديوان الفرزدق ، جـ١ ص ٢٥٨ – ٢٦٢ ب ٢٤ – ٤٨)

وفى نونيته « فأتانى » يقص علينا قصة الذئب الذى هجم عليه وهو يتناول طعامه :

وأطْلَسَ عَسّالٍ وما كان صاحبًا دَعَوْتُ بنارِى مَوْهِنًا فأتانى
فلما دنا قلتُ ادْنُ دُونَكَ إننى وإيّاكَ فى زادِى لَمُشْتَرِكانِ
فبتُّ أسَوِّى الزّادَ بَيْنِى وبينَه على ضَوْءِ نارٍ مَرَّةً ودُخانِ
فقلتُ له لمّا تَكَشَّرَ ضاحِكًا وقائمُ سَيْفِى من يدِى بمكانِ
تَعَشَّ فإنْ واثَقْتَنِى لا تَخُونُنِى نَكُنْ مِثْلَ من يا ذِئْبُ يَصْطحبانِ
وأنتَ امرؤٌ يا ذئبُ والغَدْرُ كنتما أُخَيَّيْنِ كانا أُرْضِعا بِلَبانِ
ولو غَيْرَنا نَبَّهْتَ تلتمسُ القِرَى أتاكَ بسَهْمٍ أو شَباةِ سِنانِ
وكلٌّ رفيقَىْ كلِّ رَحْلٍ وإنْ هما تَعاطَى القَنا قَوْماهما أخَوانِ[1]

(ديوان الفرزدق ، جـ٢ ص ٨٧٠ ب ١ – ٨)

(١) انظر وصف الأخطل للغراب والذئب (شعر الأخطل ، ص ٢٣٤ ب ١٠ – ١٥)

وفى يائيته « وما ليا » يقص علينا قصة الضيف الذى طرقه بليل فأكرم وفادته :

ومُسْتَنْبِحٍ والليلُ بَيْنِى وبَيْنَه ... يُراعِى بعَيْنَيْهِ النُّجومَ التَّواليا
سَرى إذْ تَغَشَّى الليلُ تحمِلُ صَوْتَه ... إلىَّ الصَّبا قد ظلَّ بالأمس طاويا
دعا دعوةً كاليأسِ لمّا تحمَّقتْ ... به البيدُ واعْرَوْرَى المِتانَ القَياقيا
فقلْتُ لأهلِى صَوْتُ صاحبِ قَفْرةٍ ... دعا أو صَدًى نادَى الفِراخَ الزَّواقيا
تأنَّيْتُ واستسمعْتُ حتى فَهِمتُها ... وقد وَقَّعتْ نكباءُ مَنْ كان ساريا
فقمْتُ وحاذرْتُ السُّرَى أن تَفُوتَنى ... بذى شُقَّة تعلو الكسورَ الخوافيا
فلما رأيتُ الرِّيحَ تَخلِجُ نَبْحَهُ ... وقد هَوَّرَ الليلُ السِّماكَ اليمانيا
حلفْتُ لهم إنْ لم تُجِبْه كلابُنا ... لأَسْتَوقِدَنْ نارًا تُجيب المناديا
عظيمًا سَناها للعُفاةِ رفيعةً ... تُسامِى أنوفَ الموقدِينَ فِنائيا
وقلتُ لِعَبْدَىَّ اسْعِراها فإنه ... كفَى بِسنَاها لابنِ إنسِكَ داعيا
فما خمدتْ حتى أضاءَ وَقُودُها ... أخا قَفْرةٍ يُزجِى المطِيَّة حافيا
فقمْتُ إلى البَرْكِ الهُجودِ ولم يكن ... سلاحى يُوَقِّى المُرْبِعات المتاليا
فخضْتُ إلى الأثناء منها وقد تَرَى ... ذواتِ البقايا المحسنات مكانيا
وما ذاكَ إلا أننى اخترْتُ للقِرَى ... ثَناءَ المخاضِ والجِذاعَ الأوابيا
فيكَّنْتُ سيفى من ذوات رماحِها ... غِشاشًا ولم أحْفِلْ بكاءَ رِعائيا
وقُمْنا إلى دَهْماءَ ضامِنةِ القِرَى ... غَضوبٍ إذا ما استحملوها الأثافيا
جُهُولٍ كجَوْف الفيلِ لم يُرَ مِثْلُها ... تَرَى الزَّوْرَ فيها كالغُثاءةِ طافيا
أنَخْنا إليها من حَضِيضٍ عُنَيْزَةٍ ... ثلاثًا كذَوْدِ الهاجِرىِّ رواسيا
فلما حَطَطْناها عليهنَّ أَرْزَمتْ ... هُدوءًا وألقتْ فوقهنَّ البوانيا
رَكودٍ كأنَّ الغَلْىَ فيها مُغيرةً ... رأتْ نَعَمًا قد جَنَّه الليلُ دانيا
إذا استحْمَشوها بالوَقودِ تغيَّظتْ ... على اللَّحْم حتى تَترُكَ العَظْمَ باديا

كأنّ نَهِيمَ الغَلْى فى حُجراتِها ... تَمارِى خصومٍ عاقِدِينَ النّواصيا
لها هَزَمٌ وَسْطَ البيوتِ كأنه ... صَرِيحيّةٌ لا تَحْرِمُ اللّحْمَ جاديا
ذَلِيلةِ أطرافِ العِظــامِ رقيقةٍ ... تَلَقّمُ أَوْصالَ الجَزورِ كما هيا
فما قَعَدَ العَبْدانِ حتى قَرَيْتُــه ... حَلِيبًا وشَحْمًا من ذُرَى الشّوْلِ واريا

(ديوان الفرزدق ، جـ ٢ ص ٨٩١ – ٨٩٣ ب ١٨ – ٤٢)

ولقد أضفى هذا المنزع التصويرى على مدح الفرزدق نوعاً من الفخامة والجلال يذكر القارئ أو السامع بالمدح عند الأخطل . فالفرزدق لا يتدفق فى مدحه تدفق جرير ، ولا يصطنع مثله السهولة فى اختيار صوره وألفاظه ، بل هو كالأخطل يصنع مدحه كما يصنع غزله ورثاءه ، ويتأنى فى تناول أغراضه ، ويحتفل بتجويد صوره وانتقاء ألفاظه ، ويمزج مثله فى مدحه بين الدين والسياسة ، ويتخذ من البيئة البدوية مادة يستقى منها صوره وتشبيهاته .

ولعل أقرب مثل لذلك بائيته التى مدح فيها عبد الملك بن مروان :

تضاحكتْ أنْ رأتْ شَيْبًا تَفرّعَنى ... كأنها أبْصرَتْ بعضَ الأعاجيب

(ديوان الفرزدق ، جـ ١ ص ٢٣)

فاللفظ فى المدح منتقى مختار ، والتعبير قوى ضخم القسمات ، والمزج ملحوظ بين الدين والسياسة ، والعناية بالصور الجزئية شائعة فى أبياته :

يا أيُّها الرّاكِبُ المُزجِى مَطِيّتَهُ ... يريد مَجْمَعَ حاجاتِ الأراكيب
إذا أتَيْتَ أميرَ المؤمنينَ فقُلْ ... بالنُّصح والعِلْمِ قَوْلًا غَيْرَ مكلوب
أمّا العِراقُ فقد أعطتْكَ طاعَتَهــا ... وعاد يَعْمُرُ منها كلُّ تخريب
أرضٌ رَميْتَ إليها وَهْىَ فاسدةٌ ... بِصارِمٍ من سُيوفِ اللهِ مَشْبوب
لا يَغْمِدُ السّيْفَ إلّا ما يُجَرِّدُه ... على قَفا مجرمٍ بالسُّوقِ مصلوب
مُجاهِدٍ لِعُداةِ اللهِ مُحْتَسِبٍ ... جِهادَهم بِضِرابٍ غَيْرَ تَذْبِيب
إذا الحروبُ بدَتْ أنيابُها خرجتْ ... ساقا شِهابٍ على الأعداء مصبوب
فالأرضُ للهِ وَلّاها خليفتَــه ... وصاحِبُ اللهِ فيها غَيْرُ مغلوب

بعدَ الفسادِ الذى قد كان قام به — كذّابُ أُمّكَةَ من مَكرٍ وتخريب
راموا الخلافةَ فى غَدْرٍ فأخطأَهم — منها صُدورٌ وفازوا بالعَراقيب
كانوا كسالِئَة حَمْقاء إذ حَقَنتْ — سِلاءَها فى أديمٍ غَيْرِ مَرْبوب
والناسُ فى فِتْنةٍ عَمْياء قد تَركتْ — أشرافَهم بين مقتولٍ ومَحْروب
دَعَوْا ليستخلفَ الرحمنُ خيرَهمُ — واللهُ يَسمع دَعْوَى كلِّ مكروب
فانقضَّ مثلَ عَتِيقِ الطَّيْرِ تَتْبَعُه — مَساعِرُ الحربِ من مُرْدٍ ومن شِيب
لا يَعْلِفُ الخيلَ مَشْدودًا رحائلُها — فى مَنْزِلٍ بنَهارٍ غَيْرَ تأويب
تَغْدو الجيادُ ويَغْدو وَهْوَ فى قَتَمٍ — منْ وَقْعِ مُنْعَلَةٍ تُزْجَى ومَجنوب
قِيدَتْ له من قُصورِ الشّامِ ضُمَّرُها — يَطْلُبْنَ شَرْقِىَّ أرضٍ بَعْدَ تَغريب
حتى أناخَ بمكانَ الضَّيْفِ مُغْتَصِبًا — فى مُكْفَهِرَّيْن مِثْلَىْ حَرَّةِ اللُّوب
وقد رأى مُصْعَبٌ فى ساطعٍ سَبِطٍ — منها سَوابِقَ غاراتٍ أطانيب
يومَ تَركْنَ لإبراهيمَ عافيَةً — من النُّسورِ وُقوعًا واليَعَاقيب
كأنَّ طَيْرًا منَ الرّاياتِ فوقَهُمُ — فى قائمٍ لَيْطُها حُمْرُ الأنابيب
أشطانُ مَوْتٍ تراها كلما وَرَدَتْ — حُمْرًا إذا رُفِعتْ من بَعْد تَصْويب
يَتْبَعْنَ منصورةً تَرْوَى إذا لَقِيَتْ — بقانِئٍ من دم الأجواف مَغْصوب
فأصبح اللهُ وَلَّى الأمْرَ خَيْرَهُمُ — بَعْدَ اختلافٍ وصَدْعٍ غَيْر مَشْعوب
تُراثَ عُثمانَ كانوا الأولياءَ له — سِرْبالَ مُلْكٍ عليهم غَيْرَ مَسْلوب
يَحْمِى إذا لَبِسُوا الماذِىَّ مُلْكَهُمُ — مِثْلَ القُرومِ تَسامَى لِلْمَصاعيب
قَوْمٌ أبوهم أبو العاصِى أجادَ بهم — قَرْمٌ نجيبٌ لِحُرّابٍ مَناجيب
قَوْمٌ أُثِيبُوا على الإحسان إذ مَلَكوا — ومِنْ يدِ اللهِ يُرْجَى كلُّ تثويب

(ديوان الفرزدق ، ج ١ ص ٢٤ – ٢٧ ب ٨ – ٣٥)

وهذا المنزع التصويرى فى المديح شائع فى مدائح الفرزدق . يشيع فى وقفاته

الفنية الطويلة ، كما يشيع فى صوره الجزئية المركزة . وهو فى ذلك يقترب من فن الأخطل فى المدائح قرباً شديداً، بل إنه لينحو نحوه أحياناً ويتكئ عليه فى توليد صوره والتقاط عباراته .

فقوله :

العاصِبِ الحَرْبَ حتى تَسْتَقِيدَ له بالمَشْرَفِيَّةِ والعافِى إذا قَدَرا

(ديوان الفرزدق ، جـ ١ ص ٢٨٦ ب ٧)

صدى لقول الأخطل :

شُمْسُ العَداوةِ حتى يُسْتَقادَ لهم وأعظمُ النّاسِ أحلامًا إذا قَدَروا

(ص ١٠٤ ب ٤١)

وقوله :

أَيُعْجِبُ النَّاسَ أَنْ أَضْحَكْت خَيْرَهُمُ خليفةَ الله يُسْتَسْقَى به المطر

(ديوان الفرزدق ، جـ ١ ص ٣٦١ ب ١)

ينظر إلى قول الأخطل :

الخائِضُ الغَمْرَ والمَيْمُونُ طائِرُه خليفةُ الله يُسْتَسْقَى به المطر

(ص ١٠١ ب ١٩)

وقوله :

تَرَى الرِّجالَ لِبِشْرٍ وَهْىَ خاشِعةٌ تَخاشُعَ الطَّيْرِ لِلْبازى إذا انْكَدرا

إذا رأَتْه عِتاقُ الطَّيْرِ أَوْ سَمِعتْ منه هَوِيًّا تَشَظَّتْ تَبْتِغِى الوَزَرا

(ديوان الفرزدق ، جـ ١ ص ٢٨٨ و ٢٨٩ ب ٢٥ و ٢٨)

تنمية لقول الأخطل :

بازٍ تَظَلُّ عِتاقُ الطَّيْرِ خاشعةً منه وتَمْتَصِعُ الكِرْوانُ واللُّبَد

(ص ١٧٢ ب ٢٥)

وقوله :

كأنَّما يَنْضِحُ العَطَّارُ كَلْكَلَه وساعِدَيْه بِوَرْسٍ يَخْضِبُ الشَّعَرا

(ديوان الفرزدق ، جـ ١ ص ٢٨٧ ب ١٢)

مأخوذ من قول الأخطل :

كأنّه من نَدَى القُرّاصِ مُغْتَسِلٌ   بالوَرْسِ أو خارجٌ من بَيْتِ عَطّار

(ص ١١٦ ب ٢٧)

والفرزدق ، فيما يحدثنا به الرواة ، كان يفيد من المعاصرين له ، كما كان يفيد من السابقين عليه . ولقد اعترف بإغارته على الشعراء ، فقال : « ضوال الشعر أحب إلى من ضوال الإبل ، وخير السرقة مالم تقطع فيه اليد »[1].

ويروى أنه وقف بذى الرمة وهو ينشد ، فأعجبه قوله :

أحِينَ أعاذَتْ بى تَمِيمٌ نساءها   وجُرِّدْتُ تَجْرِيدَ اليَمانِى مِنَ الغمْد

ومَدَّتْ بِضَبْعَىَّ الرِّبابُ ومالِكٌ   وعَمْروٌ وشالتْ من ورائى بَنُو سَعْد

ومن آل يَرْبُوع زُهاءٌ كأنه   دُجَى اللَّيْلِ محمودُ النِّكايةِ والورْد

وكنّا إذا الجَبّارُ صَعَّرَ خَدَّه   ضَربْناه فوق الأُنْثَيَيْن على الكَرْد

فقال لراويته : « ياعبيد ، اضممها إليك » ، وانتحل الأبيات [2].

ومر يوماً بالشمردل وهو ينشد قصيدته ، حتى بلغ إلى قوله :

وما بَيْنَ من لم يُعْطِ سَمْعًا وطاعةً   وبَيْنَ تَمِيمٍ غَيْرُ حَزِّ الغَلاصِم

فقال : « والله لتتركن هذا البيت أو لتتركن عرضك » ، وانتحل البيت [3].

وقدم المدينة ، فمر بجماعة من الناس قد استكفوا على جميل وهو ينشد ، فوقف يستمع ، حتى قال :

تَرى النَّاسَ ما سِرْنا يَسيرُونَ خَلْفَنا   وإنْ نَحْنُ أوْ مَأْنا إلى النّاسِ وَقَّفُوا

فصاح به : « أنا أحق بهذا البيت منك » ، وانصرف فانتحله [4] .

وبلغه قول ابن ميادة :

---

(١) المرزبانى : الموشح ، ص ١٠٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٠٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٠٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٠٩ .

لَوَانَّ جميعَ النَّاسِ كانوا بتَلْعَةٍ وجئْتُ بِجَدّى ظالِمٍ وابْنِ ظالِمِ
لَظلَّتْ رِقابُ النَّاسِ خاضِعةً لنا سُجودًا على أقدامِنا بالجَماجِمِ

فبدل فى عجز البيت الأول ، وقال : « وجئت بجدى دارم وابن دارم » ، ثم أدخلهما فى شعره[1] .

فلا غرابة إذن فى أن يغير على شعر الأخطل ، ويفيد منه فى تجويد أشعاره .

ويحدثنا الرواة بأن الإعجاب كان متبادلا بين الأخطل والفرزدق ، ويغلب على الظن أنه كان لتقارب الشاعرين فى الطباع والمشارب أثر كبير فى إحكام مابينهما من صداقة ومودة ، فكلاهما بدوى فى طبعه جفاء البدو وخشونتهم وقساوتهم ؛ وكلاهما متحرر فى أخلاقه يدمن شرب الخمر ويعاشر الفواجر ؛ وكلاهما يصطنع المنزع التصويرى فى نظمه ويراجع ما ينظمه ويعنى بتهذيبه وتنقيحه ؛ وكلاهما قد وقف من جرير موقف الخصومة ، واحتفل فى شعره بهجائه . فلا غرو إذا جمعت بينهما هذه المشابه ، وقوت ما بينهما من ترابط ، ولا غرابة إذا رأينا الأخطل يفضله على جرير ، ويستند فى هجاء خصمه على التنويه بشاعرية صديقه ونسبه العريق فى قومه ، ولا عجب إذا قابل الفرزدق هذا الشعور بالمثل ، ودافع عن الأخطل فى شعره ، وبقى حافظاً لهذا الود حتى بعد أن فرق بينهما الموت[2] .

وإذا كان الأخطل قد حكم بأن جريراً يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر[3] ، فهو لم يطلق قوله جزافاً . وحين قال :

إنَّ الفرزدقَ صخرةٌ عاديَّةٌ طالتْ ، فليس تنالُها الأوْعالا
(ص ٣٩٦)

لم يأت بهذا القول اعتباطاً ، بل كان يقصد إلى الحط من جرير ، إذ يصطنع

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٠٨ .

(٢) قال الفرزدق بعد موت الأخطل يتهدد خصومه وأعداءه :

أمسى لتغلب من تميم شــاعر يرمى القبائل بالقصيد الأثقل
إذ غاب كعب بنى جميل عنهم وتنمر الشعراء بعد الأخطــل
يتباشرون بموته ووراءهم منى لهم قطع العذاب المرسل
(ديوان الفرزدق ، جـ ٢ ص ٧٠٨)

(٣) انظر آنفا ص ١٢٧ و ١٢٨ .

السهولة والتبسط فى نظمه ؛ ويصور بالقولين ما فى شعر الفرزدق من تماسك فى النظم وقوة فى الجرس وضخامة فى اللفظ ، ويعرض صورة من نفسه وشعره حين ينظم هو الآخر أشعاره .

على أن للفرزدق مع قربه من الأخطل فى الصناعة الشعرية عيوباً ظاهرة سلم منها الأخطل ، فاستحق بذلك الأفضلية على الفرزدق . فالفرزدق كان يشق على نفسه أحياناً ويجهدها فى إخضاع الألفاظ لما يريد أن يصوره من المعانى ؛ ولا يرى حرجاً فى استعمال الكثير من المفردات المهجورة والتعابير القديمة ، وإن كانت حوشية جافة ينبو عنها الذوق ويثقل وقعها فى السمع . وكثيراً ما كان يخرج عن دقائق التأليف الضرورية وشروط التعبير الصحيح ، فيغيظ بذلك النحاة ويثيرهم عليه . وكان على جفاء طبعه وخشونة لفظه يتعمد أحياناً أن يطيل القول فى الغزل ، فيأتى به غثًّا بارداً يثقل على النفس ، أو يعمد إلى الإباحية ، فينسج بخياله مواقف للفسق تخدش بصورها الحياء . وقد يصطنع الإطالة فى بعض القصائد مكاثراً ، ويتعمدها متكلفاً ، فينتهى به الأمر غالباً إلى التكرار والإسفاف . وكان مغروراً شديد الاعتداد بنفسه ، حتى ليبلغ به الغرور أحياناً أن يقف من ممدوحه موقف الند للند . أو يتعالى عليه بقومه ، وإن كان هذا الممدوح خليفة أو أميراً أو عاملا . وهو إلى ذلك متذبذب فى علائقه بممدوحيه ، لا يكاد يمدح أحدهم حتى يهجوه . ولا يتورع عن هجاء من يمدحهم بعد موتهم . فلا غرو إذا أفسد بغروره وتطاوله علاقته بالأمويين ، ولم يظفر بما ظفر به الأخطل فى البلاط الأموى من تقدير . ولا غرو إذا استطاع الأخطل بإخلاصه وولائه لبنى أمية . واستواء فنه فيما أنتج فى مدحهم من قصائد ، وإكثاره من الأساليب البيانية فى تناول أغراضه . واصطناعه الفخامة فى مدحه ، وابتعاده عن التعهر فى غزله ، وتعففه عن الفحش فى هجائه . ومراعاته لشعور الأمويين فى فخره ، لا غرو إذا استطاع الأخطل بذلك كله أن يظفر بالسبق فيما نظم فى ظل الأمويين من مدائح . وأن يصبح دون جرير والفرزدق شاعر الدولة غير مدافع .

المصادر

المصادر العربية

الآمدى المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .

ابن الأثير الكامل فى التاريخ ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ .

أحمد أمين فجر الإسلام ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .

— ضحى الإسلام ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ .

الأخطل شعر الأخطل ، بيروت ، ١٨٩١ م .

الأصمعى الأصمعيات ، القاهرة ، ١٣٧٤ هـ .

الأعشى الصبح المنير فى شعر أبى بصير ميمون بن قيس بن جندل الأعشى والأعشين الآخرين ، فينا ، ١٩٢٧ م .

امرؤ القيس ديوان امرئ القيس ؛ انظر « أهلوارت » .

أهلوارت العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين ، جريفزولد ، ١٨٧٠ م .

البستانى الأخطل ، بيروت ، ٣٦ / ١٩٤٠ م .

— جرير ، بيروت ، ٤١ / ١٩٤٢ م .

— الفرزدق ، بيروت ، ١٩٤١ م .

البغدادى خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ .

البلاذرى فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٣١٩ هـ .

التبريزى شرح ديوان الحماسة ، القاهرة ، ١٣٥٨ هـ .

أبو تمام نقائض جرير والأخطل ، بيروت ، ١٩٢٢ م .

— ديوان الحماسة ؛ انظر « التبريزى » .

الجاحظ البيان والتبيين ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ .

— الحيوان ، القاهرة ١٣٥٧ هـ .

جاد المولى — أيام العرب فى الجاهلية ، القاهرة ، ١٣٦١ هـ .

جرير — ديوان جرير ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .

جميل سعيد — تطور الخمريات فى الشعر العربى من الجاهلية إلى أبى نواس ، القاهرة ، ١٣٦٤ هـ .

الحاجرى — العتابى ، القاهرة . مجلة الكاتب المصرى ، مجلد ٧ عدد ٢٨ .

حتى — تاريخ العرب (مطول) ، بيروت ، ١٩٤٩ م .

حسان — ديوان حسان بن ثابت الأنصارى ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ .

حسن إبراهيم — تاريخ الإسلام السياسى ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ .

حتى — الفرزدق ، القاهرة ، ط . دار المعارف ، بدون تاريخ .

حميدة — أدب الخلفاء الأمويين ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ .

الخضرى — محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .

خلف الله — محاضرات عن الأخطل ألقيت على طلبة الليسانس بجامعة الإسكندرية فى ٤٣ / ١٩٤٤ م .

— من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده . القاهرة ، ١٣٦٦ هـ .

ابن خلكان — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . القاهرة ، ١٢٩٩ هـ .

ابن دريد — الاشتقاق ، جوتنجن ، ١٨٥٤ م .

ابن رشيق — العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ، القاهرة ١٣٥٣ هـ .

زهير — ديوان زهير ؛ انظر « أهلوارت » .

الزوزنى — شرح المعلقات السبع ، القاهرة ١٣٥٤ هـ .

زيدان — تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ، ١٩٢٤ م .

— تاريخ التمدن الإسلامى ، القاهرة ١٩٠٢ م .

الزيات — دفاع عن البلاغة ، القاهرة ، ١٣٦٤ هـ .

ابن سعد — كتاب الطبقات الكبير ، ليدن ، ١٩٠٢ م .

ابن سلام — طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، القاهرة ، ط المحمودية ، بدون تاريخ .

السيوطى — المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ، القاهرة ، ط . عيسى الحلبى ، بدون تاريخ .
— تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ .

الشايب — تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى ، القاهرة ، ١٣٦٤ هـ .
— تاريخ النقائض فى الشعر العربى ، القاهرة ، ١٣٦٥ هـ .

شوقى ضيف — الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، القاهرة ، ١٣٦٢ هـ .
— التطور والتجديد فى الشعر الأموى ، القاهرة ، ١٣٧١ هـ .

شيخو — شعراء النصرانية فى الجاهلية ، بيروت ، ١٩٢٦ م .
— شعراء النصرانية بعد الإسلام ، بيروت ، ١٩٢٤ م .
— النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ، بيروت ، ١٩٢٣ م .

صالحانى — شعر الأخطل ؛ انظر « الأخطل » .
— ملحق ديوان الأخطل ، بيروت ، ١٩٠٩ م .
— ذيل ديوان الأخطل ، بيروت ، ١٩٢٥ م .
— الشذر الذهبى فى شعر الأخطل التغلبى ، بيروت ، ١٩٢٥ م .
— التكملة لشعر الأخطل عن نسخة طهران الخطية ، بيروت ، ١٩٣٨ م .
— نقائض جرير والأخطل ؛ انظر « أبو تمام » .

الطبرى — تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ .

طه إبراهيم — تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع ، القاهرة ، ١٣٥٦ هـ .

طه حسين — فى الأدب الجاهلى ، القاهرة ، ١٣٥٢ . هـ .
— حديث الأربعاء ، القاهرة ، ١٣٥٦ هـ .
— الفتنة الكبرى[١] ، عثمان ، القاهرة ١٣٦٦ هـ .
— الفتنة الكبرى [٢] ، على وبنوه ، القاهرة ، ١٣٧٢ هـ .

طرفة — ديوان طرفة ؛ انظر « أهلوارت »

ابن الطقطقى — الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٤٥ هـ .

ابن عبد البر — الإنباه على قبائل الرواة ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ .

ابن عبد ربه — العقد الفريد ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ .

العدوى — الأمويون والبيزنطيون ، البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية ، القاهرة ، ١٣٧٢ هـ .

أبو عبيدة — نقائض جرير والفرزدق ، ليدن ، ١٩٠٧ م .

العسكرى — ديوان المعانى ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ .

العقاد — أبو الشهداء الحسين بن على ، القاهرة ، ط. سعد مصر ، بدون تاريخ .

— عبقرية الإمام ، القاهرة ، ١٣٦٢ هـ .

علقمة — ديوان علقمة ؛ انظر « أهلوارت » .

عنترة — ديوان عنترة ؛ انظر « أهلوارت » .

أبو الفرج — الأغانى ، القاهرة ، الأجزاء من ١ — ١١ ، ط. دار الكتب ، ١٣٤٥ ؛ بقية الكتاب ، ط . الساسى ، ١٣٢٢ هـ .

الفرزدق — ديوان الفرزدق ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .

الفيروزبادى — القاموس المحيط ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ .

ابن قتيبة — الشعر والشعراء ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ .

— أدب الكاتب ، القاهرة ، ١٣٥٥ هـ .

القرشى — جمهرة أشعار العرب ، القاهرة ١٣٤٥ هـ .

القطامى — ديوان القطامى ، ليدن ، ١٩٠٢ م .

ابن كثير — البداية والنهاية فى التاريخ ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ .

كرد على — الإدارة الإسلامية فى عز العرب ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ .

المبرد — الكامل فى اللغة والأدب والنحو والتصريف ، القاهرة ١٣٥٥ هـ .

— نسب عدنان وقحطان ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .

محمد حسين — الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ، القاهرة ، ١٣٦٧ هـ .
— الهجاء والهجاءون فى صدر الإسلام ، القاهرة ، ١٣٦٧ هـ .
— صناجة العرب أعشى قيس ، رسالة ماجستير مخطوطة .

المرزبانى — معجم الشعراء ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .
— الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، القاهرة ، ١٣٤٣ هـ .

ابن مزاحم — وقعة صفين ، القاهرة ، ١٣٦٥ هـ .

المسعودى — مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ .

المعرى — رسالة الغفران ، القاهرة ، ١٣٧٣ هـ .

المفضل — المفضليات ، القاهرة ، ١٣٦١ هـ .

المقريزى — النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، القاهرة ، ١٣٥٦ هـ .

ابن منظور — لسان العرب ، القاهرة ، ١٣٠٠ هـ .

الميدانى — مجمع الأمثال ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ .

النابغة — ديوان النابغة ، انظر « أهلوارت » .

أبو النصر — عثمان بن عفان ، بيروت ، ١٣٥٤ هـ .
— معاوية بن أبى سفيان ، بيروت ، ١٣٥٥ هـ .
— يزيد بن معاوية ، بيروت ، ١٣٥٥ هـ .
— الحجاج بن يوسف حاكم العراقيين ، بيروت ، ١٣٥٧ هـ .
— الحضارة الأموية العربية فى دمشق ، بيروت ، ١٣٦٧ هـ .

نوفل — شعر الطبيعة فى الأدب العربى ، القاهرة ، ١٣٦٤ هـ .

ابن هشام — السيرة النبوية ، القاهرة ، ١٣٥٥ هـ .

هيكل — حياة محمد ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .
— الصديق أبو بكر ، القاهرة ، ١٣٦١ هـ .
— الفاروق عمر ، القاهرة ، ١٣٦٤ هـ .

ياقوت — معجم البلدان ، ليبزج ، ١٨٦٦ م .

اليعقوبى — تاريخ اليعقوبى ، النجف ، ١٣٥٨ هـ .

أبو يوسف — الخراج ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ .

المصادر الإفرنجية

Brockelmann, C. : Geschichte der arabischen litteratur, Leiden, 1937-49.

Dozy, R.: Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête de L'Andalousie par les Almoravides (711-1110), nouvelle édition revue et mise à jour par E. Lévi-Provençal, Leyde, 1932.

Farmer, H. : A History of Arabian Music to the XIIIth. Century, London, 1929.

Lammens, H. : Le Chantre des Omiades, Paris, 1895.

— Etudes sur Le Siècle des Omayyades, Beyrouth, 1930.

Nicholson, R. : A Literary History of the Arabs, London, 1930.

Perceval, C. De : Notice sur les trois poètes arabes : Akhtal, Farazdak et Djérir (Journ. Asiat., XIII et XIV, 1834).


Encyclopaedia of Islam.

الفهرس

صفحة

الباب الرابع

شعر الأخطل فى ظل الأمويين



١٥٠٠ م   ٢/١١٣١٦٠

الناشر دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل

منطقة الاسكندرية ٤٢ شارع سعد زغلول - ٢ ميدان التحرير (المنشية)